رواية

أحمد المرسي

مُقَامرةٌ عَلى شَرف الليدِي مِيتسِي

دار دَوِّن

t.me/twinkling4

مقامرة
على شرف الليدي ميتسي

أحمد المرسي

مقامرة
على شرف الليدي ميتسي

روايـــة

دَوِّنْ
للنشر والتوزيع

The power of unfulfilled desires is the root of all man’s slavery

Paramahansa Yogananda

إن الأمنيات التي لم تتحقق هي أصل عبودية كل إنسان

برمهنسا يوغانندا

عتبة

ماتَ فوزان الطحاوي بلا أمنيات، لم يشعر به أحد، حتى إنهم عرفوا بموتهِ بعد ليلتين، وجدوه نائمًا في فراشهِ على جانبه كجنين، نحيل، كأنما مات منذ ألف سنة، مُغمض العينين، فاغرًا فاه، وقد ضم يديه إلى صدره، كمن يترجى الموت لإعطائه مهلة أخرى، ملفوفًا في بطانية من الصوف رائحتها تشبه رائحة القش المبلل.

لم يكن رجلًا مُهمًّا، لا أهل له، كان يطوف القرية في الصباحات الباكرة ليُصلح سرج حصان أو برذعة حمار، ثم يأوي آخر النهار لبيته الطيني على أطراف البلدة، فيختفي عن الأنظار، ويظهر في اليوم التالي من جديد، كأنه يولد ويموت كل يوم!

لهذا ولشدة فقر الرجل لم يجد من اكتشفوا موته ما يصلح لديه كثمن لأكفانه، فتشاركوا ليجهزوه صدقة، ودفنوه، ثم قرأوا له الفاتحة وانصرفوا.

لم يعبأ أحد بموت فوزان الطحاوي إلا الشيخ غالب، كان جالسًا في مربط خيوله، يدخن الشيشة مع العمدة وغيره من الشيوخ، فاقترب الخادم منه، ومال نحو أذنه، وهمس له بالخبر الذي كان ينتظره منذ زمن طويل:

- فوزان الطحاوي مات يا حاج!

لمعت عينا الشيخ الخمسيني، وبرقتا، ثم قام، وأخذ عباءته وعصاه، وترك العمدة وضيوفه، ورحل.

أخذ معه ابنه وثلاثة من خدمه، وهرع قبل المغرب إلى بيت الميت والسماء ملطخة بدم المغيب.

كان يتوكأ على عصاه بغضب، يدقُّ الأرض الترابية بها، كأنما يشكو للقدر تأخُّر أجَل فوزان الطحاوي، أو ربما لأنه كان يخاف أن تأتي تلك اللحظة، وربما لأنه لم يكن يريد له أن يموت من الأساس.. كانت مشاعره مُختلطة، يسير بخطوات تظهر ثابتة لكنها مرتعشة، فلا يجرؤ لا ابنه ولا واحد من خدمه على اجتيازها، وفي رأسه تدور الزوابع.

منذ سنوات بعيدة، قالت له أمه إن فوزان الطحاوي سرقهم وقتل أباه، نساء أبيه الأخريات قلن ذلك أيضًا، ماذا سرق؟ لم يُفصحن، وكيف قتله وهو يومئذ ابن أربعة عشر عامًا؟ لم يقلن، لم يكن هناك إجابة لدى الشيخ غالب؛ لقد عاش نصف قرن ينتظر موت فوزان الطحاوي، ابن عمه؛ من أجل أن يستردَّ شيئًا ما لا يعرف ما هو! واليوم تم مراده.

عندما اقترب من البيت رأى طفلة صغيرة وحيدة جالسة تبكي على السلم، وهي تمسك زلطة، لكزها غالب بعصاه في ضجر وهو يدمدم:

- بعّدي يا بت!

ابتعدت مفزوعة، ووقفت تنظر لهم وهم يدخلون المنزل بغرض تفتيشه!

كان متأكدًا من أن فوزان الطحاوي -رغم فقره الشديد- يُخبئ حُججًا شرعية لأطيان زراعية، وعقودًا لأملاك، وربما ذهبًا سرقه من أبيه، وكان مستقرًا في ذهنه أن فوزان الطحاوي عاش طوال عمره غنيًّا يدَّعي الفقر؛ مخافة الانتقام، واليوم وفي تلك الليلة سيصير كل ما كان ملكه غنيمة له!

لم تكن الكهرباء قد وصلت جزيرة سعود في عام ١٩٧٥، ولذلك ظلوا مدفوعين طوال الليل بالفضول يفتشون في بيت الميت الذي لم تبرد جثته على ضوء لمبة كيروسين، وكانوا قد وضعوا لشيخهم مقعدًا أمام الباب، فجلس يستند بجبينه إلى عصاه مهمومًا، أنفاسه ثقيلة وعلى كتفيه العريضتين عباءته، وأضاؤوا له البقعة التي يجلس فيها بفانوس يمسك به واحد من الخدم، ويقف بجواره كديدبان!

قلبوا البيت عاليه سافله، فلم يجدوا شيئًا ذا بال، لا مال ولا عقود ولا يحزنون، وكانوا على وشك المغادرة بعد أن أصابهم اليأس من أن يأخذوا الحلاوة التي وعدهم بها سيدهم، عندما شعر واحد منهم بالملمس الصلب في حشو مرتبة فوزان التي ينام عليها، ما دفعهم إلى شق المرتبة القطنية بالطول ليُخرجوا ما تعمّد الميت إخفاءه عن الأنظار بداخلها!

وعلى الضوء الخافت أخرجوا رزمة أوراق مخبأة بعناية، لُفَّت

بغلاف مجلة، عليها صورة لجمال عبد الناصر، ورُبِطت بحبل من خيط مَجْدُول أكثر من لفة، وكأنها خبيئة ثمينة.

لم يتمالك واحد من خدم الشيخ غالب نفسه في تلك اللحظة، عندما ظن الأوراق عقودًا فصاح:

- عُجُود يا شيخ غالب! عُجُود..

انتفض غالب من مكانه، ورفع رأسه، ثم قام وهو يضرب عصاه بالأرض، وهرع للداخل، حتى أمسك بيده الرزمة، وصار يقلب فيها.

لكنه بمجرد النظر عرف أن خادمه الجاهل أخطأ، وأن هذه الأوراق ليست عقودًا كما توهَّم، إنما قصاصات جرائد صفراء قديمة، جميعها عن أخبار سباقات الخيل في نادي هليوبوليس؛ نادٍ لم يعد له وجود من الأصل، وخطابات لم يستطيعوا قراءتها، آخرها مُؤرَّخ بـ١٩٢٥، وعليه طابع يحمل صورة الملك فؤاد!

عندما قلَّب في الأوراق، سقطت من بينها تلك الصورة الفوتوغرافية، فمال الشيخ غالب والتقطها، ثم رفعها ونظر لها على ضوء الكلوبّ الذي يحمله خادمه، ودقق النظر مندهشًا!

ففي الصورة، بالأبيض والأسود، كان غلام فوق فرس بيضاء، تُمسك بلجامها امرأة أجنبية، تنظر للعدسة بهدوء، وعلى جانبيها رجلان؛ أحدهما عابس ينظر للعدسة نظرة

كئيبة، بينما الآخر بفمه سيجارة ويضع يديه في وسطه بزهو!

ولم يكن الشيخ غالب يحتاج لكثير من التدقيق ليعرف أن هذا الغلام فوق الفرس لم يكن إلا فوزان الطحاوي نفسه في صغره، وهو ما أظهرته الكتابة ذات الخط الرديء.

اسم الفرس:

«شمعة» بنت يلدز الكبيرة أم الخيل.

وعلى ظهر الصورة، وجدوا مكتوبًا:

الست ميتسي الإنكليزية، مرعي أفندي المصري، وسليم أفندي حقي.

مصر الجديدة، ١٩٢٠

(١)

١٩٢٠

وقف سليم أفندي حقي مثل تمثال يدخن، وهو يراقب بعينين ميتتين العتالين يحملون آلة الجرامافون، ويهبطون بها بحرص عبر السلم إلى ظهر عربة كارو ينتظر بجوارها.

أخذ يراقبهم، ثم رفع طرف عينيه إلى المشربية ولمح -كما توقع- زوجته تودِّع آلة المزيكا العزيزة على قلبها، فقال للعربجي وكأنه يُهّون عليها بصوت جعله مسموعًا:

- بالراحة يا معلم حجاج!

قالها وكأن الآلة لها روح يمكن أن تتألم، فضحك الرجل وهو يشمر جلبابه،

ويقفز فوق العربة، ويستلم مقود الحمار، فألقى سليم نظرة أخيرة على الجرامافون المُطعَّم بالنحاس المُذهب، وسأله:

- عارف المكان بالظبط؟

- أومال! دكان الخواجة كاروس، شارع بولاق قدام أجزاخانة «ويزر».

ثم استطرد وهو يبتسم:

- متخافش يا بك، هي أول مرة؟! حاااه!

وقفت عبارة «هي أول مرة» كالشوكة في حلقه، فصمت، ابتلعها وهو يشعر بمرارتها، وتابع الكارو وهي تخرج من الحارة متمايلةً، والأطفال يتبعونها، والنسوة في المشربيات يتعجبن من تلك الآلة الغريبة التي نزلت من بيت بنت الأكابر التي جارَ عليها الزمن، حتى إن واحدة منهن تساءلت هامسةً:

- ديهده يا ولاد؟!

ولكن ابنتها التي كانت تلميذة في المدرسة السنية قالت:

- دا جرامافون يا ماما.. جرامافون.

لم تكن حقًّا هذه أول مرة كما قال العربجي، فعلى مرِّ الشهور الماضية، كانت النسوة من جيرانه بحارة شيخون بالخليفة يقفن في المشربيات بين القلل الفخار، يراقبن بمزيج من الفضول والأسى عربات الكارو وهي تنقل قطع أثاث بيته؛ قطعةً بعد قطعةً مربوطة بالحبال، وتجرها البغال والحمير للسوق؛ حيث تباع في باب الخلق والموسكي، ثم يلوين شفاههن:

- سُبحان مُغَيِّر الأحوال!

لم تكن الحسرة التي يتحدثن بها حسرة كاملة، ولكنها حسرة مشوبة براحة، تلك التي تصيب الإنسان عندما يرى غيره في مصيبة، فيقول لسان حاله: الحمد لله هذا لا يحدث لنا!

باع سليم حقي من قبلُ أشياء أكثر أهمية من الجرامافون، ولكنه كان دومًا يؤجل بيعه، حتى صار شكله غريبًا في صالة خاوية على البلاط، ولم يكن ذلك لأنه عزيز عليه مثلما كان عزيزًا على زوجته، ولا لأنه عن طريقه سمع لأول مرة تلك الماكينة المُتكلمة، ولكن لأنه الشيء الوحيد الذي أتت به زوجته من بيت أبيها البك في المنصورة، ولذا كان يشعر وهو يراقب عربة الكارو المهتزة بأنه عارٍ من رجولته.

اختفت العربة في نهاية الزقاق، فصعد لأعلى وقلبه يرتعش؛ خوفًا من المواجهة، لقد كان صوت الجرامافون هو الشيء الوحيد الذي يُسلِّيها في ليالي البرد والمرض، والحي الوحيد في بيت تموت قلوب أصحابه ببطء، وتظل مظلمة أركانه إلا من بصيص أضواء مصابيح واهنة بعد أن قرر استخدام لمبات جاز نمرة ٥ بدلًا من نمرة ١٠ توفيرًا للزيت وتقليلًا للنفقات.

دخل على زوجته الشابة غرفتها، فوجدها جالسةً على سريرها النحاس، بجوار كومود تتراصُّ فوقه قوارير الدواء، التي تفوح برائحة كيميائية خانقة تشي بحالتها، وخادمتها العجوز على الأرض فوق قطعة كليم تضع يدها على خدِّها بحزن.

يعلم مدى الألم الذي تسبب لها فيه ببيعه الجرامافون، تذكَّرَها منذ عام واحد، وهي جالسة على طرف السرير، تستمع لدور «القلب في الحب هوى»، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، بينما صوت داوود أفندي حسني يملأ أركان المنزل بخشخشات الأسطوانة التي تدور حول إبرتها. كيف يمكن أن تتغير الحياة بهذه السرعة!

لقد صمت الجرامافون الآن للأبد.

قالت له بصوت مبحوح عندما رأته عند الباب والدموع متجمدة في عينيها:

- بناقص سي عبد الحي، وسي يوسف المنيلاوي، دا حتى جابوا لي الصداع ووجع النافوخ، أنا عاوزة أرتاح.

كانت تكذب، خرج الكلام منها مختنقًا، بابتسامة طفيفة منكسرة، قلبها يوجعها، يعرف ذلك. يعيه. ودَّ لو أنها ثارت، أو اعترضت، أو حتى تبرَّمت، لو قالت: «لا». لكنها لم تفعل ذلك. فضَّلت أن يموت قلبها بصمت.

* * * *

أخذ ثمن رهن الجرامافون وذهب إلى قهوة الديوك، وراء الكتبخانة السلطانية بميدان باب الخلق؛ حيث تدار كوبانية للمراهنات بواسطة رجل يُدعى عرابي.

حلقة متسعة من البشر، وديكان يتصارعان ويتشابكان داخلها بالمناقير والمخالب، فوق التراب الملوث بالدم، وسط النقنقة والريش المتناثر حتى الموت، والمال يدور فوق جثث الخاسرين.

كان يحمل ديكه الهندي تحت إبطه كما يُحمل الرضيع، ويقف ينتظر دوره.

تجمَّع الناس في دائرة حول الحلبة، منذ الصباح، وكان الصياح عصبيًّا شديدًا، بين جمع من الصعايدة والفلاحين والأفندية.

عندما خلت الساحة تقدَّم ووضع الديك، الذي سرعان ما نفش ريش رقبته واشرأبَّ بعنقه، وأطلق صيحات متتالية في انتظار الديك المنافس.

صبي القهوة صاح معلنًا عن النزال وهو يرفع بيده مال الرهانات المُجمع:

- سمع هوس! والقلب العاصي يصلِّي على النبي، ثلاثة أهيف من المعلم ضرغام، معلم بين النهدين المملكة، عم الجدعان، وزيهم من الأفندي المقلفط أبو زاكتة وجرابته حرير..

وضع ضرغام ديكه في الحلبة، ثم نظر لهذا المجهول نظرة استهزاء، كان شكله غريبًا وسطهم؛ ملامحه الهادئة الوسيمة، وشاربه الكستنائي المُشذب، وقامته النحيلة

الطويلة، وملابسه التي كانت ذات يوم فخمة، مُهندمة، كلها أشياء كانت تقول إنه لا ينتمي لهذا المكان.

انقضَّ الديكان على بعضهما، يتراشقان بالضربات، ويلتحمان، ثم يبتعدان، ويعودان ليشتبكا بالمناقير والمخالب، وارتفعت أصوات النقنقة، وتناثر الريش، ومعه ارتفع صياح المتفرجين بصرخات زاعقة مجنونة محمومة بحمى الفوز:

- إديله مهموز.. مقص!

لم تكن سوى دقيقة واحدة حتى انقضَّ ديكه على الديك الآخر، ونقره في رقبته فذبحه، وانطلق الديك الآخر يتمرغ في التراب، ويرتدُّ من جهة إلى أخرى حلاوة روح، حتى خمدت حركته، وإذا بصمت يعم الكوبانية بالكامل، ولم تعلُ صيحات النصر التي كان لا بد أن تعلو لو كان الفائز رجلًا آخر وضعوا عليه رهاناتهم، فلم يراهن على هذا الناعم المجهول أحد من المتجمهرين.

تقدَّم ضرغام حتى جلس عند الديك المذبوح، وقلب جثته بين يديه بوجه ملتاع، ثم قام ورفع جلبابه، واستلَّ سكينًا جنبية من جراب جلد ملفوف حول فخذه، صائحًا بغضب:

- جَتَلْت الديك؟ يحرَج ميتين أبوك!

عرف سليم أنه ينوي ذبح ديكه انتقامًا، فانطلق نحوه ودفعه أرضًا، مما أثار غضب ضرغام، الذي سقطت عِمته من

فوق رأسه، عندما هوى على ظهره فوق الأرض كالزكيبة، فقام ثائرًا بغباره يصرخ صرخة قتال، وانقضَّ على سليم نفسه بالسكين عازمًا ضربه بها في جانبه!

أصاب النصل ساعد سليم، فتراجع بسرعة للوراء وهو يتأوَّه، ولم يُثِر مشهد الدم في نفوس المتجمهرين إلا شهوة غريبة من الهياج، فصاروا يصرخون، ووسَّعوا الدائرة حتى تحوَّل الاثنان وسطهم لديكين متنافسين، ولم يفهم كيف تورط في ذاك القتال الغريب، وعينا ضرغام ترمقانه بغِلّ.

كان يرتعش من الانفعال، عندما هجم عليه غريمه، عازمًا رشق السكين في صدره، ولكنه هذه المرة تفادى النصل بصعوبة، وانطلقت قبضته في وجه مهاجمه، فحطم فكَّ الرجل، الذي لم يستطع التوازن وسقط ثانية، ولكن هذه المرة جثم فوق صدره، وصار يكيل له اللكمات، وهو يصرخ في جنون، وجسده ينتفض، ولم يكن في جسد غريمه من الوعي ما يجعله يقاوم، فأصبح ككيس الرمل، يضرب فيه دون رد، وهو يصرخ صراخًا لا يعلم سببه.

كان ثائرًا، يشعر أنه تحوَّل لشيطان عنيد، وهو يُحطِّم وجه الرجل، ولم يشعر إلا وهم يحملونه من فوقه، وهو يتملص منهم محاولًا الوصول للسكين من أجل قتله، كبَّلوه من ورائه، وسمع صيحة عرابي صاحب القهوة:

- بس!

ظهر أمامه الرجل الكهل، ورمقه بنظرات متفحصة، ثم مدَّ

يده في جيبه أسفل جلبابه، وأخرج من السيالة رزمة من النقود، أخذ منها ستة جنيهات، أعطاها له، وقال:

- حقك يا أفندي!

تركوه فوقف يلهث مثل الثور الهائج من أثر الانفعال، والدمُ يغلي في رأسه وعينيه، وضربات قلبه متسارعة كالطبول، ثم أخذ الديك، وألقى نظرة أخيرة على الصعيدي الذين كانوا يحاولون إفاقته، ورحل.

* * * *

حمل الديك على صدره، وسار به في الشوارع وقدماه ترتعشان، قميصه مُمزق، وجرح ساعده يؤلمه، وكامل جسده مكدود.

كان فُرْجةً للناس، وقد شعر «الأجزجي» الإفرنجي في الأجزاخانة التي دخلها في الأزبكية بالهلع عندما رآه ملوثًا بالدم، وتحت إبطه ديك هندي، يطلب منه ثلاث زجاجات رينولين؛ دواءً لزوجته المريضة.

كان يُركِّب له الدواء وهو يراقبه بريبة، وسليم يتنفس في غضب، وينظر للطريق بالخارج في قلق، فلما انتهى الأجزجي من إعداد التركيبة له، أخرج له بأصابعه الملوثة بالدم والتراب عشرين قرشًا، ثم رحل!

* * * *

تابعه جيرانه ورواد مقهى ملاح في حارة شيخون بالخليفة، وهو يسير بالديك بجروحه ممزق الثياب، وهمس أحدهم:

- هو دا سليم أفندي ظابط السواري! إخيه على الدنيا..

وقال صبي المقهى وهو يضع أمامه كوب زبيب:

- الدنيا حكم تمام ومواعظ..

النسوة مصمصن شفاههن، وقالت واحدة منهن للأخرى:

- مسكينة الست عايدة..

عندما رأته الخادمة صكَّت صدرها وكادت تصرخ، ولكنها كتمت أنفاسها، فنظر لها في لامبالاة وهو يلقي الديك على السلم، ودخل يغسل وجهه وجراحه في الحوض، كان يرتعش والماء ينساب على ذراعه وينزل بالدم والتراب.

لم يحاول أن يرى زوجته عايدة، كان مثل الطفل يهرب من وجه أمه إذا ما ارتكب خطأ، لم يُلقِ حتى نظرةً على غرفتها، فقط كان يسمع سعالها يأتيه من الداخل، وهي تكاد تتقيأ قلبها!

أعاد الديك إلى مكانه فوق السطوح، وأحاطه بالأقفاص، وربط رقبته بحبل في دعامة، ثم وضع له يأكل.

وقف يراقبه وهو ينهش اللحم بمنقاره مثل السكين في وحشية؛ ديك هنديّ أحمر قويّ، ذو رقبة طويلة، وملامح غاضبة مثله، ومنقار معقوف كالخطاف المقلوب.

كان يركب كل يوم إلى الحسينية حيث يجمع له شَغَت اللحم والدهون المُلقاة على أرضية المجازر، ويُحضرها له في ورقة ليأكلها!

استغرق في فكره، وتذكر الديك الآخر الذي كان يرفرف بجناحيه مذبوحًا، ثم خمد بلا روح! كان تجسيدًا لمفهوم الموت بلا قيمة، هل هناك موت بقيمة حتى يكون هناك موت بدونها؟ إن الحياة ذاتها عبث بلا هدف، إنه مثل الديك المذبوح؛ يرفرف وجسده يرتد بلا إرادة منه يمينًا ويسارًا بلا غاية؛ إن ما يحركه ليس روحه، ولكن طلوع روحه!

لقد تحوَّل لواحد من أبناء الشوارع، الذين كان مكلفًا بضبطهم والسيطرة على شغبهم. انتهى كل شيء الآن!

عندما نزل من فوق سطح المنزل، وقف وسط الصالة الخاوية على البلاط، ورأى الصورة الوحيدة المعلقة فوق الجدار بمسمار، وكأنها تقاوم السقوط.

أخذ يتأملها بجمود، صورة بالأبيض والأسود لهيئته القديمة؛ هيئة ضابط بزي ميري أسود، بأزرار نحاسية لامعة، وأكمام مقصبة بخيوط ذهبية، وسراويل ذات شرائط، وطربوش فوق رأسه، وقفازين أبيضين في يده، وسيف

مُفضض يتدلى من جانبه، بينما يقف هو منتصبًا بنظرة متفاخرة للعدسة، كانت له عينان مختلفتان، لم يكن فيهما نظرة الحزن التي تطوف فوق أجفانه الآن كسحابة حزينة. كان كأنه شخص آخر، شخص به روح!

انتزع الصورة المعلقة على المسمار.

* * * *

بعشرين قرشًا من مال الرهان أرسل الخادمة العجوز نبوية إلى السوق، فاشترت رطلين لحم عجالي، وصنعت لهم طبقًا شهيًّا من كباب الحلة وصينية ضولمة كاذبة.

أول وجبة حقيقية تدخل هذا البيت منذ شهور.

كان الصاغ سليم أفندي حقي يقبض ماهية قدرها ١٨ جنيهًا، بالإضافة إلى جنيه بدل ملبوسات، ولكن بعد أن رُفِتَ من خدمة الحكومة نفدت كل مدخراته في أول شهرين، وانعدمت أصناف طعام بعينها من بيته كاللحم والدجاج والسمن، ولم يخرج أكلهم طوال تلك الأيام العصيبة عن أرغفة الخبز والفول النابت والمدمس والتسقية والسلطة والفريك.

جلس أمام زوجته عايدة على المائدة الخشبية والمقعدين الوحيدين المتبقيين من أثاث ردهة منزله، يفصل بينهما رائحة الطعام الشهي الذي لم يذوقانه منذ شهور.

رآها تأكل في وهن، هادئة، لم تعلق على ما حدث، حاول أن يرى نظراتها، ولكنها لم تكن تنظر له، أو ظنَّ ذلك، ساعِدُه كان مربوطًا بالشاش، ومظهره يقول كل شيء، قدماه تهتزان أسفل الطاولة بتوتر مثل طفل مذنب، خائف، ومضطرب، ينتظر العقاب.

عندما لاحظت أنه لا يأكل توقفت عن الأكل، وتركت ملعقتها ورفعت عينيها له قائلة:

- ليه مش بتاكل؟

توقفت قدماه عن الاهتزاز، وابتسم لها في عصبية!

* * * *

بعد يومين ذهب ليضع بعضًا من مكسبه الفائت رهانًا جديدًا في الكوبانية، وهناك نازل ديك الصابوني؛ أحد مِعلمي الحسينية.

جلس الصابوني فوق مقعد خشبي ينظر له بعينين ملؤهما الشرر، يشرب الجوزة، بسراويله المنفوخة كسراويل التُرك، والسترة البلدي والطربوش محبوك على رأسه، بينما أمسك صبيه الديك ووضعه في الحلبة، فنفش ريش رقبته الملون مزهوًا بزينته وفي كامل لياقته، وبدأ إطلاق صياحات قوية.

ورغم أن ديك الصابوني كان أضخم، ولكنه لم يصمد دقيقة

أمام ديك الأفندي «المزيلح بتاع المدارس»!

هذه المرة لم تسلم الجرة، ففور أن فعل، انقضَّ رجال الصابوني، وسحبوا الديك من الحلبة -وكأنهم اتفقوا على هذا مسبقًا- وقاموا بذبحه على مرأى من صاحبه بمطواة، وألقوه على الأرض ينتفض!

عندما رأى سليم المشهد ثار في غضب، ولم يتمالك نفسه إلا وقد أمسك بأحد المقاعد وضرب الصابوني به على رأسه ففتح قرنه، ثم انتفض يضرب بثورة مشاديده، واشتعل الموقف، ولم يفق من تلك المعركة إلا وصفارات البوليس ترن من كل مكان، والعساكر يندفعون من كل الشوارع المجاورة، وينقضُّون على كل الموجودين في المقهى بالعصيّ، فطرحوه مع من طرحوهم أرضًا، وجرُّوه على «قره قول» (1)باب الخلق!

* * * *

كان سليم حقي مثل الثور الهائج، يدفع العساكر والأصفاد في يده، وما كاد يرى الكونستابل الذي أوقفوه أمامه مع بقية رواد المقهى لكتابة المحضر، حتى صار يصرخ فيهم:

- فكوا الأساور يا أولاد الخاطية! هي دي حكمدارية؟ يا كلاب يا مناجيس يا شحاتين من تحت السلاح..

ولما رأى الكونستابل ذلك، صاح في العساكر المحيطين به

في غضب:

- اضرب ابن البعيد الكلب دا يا عسكري أنت وهو!

لم يكد يقولها حتى انهال العساكر عليه بكعوب البنادق التي في أيديهم، لم يتحمَّل الضربات على أكتافه وظهره، فترنح قليلًا ثم سقط على ركبتيه، وهو لا يزال يصرخ مثل حيوان ثائر، والدموع متجمدات في عينيه، حتى تلقَّى ضربة على صدغه عاجله بها أحدهم، أسقطته أرضًا على وجهه دون حركة!

* * * *

فقد وعيه، وعندما أفاق وجد نفسه أمام ضابط النوباطشية الذي عرفه من أول نظرة، فأمرهم بفكِّ الحديد عن يديه، وأجلسوه على مقعد.

تأمله الضابط..

هذا هو الصاغ سليم حقي، الجميع يعلم قصة هذا الرجل، صحيح أن شيئًا من هيبته زال، وصحيح أنها المرة الأولى التي يراه فيها من غير طربوش، أو لباسه الميري، وصحيح أن شيئًا ما انكسر في عيني هذا الرجل.. لكنه عرفه.

كان سليم قد هدأ، نظره ظل مُسلطًا نحو الأرض، وكأنه تلميذ من تلاميذ الكتاتيب عاقبه شيخه.

الهواء كان أثقل من أن يحركه أحدهما بالكلام، لم يكن غيرهما بعد أن صرف الملازم الشاب الجميع، وأغلق الباب.

بعد لحظة تردُّد، فتح الملازم علبة سجائر ماركة «بلايرز» ومد له بسيجارة، فنظر سليم للفافة، ورفضها بهز رأسه.

استحرم أن يدخن سيجارة ثمنها قرش صاغ، يكفي لشراء «طَقة» طعام لعايدة.

لم يُشعل الضابط اللفافة، وأعادها إلى علبتها الصفيح، وظل يتأمله.

كان مثل الأسد الحبيس، يهزُّ قدميه على الأرض في غضب دفين، وصدره يعلو ويهبط مع تنفُّسه كالموج، تساءل أي غضب في داخله!

مال الشاب ناحيته قليلًا عساه يرى عينيه، وسأله بصوت منخفض حزين:

- ليه كده يا أفندم؟

قال سليم بلهجة مُنكسرة وحروف مرتعشة وهو يقاوم الدموع في عينيه دون أن ينظر للشاب:

- جايبِنّي التُمن متحاوط بكام لوح ميري؟!

قالها كمن يلومهم على فعلتهم، أو ربما كمن يُحدِّث

نفسه.

مطَّ الضابط شفتيه في أسف، وتراجع بظهره في مقعده، ثم تنهد بحرارة.

كان سليم حقي في هذه اللحظة المثال الحقيقي لرجل هزمته نفسه.

لم يتحدث الضابط، لم يجد ما يقوله، وضع طربوشه على رأسه، وقام من مكانه، ثم ربت على كتف أستاذه في البوليس، وقال بأسف:

- متعولش همّ، ليها زبال يقندلها يا سليم أفندي..

أطلق سراحه، ولم يكتب شيئًا في دفتر الأحوال، واعتبر أن ما حدث في ذلك اليوم لم يحدث من الأصل.

قبيل الفجر، كان سليم يعْرج طوال طريق عودته إلى منزله في حارة شيخون، بآثار ضربه.

الجو بارد، والطريق مظلمة خاوية إلا من بعض المصابيح الخافتة ببعض الشوارع، كان يكتم دموعه وبكاءه، وهو يسحب قدميه سحبًا فوق الأرض.

إن هؤلاء الذين لم يصلوا لأمانيهم يعيشون طوال حياتهم وهم يجرُّونها وراءهم، كمن رُبِطَت فيه جثة، وهو كان يجرُّ جثة أمانيه المُتعفنة وراءه في تلك الليلة.

استند على عمود ليستريح، كان هناك كلب نائم رفع له عينين ساهمتين بلا مبالاة وخفضهما يلعق مخالبه.

ما عاد هناك فارق بينه وبين مشردي الشوارع ودراويشها إلا ما تبقى له من ماضيه، والذي يعيش الآن على استنزافه، شعر في هذه الليلة بذلك الألم في قلبه، وكأنه ينسحق تحت وطأة ثقل ما، أو أن سكينًا يمزقه، فجعل يضرب صدره بقبضة يده عساه يتخلص من هذا الحِمل القابع فوق أنفاسه، ثم انفجر في البكاء بصوت مرتفع، خاف أن يسمعه أحد، فسدَّ فمه بيده، في جِلسته على ركبتيه فوق الأرض، والكلب ينظر له بذات النظرة البلهاء بلا مشاعر!

* * * *

جلست عايدة طوال الليل تنتظره على السلم مُتلفحةً بشال من الصوف، ترتعش من البرد، وفي يدها لمبة جاز، تسعل بين الحين والآخر، فتشعر بأن صدرها يتمزق، ثم تصمت، وتسند رأسها للدرابزين بعيون شاردة تحدق في عتمة بئر السلم.

كل شيء انتهى، انتهى منذ شهور، كان عفش منزلها يخرج يومًا بعد يوم محملًا على عربات الكارو ليباع؛ السجاجيد المُعتبرة، والمقاعد الفوتيل، والأرائك الموشَّاة بخيوط الذهب.

لقد بِيع كل شيء، والجيران يشاهدونه بفضول وكأنه

شوار عروس.

كانت ترسل -دون علم منه- خادمتها لتبيع ملابسها المُستعملة من ملايات لف وحبر ومناديل إسطنبولية ومنتوهات وبرانيط بأسعار مهاودة، في درب الجماميز والمدابغ وشارع المغربي، بعيدًا عن منزلها؛ حتى لا يعرف جيرانها ما حل بها من فاقة وحاجة!

نبوية كانت تنقل لها ما يقولونه عنها في الحارة:

- الحق على سي الأفندي بتاعها..

- مسكينة الست عايدة بنت الأكابر.

- إيه اللي مصبَّرها على الغُلب دا يا ربي؟

- اللي يربط في رقبته حبل، ألف من يسحبه..

خادمتها نبوية قالت لها:

- لازم ولا بد نرجع التفتيش لجناب البك، مبقالناش قُعاد هنا يا ست عايدة!

حالتها الصحية تسوء، يزورها الحكيم جران كل أسبوعين؛ ليطمئن عليها، لم تعد تستطيع النوم إلا جالسة، وإلا اختنقت أثناء نومها، فقدت نعمة النوم المريح للأبد.. يومًا بعد يوم تذبل وتتساقط أوراقها مثل أوراق الخريف، ذهبت

نَضَارة وجهها، وتحولت للشحوب الشديد، ثم لازمتها تلك البحة في صوتها، لم تعد قادرة على الحديث بالشكل المثالي، فبدأت تنسى مع مرور الأيام صوتها الأصلي..

ماذا تنتظر؟! لا تعلم.

تصمت في جلستها على بسطة السلم الباردة أمام الباب تنتظره أن يعود، وترفض نصائح نبوية لها بالدخول للاحتماء من البرد، ومحاولاتها لإقناعها بأن وجودها عند الباب لن يُشكِّل فارقًا.

عندما سمعت خطواته المتهالكة، مع أذان الفجر، قامت ملهوفة، ووضعت اللمبة على السلم.

رأت جروحه على الضوء الشحيح، وبقع الدم على قميصه، نزلت له حافية على بلاط السلم البارد واحتضنته، ضمَّت جسده لجسدها بقوة، وكأنه جزء انفصل عنها وتريد أن تستردَّه، ثم انفجرت مرة واحدة في البكاء، لم تكن تدري أدموع فرح كانت أم حزن، دموع قلق أم راحة، انفجرت الدموع من صدرها وليس من عينيها، انبسطت رئتاها مرة واحدة.

لفَّ ذراعيه حول وسطها، وضمَّها له، أمسك بكفه رأسها وجذبها له، فدفنت وجهها في لوح كتفه.

همس في أذنها بصوت منخفض:

- متخافيش..

لكنها ظلت خائفة..

* * * *

نامت في تلك الليلة بجواره وهي تتشبث بأظافرها في ثيابه، كأنها تخاف أن تفقده في غفلة من الزمن.

ليالٍ طويلة كانت تفكر في الموت وحيدة، تعرف أنه اقترب، ماتت أمها في السن ذاته، وبالمرض نفسه، تتذكر ليلة موتها.. كان جميع أهلها مجتمعين هناك في المنصورة، جلوس في الطابق الأسفل من السرايا، نسوة عجائز لم تعرفهن ولم ترهن من قبل، يتحدثن التركية التي لا تفهمها، ويلبسن الأسوَد، لم يكن يدخل عليها غير طبيبها وعدد من الممرضات الغريبات، حتى البك الكبير لم يكن معها، كان بالأسفل في السلاملك مع الرجال.

كانت هي صغيرة، تمسك عروستها، لم يسمحوا لها بالدخول، لكنها رأت كل شيء من فُرجة الباب، الضوء كان ضعيفًا، بلمبة «ونيسة»، رأت ظلال الموت عند رأس أمها، تنعكس على الحائط، ظلال عملاقة سوداء مخيفة، ورأت أمها تجاهد وتشهق لتحصل على نفحة هواء، وروحها تخرج منها، ثم التقت عيناهما في لحظة، ورأت في نظرات أمها الرعب والدموع، لم تكن نظرتها نظرة الحب التي اعتادتها، أو شوق، أو حنان، كانتا عينين خائفتين في مواجهة الموت، وكأنما نسيت أن هذه الطفلة ابنتها، أو لم تعد تهتم، تبوَّلت البنت على نفسها من الرعب، أغرقت فستانها،

وعندما رأتها الممرضة تسترق النظر دفعتها خارجًا بغلظة، وهي تتمتم ببعض الكلمات الغريبة، ثم أغلقت الباب.

ما زالت تخاف من صوت إغلاق الأبواب حتى الآن، وتخاف أن تموت وحيدة، في غرفة مغلقة يحيط بها الغرباء، مع ملك الموت، لا يوجد مصير أسوأ من أن يُترك الإنسان وحيدًا في مواجهة موته!

لقد اختارت أن يكون هو بجوارها، وقت أن تأتي هذه اللحظة، تعرف جيدًا أنه لن يتركها، سيواجه معها هذا الموت الكئيب، سوف يضمها لحضنه ويهدهدها كطفلة حتى يأخذها ذلك الوحش، فتنام نومها الطويل.

ظلت تتمسك بثيابه حتى غلبها النعاس.

* * * *

فكَّر في مرضها طوال الليل، وهو يراقب وجهها الشاحب الذي زالت منه النضرة فصار كوجوه الموتى، وهي نائمة بملامح متألمة مقطبة الجبين وقد زمَّت شفتيها اليابستين.

بلَّل أطراف أصابعه بماء من القلة ومسد به شفتيها.

تذكَّر صورتها القديمة أمام عينيه صباح كل يوم وهي جالسة فوق السرير، وأثر النوم ما زال على عينيها البديعتين، تُلمّع له الأزرار النحاسية لبذلته الميري، بقطعة قطن مغموسة في الخل، وهي تبتسم وتختلس نظرات

مشاغبة له، بينما هو يلبس حذاءه أو ينفخ طربوشه، ثم تقول له وهي تبتسم:

- بقيت ولا هارفي باشا(2).

كانت ابتسامتها أجمل ما في حياته، لم يعرف أنه كان يعيش من أجل تلك الابتسامة إلا بعد أن غابت، لقد هوت حياته فوق رأسه كقلعة قديمة.

قبل الفجر استيقظت وفتحت عينيها ببطء، قالت أول ما قالت وسط نعاسها وهي تُخفف من قبض أصابعها على قميصه:

- كنت بحلم..

لم يستطع أن يغالب ابتسامته الحنون:

- بإيه؟

- بيك..

تأملها وهي تستطرد مُبتسمة تقاوم النوم في عينيها:

- كنت راكب حصان أبيض، بسيفك وطربوشك، والعساكر حواليك، والناس جنبك جُل الملك.

اتسعت ابتسامته العابثة:

- يا سلام! دا ولا عرابي باشا!

ابتسمت في خجل وهي تقول:

- أحسن كمان.

نظر في عينيها مليًّا، وشعر بغُصَّة في قلبه.

غرباء هؤلاء البشر الذين كلما نظرنا لوجوههم شعرنا بالحب والحزن في آن واحد.

سألته بصوت مُختنق:

- هو أنت هتتجوز بعد ما أموت يا سليم؟

صدمه السؤال، رفع حاجبيه بدهشة، قالت كلمة الموت وكأنه مصير محتوم، كان متأكدًا منه هو الآخر، ولكنه كان ممن يظنون بجهل أنه طالما لم تُقَل الحقيقة فإنه يمكن إنكارها.

قال بصوت مرتعش:

- إنتي مش هتموتي يا عايدة..

قرر أن يستمر في الكذب على نفسه وهو يمسك يدها ليتقن تدليسه.

قبَّلها على رأسها، فنظرت له وعادت لنومها.

عندما تأكد أنها نامت خرج إلى الردهة، نفسه ضيِّق، ويكاد يلفظ روحه من حلقه. جسده بالكامل مكدود من أثر الضرب الذي تلقاه، ولم يكن بعدُ قد غسل وجهه أو نظَّف جراحه؛ خوفًا من أن يتركها.

لم يكن ينام منذ أيام، وإن فعل فإن الكوابيس تهاجمه مثل العفاريت وسط الليل، حتى يستيقظ متعرقًا، جاحظ العينين، وكأنه كان يقاتل في معركة شديدة.

نور الصباح الأبيض قد بدأ يتسلل للبيت عبر مخرمات المشربية..

بدا الأمر في هذه اللحظة كهاتف جاءه، فمد يده في جيبه، مُتذكرًا تلك الورقة التي كتبها له أحدهم عندما حدثه عن رهانات الخيل، ونسيها في جيبه منذ أسابيع..

أخرج الورقة من وسط أوراق أخرى كان يحشو بها جيبه، وعلى النور الواهن قرأ العنوان المكتوب:

«خمارة كوستيه، جنب المواحيل، بشارع الترامواي».

وأسفل العنوان اسم مُبهم ينطق بالصمت:

«مرعي المصري».

---

(1)كلمة تركية تعني قسم الشرطة كانت مستخدمة في ذلك الوقت حرفها العامة إلى «كراكون»، وكانوا يطلقون عليها الثمن، وكانت القاهرة مقسمة إلى ثمانية أقسام كل منها «ثُمن».

(2)حكمدار بوليس القاهرة.

(٢)

قطع مرعي المصري الطريق من قلعة الكبش إلى السيدة زينب بخطوات هادئة، وخيلاء مصطنعة، وهو يسحب وراءه حصانًا أحمر ضخمًا، شعر رقبته وذيله مُحنًّى بالحناء، ثقيل الحركة مطأطئ الرأس، منصاع له في استسلام.

الظهيرة، والشمس تصبُّ طوفانها الحارق..

عَبَر الميدان المزدحم بأصناف عدة من البشر؛ لمشاهدة سبق الخيل في يوم الجري، لافتًا الانتباه بشكله الغريب عنهم، حيث يرتدي قميصًا وسراويل يرفعها لأعلى سُرَّته بحمالات، وفوق رأسه كاب مُسطح كفِتْيَة توزيع الجرائد، وقد شمَّر كُمَّيْه، ووضع بين شفتيه سيجارة!

كانت عربات الحنطور في كل مكان واقفة أمام المسجد، وبعض الخيل مربوطة في تغشيات شبابيك سبيل نوبار باشا النحاسية، والعربجية ومكارية الحمير يجوسون بينها، بعض النسوة يصلن في الملاءات اللف المُرقَّعة، حافيات مُحملات على ظهور العربات الكارو؛ بعضهن زوجات العربجية والركيبة، وبعضهن من بنات الكرخانات(3) جئن للترويح عن أنفسهن أو لاقتناص زبائن لمنازل وش البركة أو درب طياب أو عطفة الجنينة(4)، بينما يمر بهم بين الحين والآخر جمل مُحمَّل بالبرسيم أو الدريس، يعبث بين أقدامه الطويلة الصبيان والبنات الصغار، ولا يعكر صفو الجمع المختلط سوى عربات

الترامواي التي تشقُّ الميدان لحظةً، ثم تذهب فيعودون للتمازج مرة أخرى.

عندما وصل مرعي رآه عربجي ضخم وصاح:

- أنت فين يا مرعي؟

تجاهله مرعي، واتجه لطاولة خشبية متهالكة يجلس عليها عرضحالجي يجيد القراءة والكتابة أمام سبيل السلطان مصطفى من جهة حارة منج، ويسجل أسماء الخيل والمراهنين، وقال:

- قيد عندك الكديش(5) دا يا شكيب.. اسمه جوني.. حصان الجناخنجي.

ثم التفت للعربجي وهو يفتح كفه التي بدت بين خطوطها آثار مسحوق الكوكايين الأبيض:

- كنت بسخن له الطاسة..

ووضع كفه مرة أخرى أسفل منخاري الحصان الذي اقترب منها وصار يتشممها، ويستنشق البقية الباقية من المسحوق، فصاح العربجي جزعًا:

- ما كفاية السُّطْل اللي عمال تشممهوله دي يا مرعي، الحصان هيطُب مننا.

مطَّ مرعي شفتيه وقال والسيجارة تتدلى من بينهما:

- إنت غرضك الحصان يستشاع وتبيعه ولا لأ؟ دي ركوبة وارد سُلطة(6)، صحتها معدومة العافية، عاوزه يضرب الرهَوانات اللي هناك دي إزاي من غير الشُّطل اللي مش عاجبك؟!

أشار برأسه في جملته الأخيرة لبعض الخيول القوية الواقفة في الجانب الآخر من الميدان وأمامها غواة الخيل، فقال الجناخنجي مترددًا:

- أنا بس خايف من الشواشية..

أشار مرعي برأسه إلى مجموعة من العساكر بزيهم الميري وطرابيشهم الحمراء واقفين يتحدثون فيما بينهم غير عابئين بما يجري، وهو يقول:

- ميكونش عندك فكر، الشواشية واكلين.. هما فالحين غير في تلقيح جتتهم على ولية سارحة بفجل ولا عيل بيبيع بصل!

ثم التفت إلى الجموع الواقفة وتأملها، وقال:

- العربجية والسماسرة والمعلمين قاعدين راقمين، والفرس اللي هيبقى البرنجي هيتباع، واحنا أحق بالنقدية من شوية القشلانين دول، المعلم حسن كسلة قاعد هناك

أهه عند جامع الست الباتعة، جاي يشتري، والراجل جيبه دفيان.. متخافش، محسوبك يقطع على العفاريت..

كان حصانًا عيناه ضعيفتان، ورقبته محنية، وأذناه متدليتان في بؤس، ولكن خطواته ثقيلة على الأرض، وحوافره تُحدث طرقعة قوية على الطريق المُسفلت.

تقدم منهما عربجي آخر خفيف الوزن يعرج يمسك خيزرانة.

- اركب يا عتريس!

رفع عتريس ذيل الجلباب ووضعه في فمه، ثم اعتلى بصعوبة ظهر الجواد المرتفع، وأدخل قدميه الحافيتين الضخمتين في ركاب الخيل النحاسي بعد أن أسنده الجناخنجي، واستطرد مرعي:

- بقلك إي يا عتريس يا أخويا، إنت هتسوق بالكديش لحد الإمام اللهم ارضَ عنه، وترجع من نفس السكة، مش عاوزك تضربه غير في الآخر، أحسن دا حصان إنجليزي خُلقُه ضيق، ميجيش إلا بالمهاودة والمسايسة، ناقص نحط له شاي الساعة خمسة.

- وجب.

وأشار للخيل الموجودة بالسيجارة:

- الحصان الأزرق القريشي دا اسمه أبو وش بتاع عزوز

الفحل، والتاني أبو برقع على جبينه دا اسمه بحر، بتاع حكيم الفلكي.. لو فاتوا من قدامك سيبهم، متطلبش الرهوان إلا في الختمة.. بس ميغيبوش عن عينك.

انطلقت الخيل مرة واحدة، وسط الهتاف، وركضت وسط المدينة غير عابئة بالمارة، أو عربات الترامواي والأتوموبيلات، وانطلق وراءها الناس، والعيال الصغار يصفقون ويصيحون، فيما وقف مرعي عند السبيل، وتناول كوز صفيح ملأه بالماء وشرب، ثم جلس ينتظر وصول الخيل على المصطبة الحجرية، ودون أن يدري الجناخنجي، وضع رهانًا على حصان الفلكي!

بعد قليل ظهرت الخيل قادمة من أول الشارع، تركض ولا ترى شيئًا في وجهها، وفي طليعتها كان الحصان جون، وقد استعاد نشاطه بشكل غريب، وعندما رآه صاحبه الجناخنجي صاح:

- يا بركة أم العواجز!

فقال مرعي وهو يضحك:

- علشان تشوف القريحة بتاعة محسوبك، حضّر القومسيون..

ولكنه لم يكد يتم عبارته حتى مال الحصان بشكل غريب ناحية شريط الترامواي، ولم يكد يفعل حتى ظهرت سيارة مسرعة عبرت الشريط، ثم ضربت الحصان الذي انحرف عن طريقه، وطوته تحت عجلاتها دون رحمة، وسقط من فوقه

عتريس يتدحرج فوق الأسفلت، ثم انطلقت السيارة بدون سيطرة مُثيرة التراب خلفها واصطدمت بالعمود الحامل لأسلاك الترام عند شارع الخليج، وتوقفت!

كان المشهد مذهلًا للجميع، تجمدوا على إثره، وقد رأوا الحصان يُحتضر على الأرض، سيقانه مكسرة يصفي دمه من أثر الزجاج المهشم الذي جرح كل أجزاء جسده، وعيناه جاحظتان تنظران برعب للعالم!

ساد هرج ومرج شديدان، وانطلق عساكر البوليس من كل مكان، وعندما أفاق الجناخنجي من ذهوله بينما عمال جمعية الإسعاف يحملون عتريس فوق النقالة، بحث عن مرعي المصري وسط الواقفين، ولكنه لم يجده وكأنه ذاب كالملح في الماء!

---

(3)الكرخانة هي بيت البغاء أو الماخور.

(4)من أحياء الدعارة في قاهرة العشرينيات.

(5)الكديش هو حصان غير أصيل.

(6)عائدة من الحرب.

(٣)

عثر سليم حقي بصعوبة على خمارة كوستيه، وجدها ملقاة في شارع مظلم، لا يعلن عن وجودها إلا كلوب جاز ضعيف، ونيران فحم يشوي عليه رجل في المدخل العصافير كمَزّة لرواد الخمارة فوق صفيحة متهالكة، تعطي بعض الدفء وسط برودة الشتاء.

الدخان والأبخرة العطنة يفوحان من داخل الخمارة، والأرضية البلاط في بعض أجزائها مهترئة يظهر الرمل من أسفلها، والطاولات متناثرة في غير تراصٍّ، ورائحة الحشيش في كل مكان.

استوقف أحدهم وسأله عن «مرعي المصري»، فأشار لطاولة في الركن القصيّ. شقَّ طريقه وسط المخمورين من خواجات وأبناء البلد من الحثالة والصعاليك حتى وصل له.

كان يشرب، وأمامه كومة من أعقاب السجائر.

- مرعي المصري؟

سأل بصوت خفيض، فرفع له عينيه، وتأمله من رأسه لأخمص قدميه، ولا بد أنه رأى الكدمات الظاهرة على وجهه، فقال أول ما قال بابتسامة ساخرة:

- سلامات..

عرف وقتها أنه هو، فسحب مقعدًا، وجلس أمام نظرات الرجل المتسائلة، ولكنه لم يترك له الوقت ليتعجب وقال:

- أنا جاي علشان الخيل..

قال مرعي بالسخرية ذاتها، وهو يطفئ عقب سيجارته:

- ما لها؟ مزعلاك في حاجة كفانا الله الشر؟!

- أنا عاوز حصان أجرِّيه في السبق.

رفع مرعي حاجبيه، وصمت لحظة، ثم صفق بكفيه بصوت مرتفع، والسيجارة الجديدة تتدلى من شفتيه، وصاح:

- نغازي! قزازة كونياك بريمو للأفندي هنا..

- لا مبشربش..

- اسمع مني دا كونياك مُعتبر من بتاع الخواجة، أحسن من البيرة ماركة التاج اللي هروا بيها أكبادنا من أيام الحرب.

- خلينا في المسألة بتاعتنا.

نفث مرعي دخان السيجارة بهدوء:

- معلوم، بس بلا قافية أنت صنعتك إيه؟

قطب سليم جبينه وقال بنظرة دون روح:

- أنا كنت صاغ في السواري(7) بس على المعاش..

رفع مرعي حاجبيه في تعجُّب والسيجارة لا تزال في فمه:

- إخيه على الدنيا! أما أنا عديم المفهومية بشكل.. كان حقي أعبّر الجدعان.

والتفت إلى البار وصاح بأعلى صوته:

- يا نغازي! تعميرة «حماس» مُكن هنا على حسابي لسعادة البك.

شعر سليم بالاستهانة والسخرية من كلامه، حيث يدعوه لشرب الحشيش، وهو ضابط كان معنيًّا منذ شهور قليلة بأمور الضبط والربط، فكان كأنه ينتقم منه، أو يشمت أو يستهين، خاصة عندما استطرد:

- عدم اللامؤاخذة أصل البني آدم منا في الميري غير الملكي، عامل زي الجنيه الإنجليزي والكورون النمساوي كده، لو أنت واحد صراف هتستعبر أيهم؟

وضحك ضحكة باردة، فحاول سليم أن يبتلع الغصة في

حلقه، فيما واصل مرعي حديثه وهو ينفض رماد السيجارة في المنفضة:

- نهايته، سبق الخيل أنواع يا أفندي، ومستويات، زي البريمو والسكاندو في السكة الحديد كده.. فيه السباقات البلدي، ودي الخيل اللي بتسابق فيها رهاوين إنجليزي كسر، من خرج الشُلْطة(8)، خيل راجعة من الحرب، معدومة العافية، العيال مقاطيع السبح اللي غاوية، بيسابقوا بيها من السيدة لكوبري عباس للجزيرة، وبيعملوا بيها حوادث في البلد، وكل اللي معاه رهوان بيجريه في الشوارع والناس تتلم عليهم، وكل يوم خناقة والكراكون مليان بيهم يوماتي زي اللي قاطعين أبونيه، لكن لو فكرك تجرّي خيل في السبق اللي في مصر الجديدة ولا سبورتنج مش بالساهل..

- اشمعنا؟

- الخيل هناك خيل أصايل، الفرس فيهم بسبعمية أهيف وأكتر، وعلشان تجيبها بتيجي من الحجاز ونجد.. خلاف عليقها، والنقل بالسكة الحديد، وأجرة السايس، والركّيب اللي هيسابق بيها.

بدا الإحباط على وجه سليم، فواصل مرعي:

- ولو قولنا هنأجرها، فيه ٥ جنيهات وأكتر مصاريف تمويل السبق، ورسم قيد، واعذرني يعني أنت شكلك كده باطك والنجمة..

ثم أردف:

- البرتيتة دي مش بتاعتنا، دي بتاعة الخواجات والباشوات، لكن الناس اللي إيدهم والأرض زي حالتنا ملهمش محل.

شعر سليم بالضيق واليأس وكاد يقوم، ولكن مرعي ذاك تابع، وهو يضيّق عينيه بخبث، ويشير له بالسيجارة كالحكيم:

- الأسلم ليك تلعب عليها متجريهاش.. الدنيا أزمة ومفيش حاجة مضمونة.

- وأنا أضمن منين إني أكسب؟

تراجع مرعي في مقعده، ونفث دخان سيجاره الرخيص في الهواء وقال:

- راهن على الخسران..

بدا على وجه سليم عدم الفهم، فتابع مرعي:

- الرهان في السبق مش غشومية، مش مسألة شانص وخلاص، دا محتاج مفهومية وحداقة..

- ولما أراهن على الخسران أكسب أي؟ صلاة النبي؟

- اسمع يا أفندي ميبقاش دمك حامي كده! دا أنت عندك صلابة رأي وحشة.

صمت سليم، محاولًا الفهم، فتابع مرعي:

- المشهور يوم ما يفوز مكسبه يتقسم على مِية، بس المنحوس يوم ما يفوز يفوز بمكسبه نفر ولا اتنين، والألف لو تتقسم على المِية تروح لكن لو تتقسم على اتنين .. رضا.

- قول اللي عندك بلاش تحلية بضاعة..

- طيب، أنا رايح أقول لك الشافي.. كلمة أبرك من عشرة..

تعمد أن يثير عصبية صيده وهو يشعل ببطء سيجارة جديدة.

- بقى أنت راجل مجدع وتعشق النبي، وأنا هاجي معاك دوغري.. أنا أعرف حُرمة خواجاية.. عظيمة من ذوي الرتب، عاوزة تشارك في السبق، والحرمة دي يا ابن سيدي قصدت محسوبك إنه يجيب لها فرس أصيلة، والفرس أنا وأنت رايحين نجيبها، ورايحين نلعب عليها.. أنا لولا الظروف كنت أكلت اللقمة السايغة دي لوحدي، لكن أنا اسمي زي الطبل في كل نوادي السبق في البلد، من المحروسة لإسكندرية للخرطوم، ومحظور على قومسيونجية الخيل اللي زي حالاتي إنهم يقطعوا تذكرة رهان واحدة، بس أنت محدش عارفك.. هي هتدفع، واحنا هناكل من وراها الشهد! إنت زاعق لك نبي ومَلك من سابع سما لأنك جيت لمرعي

المصري..

- وإيش يضمن لي إن الفرس رايحة تفوز؟

قال في ثقة وهو ينفث التبغ:

- صلِّ على أبو فاطمة.. أنا أضمن لك برقبتي تطلع البرنجي، ولو كسبت هاخد منك في المِية ثلاثين المكسب.

- ولو خسرت؟

- يبقى كل واحد يروح لحال سبيله، ويا دار ما دخلك شر، وأنت شكلك عدم اللامؤاخذة خسرت ياما..

لم تضايقه الكلمة هذه المرة، ولكنه تراجع في مقعده، كانت الحركة في الخمارة لا تزال على حالها، تأمل مرعي بهدوء، كان أسمر الوجه، له شارب مشذب، به بعض الوسامة، بجسد قوي، ولكنه نحيل، يرتدي مثل الخواجات ويتحدث مثل أبناء البلد، كومة السجائر أمامه يبلغ عددها أكثر من عشرين عقب سيجارة، حاول أن يتأمل الصدق في كلامه من الكذب، ولكنه لم يستطع، كان ينظر له بملامح لا تحمل أي تعابير.

- الكلام مش ضحك على الدقون.. اسأل على مرعي المصري، هيقولوا لك إنه راجل كلامه سجوريا، ولو غربلت الدنيا مش هتلاقي منه..

ورفع كفه:

- تبع راحتك..

فكر سليم لوهلة:

- واحنا رايحين نجيب الفرس منين؟

- من جزيرة سعود.

- ودي بيروحولها ازاي؟ بالباخرة ولا على بساط الريح..

قالها بلكنة ساخرة، فأجابه مرعي وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة:

- لا بالسكة الحديد.. وأنت اللي رايح تدفع أجرتها، وحق عليق الفرس..

ضحك سليم ضحكة مرتفعة وهو يتراجع برأسه للوراء، ثم قال:

- نقبك طلع على شونة.. أنا كل اللي في جيبي تلاتة أبيض..

مطَّ مرعي شفتيه مُتبرمًا:

- جاي تراهن على خيل وأنت على الحديدة؟! دا إيه البخت الأسود دا؟

صمت، ثم تابع:

- طيب واحنا رايحين نعمل إيه في الدور دا؟

لمعت الفكرة في رأس سليم بغتة، فقال:

- أنت ركبت أتوموبيل قبل كده يا مرعي؟

بهت مرعي قائلًا:

- إش!

أخذه خارج الخمارة، فرأى مرعي الأتوموبيل رابضًا.

- الله!

كان أتوموبيل ماركة فورد، أسود اللون، موديل سنة ١٩٠٨، بسقف من الجلد مثل الحناطير، ويُدار بمنفلّة!

اشتراه سليم عام ١٩١٦ من خواجة إنجليزي برخص التراب، مستفيدًا من أزمة الوقود خلال سنوات الحرب، وعندما رُفِتَ من الخدمة حاول بيعه، ولكنه لم يُبَعْ؛ لم يشترِهِ أحد..

- مين رايح يشتري أتوموبيل في الأيام الغبرا دي يا أفندي، دا رطل اللحم بعشر قروش.

قرّر أيامها أن يضع إعلانًا في الجرائد، رهن ذهب زوجته، ووضع الإعلان.. أتوموبيل فورد فاخر لا يُحدث ضجيجًا.. بقوة ٢٠ حصانًا وسرعة مذهلة تصل إلى ٦٠ كيلومترًا في الساعة، فقط بـ ٢٥٠ جنيه.. لم يشترِه أحد، بـ ٢٠٠ جنيه.. بـ ١٠٠. بـ ٧٥..

لم يُبَعْ!

خسر الرهن، وضاع أمله، فهداه فكره إلى أن يفككه ويبيعه خردة ضمن خردوات الحرب في وكالة البلح، ذهب لهناك، عرضوا عليه في وكالة شقير ١٠ جنيهات، فرفض بيعه!

مطَّ سليم شفتيه وهو يراقب مرعي الذي دار حول الأتوموبيل يتفحصه، ثم خبط على كبوته قائلًا:

- دي حاجة فابريقة خالص!

- تشتري؟

ضحك، وقال:

- منين يا حسرة. أنا على الحديدة يا حظ!

* * * *

عاد للمنزل عند منتصف الليل، وكانت أضواء القناديل الشحيحة تضيء غرفة عايدة، تحرك بهدوء للداخل، ووقف يتأملها وهي نائمة، في وضع الجلوس.

كانت مُتعرقة بسبب مرضها رغم برودة الليل، شعرها الكستنائي ملتصق بجبهتها، وجسدها ملفوف في ثوب أبيض شفاف، بيدها كتاب مفتوح، وضوء لمبة الجاز الموضوعة على الكومود بجوارها ينعكس على بشرتها ليعطيها تلك المسحة الذهبية الجميلة، ويعكس ظلها على الجدار المقابل..

ما زالت تخاف من النوم في الظلام وحدها..

جلس على السرير ومدّ كفَّه، فلمس قدمها الصغيرة الخارجة من تحت الملاءة برفق، ثم مال ولثم قبلة فوقها وغطاها. ظل جالسًا في مكانه. ينظر لها. ثم قرر أن يقوم، أخذ الكتاب من بين يديها، فاستيقظت.

نظرت له كأنها تعجبت من وجوده، ثم قالت وكأنما كان الأمر يؤرقها طوال اليوم:

- كان عندي أمنية إني أخلف منك.. بس مكملتش.

تأمل وجهها وهو يشعر بقلبه يغرق، فسألته بوهن:

- تفتكر ليه ربنا خلقنا وخلق معانا أمنيات مش هنطولها؟

- هنطولها يا عايدة.

ابتسمت، وصمتت.

لا يزال يتعلق بالأمل، إنه لا يفهم، هو بعيد جدًّا، هي أقرب منه للحقيقة، الموت يتنفس في كل ليلة فوق عنقها، تشعر بأنفاسه فوق جلدها تزحف كحرباء، أما هو فمازال مُنعمًا بتلك المنحة الدنيوية؛ منحة الغد، بكل ما فيها من وهم وأمل، إنه بعيد تمامًا عن تلك البقعة التي تنتظر فيها باستسلام ما هو مكتوب.

مدَّ كفه ليلمس خدها، شعر به دافئًا من أثر النوم، أغمضت عينيها مستسلمةً للمسته، فتأمل شفتيها، وراودته رغبة شديدة في أن يُقبِّلها، فكر أنه يفتقد مذاق شفتيها، تذكر طعمهما، ودّ لو أنه ذاب في حضنها، مثلما كانا يذوبان، فيصبحان واحدًا. تذكَّر استسلامها له عندما يُقبِّلها ونظرة الخجل في عينيها التي تتبع هذه القُبلة رغم سنوات الزواج. أصبح ذلك من الماضي البعيد الآن!

- أنا رايح أسافر بكرة.

هكذا قال لها بصوت خافت، مخافة أن يُقلقها، ففتحت عينيها ببطء، كأنما تستيقظ من خدرها، وقالت بذات النبرة الهادئة المستسلمة:

- ليه يا حبيبي؟

- مش رايح أغيب.

أمسكت كفَّه بكلتا يديها، ووضعته على قلبها، فشعر بنبضاته، وقالت له وهي تنظر في عينيه:

- متسيبنيش.

أومأ برأسه أن «نعم»، وفي قلبه استقر حزن عميق مثل مرساة سفينة أصابها العطب.

* * * *

---

(7)سلاح الفرسان

(8)السلطة العسكرية.

(٤)

على الطريق الصحراوي المؤدي إلى خارج القاهرة، انطلق الأتوموبيل ينهب الأرض غير الممهدة، ووراءه سحابة ضخمة من الدخان والجاز المُحترق، يقوده سليم حقي وبجواره مرعي بجسدين يرتجّان مع اهتزازات السيارة.

- وأنا اللي فكّرته خردة، طلع ركوبة ملوكي..

قالها مرعي بصوت مرتفع، ليغالب صوت المحرك الذي يحاكي صوت الوابور، ويكسر الصمت الذي خيم عليهما منذ خروجهما من القاهرة، ولكن سليم لم يرد عليه، واكتفى بابتسامة طفيفة على طرف شفتيه.

خرجا منذ الصباح، واستمرا بالسير وسط الأراضي الزراعية ساعة، ثم تحولت الطريق إلى صحراء لم تمسسها يد العمران، فنصحه مرعي أولًا بالسير بمحاذاة شريط السكة الحديد، حتى إذا مرت ساعة أخرى أمره بالابتعاد عنه، وتركه إلى طريق يعرفه.

كان صامتًا يفكر فيما يفعله، وهو أمام عجلة القيادة.

تغيرت أشياء كثيرة، لم يعد هو ذاته هذا الشخص القديم، أصبح بقايا رجل، بقايا تخوض رحلة هزلية في الصحراء لأجل هدف غير مضمون، إلى أي مدى من العبث يمكن أن

تقودنا الهشاشة النفسية؟ إن المنحة الوحيدة التي يمكن أن يمنحها العقل لكل من فقدوا الأمل هي المقدرة على خداع أنفسهم بأمل جديد. وعقله لا يزال يمنحه تلك المنحة. يعطيه السراب الذي يجب أن يركض وراءه. تلك الخديعة التي سيظل يتعشم فيها وإلا جُنَّ أو مات.

استغرق في أفكاره حتى نسي أين هو، ومَن بجواره، ثم انتبه والتفت لمرعي، مطَّ شفتيه، قبل أن يسأله عن ضرورة السفر كل تلك المسافة لشراء حصان من قبائل الطحاوية خاصة. تعجب أنه لم يناقشه من قبل في الأمر من الأصل!

قال له مرعي إنهم شيوخ الخيل وأسيادها.

- طول عمرنا نجيب الخيل العربي من الشام، قبل الحرب كانت الدنيا نعناع أخضر، بس من بعدها والسلطان في أستانة مانع تصدير الخيل العربي من هناك لمصر(9)، واللي باقي من الخيل العربي في البلد أعمارها انقضت وبتموت، قام قومسيون الخيل جاب الخيل الإنجليزي يشبيها(10) على خيل عربي علشان يزود العدد، بس جابوا خيل إنجليزي هفتانة وصغيرة، علشان بلا قافية متشوهش العِرق العربي، بس الناتج إيه؟ عرق خسران صحته معدومة العافية، ومفيهوش قيافة الخيل العربي، خيل الجمعية الملكية من بحره، مفيهاش من الأصايل العتيق، ورثت من اللي خلفوها العافية والشراسة، وبقت تقتل في عساكر البوليس، راحوا جايبين لها حكيم من الشفاخانة يخصيها، خصى ١٠٠ حصان منهم، طيب وبعدين؟ مفيش حصان واحد من اللي بالك فيه..

صمت ثم استطرد:

- الحرب خلصت واللي كان كان، الناس دلوقتي عاوزين الخيل الجرّاية علشان السبق.. هنجيب منين؟

- ومفيش غير الطحاوية؟

- الخيل الأفرنجي غرَّق السوق أيام الحرب، والعسكر الإنجليز والأستراليان باعوا خيلهم هنا وهناك للبدو، واختلط الحابل بالنابل، العربي بالإفرنجي، كَبَر بلبن.. سكلانس، أنا بنفسي شوفت، وأنت سيد العارفين، حتى السلطان عبد المجيد طلق على أصايله أحصنة ألماني وهنجاري، الطحاوية هم الوحيدين اللي مدّخلوش على خيلهم عرق غريب، أنظف تجار خيل.. حتى الخواجات بييجوا من آخر الدنيا يشتروا منهم.

رفع سليم حاجبيه متعجبًا، وقال:

- الخواجات! والخواجات إيه علاقتهم بعرب من مديرية الشرقية؟

ضحك مرعي بسخرية ثم شرح له؛ يعيش الطحاوية على أطراف البلد، ولكن علاقاتهم تمتد إلى داخل القاهرة، وإلى المندوب السامي ذاته، والعلاقة بينهما ممتدة وقديمة والمنفعة متبادلة، فالإنجليز هم من يعيّنون شيوخ الطحاوية، وينعمون عليهم بفرمانات بكوية يستصدرونها

من السلطان، كما أنهم يستخرجون لهم تراخيص للسلاح، وتراخيص للصيد، وفي الوقت نفسه يبيع الطحاوية لهم الخيول العربية الأصيلة، ويأخذونهم في سرحات لصيد الغزلان بالصقور، ووقت أن يحتاجهم الإنجليز يكونون مثل الشوكة في حلق السرايا، كما أنهم يضعون أموالهم في بنوك بريطانيا، ويقفون في ظهورهم في انتخابات الجمعية التشريعية.

هز سليم رأسه متفهمًا وصمت، فأردف مرعي:

- الدنيا صغيرة والمليان يكب على الفاضي.

لم يردّ، غرق في أفكاره من جديد، وتأمل مرعي الصحراء التي تطويها إطارات الأتوموبيل.

لم يكن مرعي يكذب عليه عندما وعده بفوز الفرس التي سيشتريانها، لم يكن حتى يتوقع، كان حقًّا يضمن فوزها، ما لا يعرفه سليم حقي أنه يعمل لدى إدارة مجلس نادي هليوبوليس لسباق الخيل، الجهة القائمة على السباق من الأصل، وهم يُزيفون السباقات، يربح من يريدون فقط، منذ أنشئ ذلك النادي، الجميع تُشترى ذمته هناك؛ الحُكام، مُطلقو إشارات البدء، كُتاب المضمار، كُتاب الموازين، والجوكية(11).. وهو يستطيع إقناعهم بفوز تلك الفرس التي سيشتريانها. فهو المسؤول عن ذلك؛ الرجل الذي يعرف الجميع، سياس الخيل في الإسطبل والكلافين، الجوكية، وأونرات الخيول من البكوات والباشوات الذي يعيشون في أرقى أحياء القاهرة، إلى عمد القرى الصغيرة

الذين يأتون خصوصي لهليوبوليس في موسم الشتاء من أجل السباق.. يعرف الخيول الأصيلة وخيول الجمعية الملكية التي يستأجرونها.. يعرف الجورنالجية الذين يكتبون عن الخيل وفرص الرهانات.. صرافي العملة، والمرابين الذين يقرضون الناس بالفايظ.. وهو من يقترح من الأساس على مجلس إدارة النادي «الدارك هورس(12)» الذي سيفوز باعتباره يعرف خيول الإسطبل فرسًا فرسًا.

هو شيطانهم دائمًا، وذلك الترس الذي يدير كل الماكينة، وفي الوقت نفسه لا يأكل سوى ما يتبقى له من عِظام، أو هكذا كانوا يظنون، تمامًا كالضبع الذي ينتظر الأسود حتى تفرغ من الفريسة، فيتقدم على استحياء كي يظفر بتلك البقية الباقية منها.

لا يسمحون له بالرهان بأكثر من جنيهين، ليبقى المكسب كله لهم، لكنه هذه المرة سيُقنعهم بفوز تلك الفرس، وفي الوقت نفسه سيطعنهم من الخلف بسكين اسمها سليم حقي، وبعد أن يفوز سليم حقي بالسباق، سيأخذ منه الثلاثين في المائة.

* * * *

---

(9)عقابًا لمشاركة مصر في الحرب ضده مع إنجلترا.

(10)يزوجونها ليخلطوا أنسابها

(11) JOCKY الفارس في سباقات الخيل

(12)دارك هورس أو Dark Horse أحد مصطلحات سباق الخيل، والتي تعني الفرس غير المتوقع فوزها، ولكنها تحقق نجاحًا على أرض الواقع، مما يجعل المراهنين عليها يفوزون بأكبر مكسب.

جزيرة الخيول

(١)

دخلوا جزيرة سعود بعد ساعات من السفر في الصحراء، كانت مجرد بلدة خضراء وسط رمال صفراء ممتدة، لم يكن فيها أي شكل من أشكال الحضارة، مبانيها من الطين، قد يغير ملامحها يوم شاتٍ، ويفتح كل بيت تقريبًا على بوابة واسعة تقود لحوش كبير تلعب فيها المِهَار مع الأطفال والجحوش الصغيرة.

فهم الآن لماذا تسمى جزيرة، حيث إنها ترتفع عن سطح الأرض قليلًا، فكأنها جزيرة خضراء وسط محيط من الرمال!

عرف من مرعي أن أهل الجزيرة من قبائل متفرقة مثل المعازة والسواركة

والترابيين والعبابدة، ولكن يسودهم عرب الطحاوية، يكرهون الفلاحين، ولا يتعاملون معهم إلا في سوق الجزيرة يوم الأربعاء من كل أسبوع بنزلة عليوة.

قاد الأتوموبيل حتى بيت العمدة، وعندما توقف رأى عددًا من النسوة البدويات يخرجن ليختلسن النظر، ثم ظهر الأطفال، وغمغمة تسود بين الجميع:

- الأتوموبيل! الأتوموبيل بو عجلات!

كان دخول أتوموبيل لتلك البلدة حدثًا كبيرًا، فلم يكن أغلبهم قد رآه من قبل. ويوم دخل اعتبره الكثير منهم عفريتًا يشكل خطرًا عليهم!

استقبلهم العمدة عند دواره، وتحلَّق الأطفال حولهم من بعيد وعلى استحياء يراقبون بفضول الصغار ما يجري، ومن بينهم كان فوزان الطحاوي!

كان في الرابعة عشرة من عمره، دسَّ نفسه وسط المراقبين وهو يتساءل عن كُنْه ذلك الأتوموبيل، وانتظر حتى اختفى الأفنديان بداخل سرايا العمدة، ثم اقترب معهم، لم يعرف مَن ابن حرام منهم عرف أن هذا اسمه «الأتوموبيل»، ولا كيف عرف أن هذا شكله، اقترب حتى رآه، وأخذ يتأمله، حديديًا، أسود، مهيبًا، مرعبًا، براقًا، متوهجًا، ساخنًا مثل كانون، ورأى نفسه منعكسًا في حديده الساطع مثل المرآة، بوجهه المُغبر، وشعره المشعث، وجلبابه القصير الممزق، وقدميه الحافيتين المفلطحتين، والحبل الخشن الذي يتزنَّر به حول وسطه!

كانت لحظة اكتشاف كل شيء بالنسبة لفوزان الطحاوي، عيناه كانتا متسعتين في تلك اللحظة التي أدرك فيها أن في العالم ما هو أكبر من حدود جزيرة سعود.

- بَعِّد يا ابن الكلب! بَعِّد يا وِلد!

أيقظه من سكرة أفكاره «خرزانة» عبد العمدة «بخيت» وهو

يضرب العيال المتحلقين حول الأتوموبيل، جرى مع من جروا، توجه ركضًا نحو البيت، فوجد أمه في الحوش تخبز مع نساء من أهلها وبعض الخدم، يخبزن ليأكل الرجال في عرس عبد الرزاق ابن العمدة، ذبحوا الذبائح هذا النهار، وسيطبخونها في قدور كبيرة، تكفي الجزيرة والعِزَب التي تُجاورها!

قال لهم بصوت مرتفع:

- شفتوا الأتوموبيل!

لم يهتموا بالأتوموبيل، اهتموا أكثر بالأفندي أبو طربوش أحمر مثل الدم! عن مشيته، وسراويله، والصديري الذي يلبسه، كن معجبات به يتغامزن ويتلامزن من تحت لتحت ثم يضحكن في خجل ويكتمن أفواههن بأيديهم الملطخة بالعجين.

قال لهن:

- والله أتوموبيل مزيون.

لم يلتفتن له، حتى أمه.

- شفتوا لونه؟! لونه أسود.. أسود من الخالة فضية!

التفتت له فضية العجوز -عبدة العمدة- ثم رمت في وجهه فردة نعلها، وهي تصيح بصوت مرتجف:

- امش يا ابن الكلب!

جرى فلم تُصبه فردة النعل، قامت له أمه بالعجين وصاحت من بعيد:

- روح يا شين(13) يا ابن الشينة.. عمك لو شافك بعيد عن الخيل بيذبحك!

مطَّ شفتيه بضجر وسار بين الحارات إلى حيث مربط عمه المليء بالخيول، العشرات، من كل لون وجنس، الأحمر كالنار والأدهم كالأبنوس، والأبيض والأشقر، والماوردي والكستنائي والأزرق.

قضى النهار في تنظيفها، وإزالة ما علق بحوافرها، ثم أخذ يفرز عليقها من الحصى وسقاها، حتى حل الليل، فسمع صوت الطبل والزمر من جهة بيت العمدة!

أخذ طريقه إلى هناك، فوجد الجزيرة قد ازدانت بثوب الاحتفال، وعلقت الزينات، أمام السرايا الكبيرة، سيستمر العرس خمسة أيام، في كل ليلة سيدقون كف عرب، وتأتي الحجالة!

عندما اقترب تسللت إلى أنفه روائح اللحم والمرق، ورأى عبيد العمدة يفرغون الأذانات النحاسية الكبيرة في صوانٍ أمام الرجال الجلوس مقابل السرايا، يأكلون على الأرض. حشر نفسه وسط الجالسين أمام إحدى الصواني، وغرق في اللحم والثريد. حتى إذا ما انتهت صينية دسَّ نفسه وسط

جماعة آخرين وشاركهم الطعام!

كانت الزغاريد تدوِّي من مكان ما داخل بيت العمدة، تأتي من خلف النوافذ المغلقة، مرتفعة مجلجلة، وسط الليل، بينما الأعيرة النارية تنطلق من الخارج.

عندما انتفخ وامتلأ بطنه ورُفِعَت الصواني، سمع صوت همس بين الرجال الجالسين كالنار في الهشيم:

- الحجالة وصلت! الحجالة وصلت!

كان همسهم محمومًا مرفقًا بابتسامة ذات مغزى، فدار برأسه في فضول يبحث عنها، حتى رآها تخطر داخل حلقة الرجال أمام البيت في غنج.

كانت امرأة ملثمة، لا يظهر منها شيء سوى كفيها وقدميها الحافيتين السوداوين المغبرتين، ملابسها متواضعة، انحناءة ظهرها الخفيفة تقول إنها تجاوزت الخمسين أو الستين، وتمسك في يدها عصا خيزران، ولا شيء لافتًا فيها إلا حجم عجيزتها الضخمة!

قام من مكانه ليدنو منها، ويراها عن قرب، ولكنه بدلًا من أن يجلس على الأرض ولشدة انجذابه لها جلس على رِجْل أحدهم، فدفعه الرجل أرضًا، ثم صفعه على قفاه، فانطرح على وجهه، ثم قام وجلس أمامه مبهوتًا بها لم يلتفت لضاربه.

كانت الحجالة تهزُّ وسطها بغنج على صوت غناء، وترقص بقدميها مُحرِّكة عجيزتها بشكل باهت، ولكنه ألهب خيال الجالسين، وخيال الولد الذي صاح وكفّاه تلتهبان بالتصفيق:

- يلّا يا وِلد!

لكنه في تلك اللحظة رأى سليم جالسًا على مقعد، لم يجلس مثلهم على الأرض، أتى الخدم له بمقعد فجلس، فكان بذلك أعلى من جميع الرجال الجلوس كالأغنام متراصين يصفقون للمرأة.

لم يكن ينظر لها من الأساس، كان ينظر نحو الأرض بنظرة حزينة مهمومة، وكأنه ليس معهم، أو كأنه جسد فقط بلا روح.

كان جميلًا، شاربه الكستنائي مشذب بعناية، فوق فم نحيل، وذقن مضلعة، جسده طويل صحيح، ورقبته مديدة تتوسطها تفاحة آدم بارزة، لم يكن يرتدي الطربوش الذي كانت النسوة يتحدثن عنه في الظهيرة، كان رأسه عاريًا، وشعره جميلًا مُصففًا، يلبس قميصًا مُشمر الأكمام، وصديري، وجزمة أجلاسيه لامعة، رغم التراب، ويضع ساقًا فوق الأخرى.

لم يعرف لِمَ تجاهل بدوره الحجالة في تلك اللحظة، وأخذ يراقب الأفندي الغريب في جلسته الكاسفة الكئيبة؟ كان لحزنه هيبة ما، لون أسود فاخر يشبه لون الأتوموبيل الذي جاء به في الصباح.

لم يقطع أفكاره غير صياح بلهجة أهل مصر جاء من الجهة الأخرى:

- حلاوتك يا نافلة يا مملكة!

التفت لمصدر الصوت، فرأى مرعي المصري، يتقدم نحو الحجالة التي كان يعرفها تمام المعرفة بحكم تردُّدِه على القرية.

نزل لها ساحتها وهي لا تزال تهزُّ عجيزتها برفق، حتى إذا ما اقترب منها وجَّهت لصدره الخيزرانة بشقاوة لا تناسب سنها، فحاول أن يمسكها، ولكنها أبعدتها مسرعة، ومالت لتخطف كابه المسطح من فوق رأسه، تراجع وهو يضحك بانتصار، وقعد على ركبته يصفق فقعدت، وقام فقامت، وبدا الأمر كأن قانونًا يحكم رقصتهما معًا، فهو يحاول أن يأخذ منها عصاها وهي تحاول أن تخطف كابه.

في تلك اللحظة قام رجل آخر من بين الجلوس يغني مجرودة جميلة:

شوفك شوف كحيلة(14) أصيلة .. تغلب في الميز(15) وصبارة

ما فيها من الشين(16) وقية .. تعجب في الناس النظارة

بالسوم(17) الغالي مشرية .. جيدة في الخيـل وسيارة

وصاحبها عنـده مالية .. مـا يطلب من واحد بـارة(18)

ابتسم فوزان، ثم عاد يراقب الأفندي الغريب، رآه ينظر نحو السماء وقد ترك كل ما أمامه وكأنما لم يجذبه شيء منه، لا الحجالة ولا تصفيق السكارى بالوهم، ولا غناؤهم، فرفع رأسه هو الآخر، فشاهد السماء ممتلئةً بالنجوم، وكأنها شظايا ألماس منثورة على بساط من المخمل الأسود، وكان القمر مكتملًا زاهيًا منيرًا، ولم يدرِ لِمَ في تلك اللحظة خاصة وجد منظر السماء أجمل.. بكثير!

* * * *

أرسل العمدة لهما رجلًا يغني على ربابة في المضيفة التي سيبيتان فيها، بعد أن انتهت ضجة الاحتفال، جلس على الباب وصار يغني بصوت كئيب كالحداء، مقطع من مجرودة حزينة:

اللي يكتر في الحب عليل الحب يقتل في الشجعان

والغلا كيف بحر الليل واللي يخش الغارق غرقان

كررها أكثر من مرة بصوت كالنواح، بدون تغيير، فصاح فيه مرعي بضيق:

- بس يا حاج عابد! متقلّبش علينا المواجع.

واستطرد وهو يُخرج سيجارتين من جيبه:

- عليك صوت يقفل شارع عماد الدين بالشمع الأحمر.

بدا الرجل كأنه لم يفهم، ولكنه أخذ السجائر من مرعي وأخذ ربابته ورحل.

تأمل سليم مرعي، ثم سأله:

- صرفته ليه؟

- دا راجل مجنون هيجيبلنا الغم مستعجل. مكفّاكش مَغنى طول الليل؟

- شكلك غرقان.

- غرقان في إيه؟

- في الحب.

تكدر وجه مرعي، والتفت إلى الخلاء، وتنهَّد مستقبِلًا النسمات الباردة في شرفة المضيفة:

- أهي كلها أماني خسرانة.

- إيه خشّرها؟

ابتسم مرعي ابتسامة حزينة:

- أصلها ماتت.

صدمت الكلمة سليم:

- مين اللي ماتت؟

التفت مرعي له بذات الابتسامة:

- جرالك إيه يا سيدنا الأفندي! اللي أنا غرقان فيها.

لم يدرِ سليم ماذا حدث له في تلك اللحظة، ولكنه شعر بغتةً أن الهواء أكثر برودة، وأنه يتلاعب بقلبه، وأحس بتلك الغصة في حلقه، فابتلع ريقه، وسأله بصوت مبحوح:

- ماتت ازاي؟

طوَّح مرعي رأسه بشكل غير المهتم، وقال:

- ماتت زي ما الخلايق بتموت، لحقتها الشوطة؛ الحمى الإسبانيولية، مخدتش يومين، أصل نجمها كان خفيف.

بدا صلبًا أمامه بلا مشاعر، وكأنه قُدَّ من حديد، وفكر أن

هذا الرجل بلا قلب، تحدث عن الأمر وكأنه يحكي له قصة حكاها ألف مرة، وكأنه يحكي عن ألم غير ألمه، وتساءل هل هكذا يصبح الحديث عن الموتى بعد مرور الوقت؟ وكأنهم ليسوا جزءًا من قصتنا! كيف نخون أحباءنا بهذه السهولة؟ ماذا سيفعلون لو أنهم عادوا ووجدونا ما زلنا نقترف الحياة؟

كان هادئًا يدخن سيجارته بأنفاس منتظمة، ورغمًا عنه تذكَّر عايدة، وفكَّر هل من الممكن أن يتحدث عنها ذات يوم بذلك الدم البارد؟ وكأنها لا تعنيه، أصابته الفكرة ذاتها بالألم، فسأله:

- فِكْرك ربك خلق العيا ليه؟

ضحك مرعي بعصبية، ثم قال ساخرًا:

- أما أروح له هسأله!

صمت سليم، وساد السكون بينهما، إلا من صوت هوام الليل، ثم سأله مرعي:

- عدم اللامؤاخذة أنت مقلتليش.. إيه سبب وقف حالك من الحكومة؟

ابتسم سليم ومال برأسه لأعلى، وقال شاردًا:

- عشان سعد.

- سعد مين؟

- سعد زغلول.

- سعد باشا؟ بتاع يحيا الاستقلال؟

- هو.

- يا خيبتك!

تنهد سليم وقال بهدوء:

- تلاميذ المدارس كانوا طالعين في مظاهرة، وأنا كنت طالع مع كام عسكري، راح الباكت الإنجليزي ضارب عليهم نار، صاب عيار منهم عيل من العيال، عيل صغير، الرصاصة خرمت جسمه، طبّ.. متحركش، خدتني النخوة وعملت فيها أبو علي، ورحت نازل من على الحصان وسايب الدورية ترن، وطلعت على بيت سعد باشا، وقمت رافع العلم، وتني أهتف زي لاعوق المحكمة: لا رئيس إلا سعد.. لا رئيس إلا سعد..

- وبعدين؟

- وبعدين عرفت إنه لا رئيس إلا ما تقتضيه الأحوال!

قال العبارة بأسى وصمَت، كانت تلك بداية كل الكوارث التي حلت على رأسه فيما بعد، لكن مرعي ضحك، ثم شعر

أن ضحكه غير ملائم، فمط شفتيه وقال بأسف:

- رحت في طوكر علشان يحيا ويعيش؟ إخص على الدنيا.

ثم عقَّب بعد وهلة وهو ينفث دخان سيجارته:

- علشان كده أنا بعيد عن شفاخانات الحكومة، صنعة لا فيها استعفا ولا مجلس تأديب، والخواجات كلمتهم زي السيف على رقبة النفر منيهم.

ظل سليم صامتًا حتى أنهى سيجارته، فألقى العُقب فوق الرمال، ورفع رأسه يتأمل النجوم الزاهية.

* * * *

كان فوزان يتأمل النجوم ذاتها في هذه اللحظة، كأنما اكتشفها في ذلك اليوم فقط، فهم أن جمال الحياة ليس في ضوضائها، ولكن في صمتها الوقور المُعتِم، صمت يشبه صمت هذا الأفندي الغريب.

كان نائمًا في المربط، فوق كومة تبن، وبجواره فرسة بيضاء هي المفضلة عنده من بين خيول عمه، يتأمل السماء التي يلتحف بها. ويفكر.

غدًا سيقيمون ميز؛ سباقًا بين الخيول، احتفالًا بابن العمدة؛ سيأتي الفوارس من القرى المجاورة والنجوع ليتسابقوا بأفراس الشيوخ، أمام بيت العمدة. سيكون هناك ضرب نار،

ستجلس النسوة والبنات مختبئات من خلف الشبابيك يراقبن من سيفوز. لا شك أنهن سيتحدثن عنه، ستمتلئ جلساتهن بذكر اسمه، مثلما امتلأت بذكر طربوش الأفندي الأحمر.

إن الجري سِرٌّ، والخيل تجلب لصاحبها الفخار، عندما تفوز الفرس يحصد فارسها المجد، حتى لو كان فقيرًا معدمًا، الفائز يقوم له الشيوخ الكبار في المجالس إذا دخل، ويباركونه.

ماذا لو ركب غدًا تلك الفرس، وسابق في هذا الميز؟ ماذا لو فاز عليهم جميعًا؟ إنه يركب الفرس أفضل مما يفعل الرجال الكبار، لقد وُلِدَ بجوارها، عاش تحتها، تعرفه ويعرفها، ألف كل شيء في هذا المربط، أسواره المبنية من الطوب اللبن، والبوابة الحديد التي تغلق بالسلاسل، صدأ الأقفال، رائحة التبن والعليق والعلف، روث الخيل وعرقها، أصواتها!

ظل يفكر بذلك حتى غلبه النعاس، نام فحلم بالأتوموبيل، واستيقظ مبتسمًا، وتذكر أن الأتوموبيل لا يزال رابضًا أمام مضيفة سرايا العمدة.

قام من مكانه قبل الفجر، وقرر أن يذهب لهناك، لن يراه أحد، لا شاهِدَ على جريمته الآن إلا بعض الكلاب التي تجوب القرية بالليل. سار يرشده القمر، حتى وصل إلى هناك، رأى المضيفة مظلمة، بابها مغلق، الأفندية نائمان، والصمت يغلف المكان إلا من صفير صراصير الليل. والأتوموبيل رابض في مكانه.

تشجع ثم اقترب منه، حتى وقف أمامه بأنفاس لاهثة وعينين متسعتين، أخذ يتأمله بعجلاته الرفيعة المطاطية، وفوانيسه المطفأة، دار حوله ونظر بداخله إلى المقاعد الجلدية المريحة، ثم لمسه بيده، فوجده باردًا ليس كما كان في الظهيرة.

- بتعمل إيه؟!

هوى قلبه بين رجليه عندما سمع العبارة بلهجة أهل مصر الناعمة، والتفت منتفضًا، فرأى سليم أمامه بقامته المديدة، وتلك الابتسامة على وجهه:

- بـ.. أ.. أفندي.. أنا..

تلعثم وارتفعت نبضات قلبه كالطبل، ولكن سليم مد يده داخل جيبه وأخرج منه قطعة حلوى.

قال له:

- خد، باستيليا!

لم يفهم في البداية ماذا يقصد الرجل، لكنه أخذها من بين يديه، وقد عرف أنها حلوى، حلوى لم يسمع عنها أو بها من قبل، أخذ يتأمل غلافها الورقي اللامع منبهرًا، إن كل شيء يأتي من مصر يكون لامعًا، مبهرجًا، جميلًا.

فكَّ الورقة، ووجد قطعة الحلوى مستقرة بداخلها، حمراء، مستديرة، شهية. وضعها في فمه، وكان على وشك طحنها بأسنانه عندما قال له الأفندي:

- مُصَّها. ما تاكلهاش، استمتع بالحاجة الحلوة لآخر لحظة.

نظر له مترددًا، ثم أخذ يمصُّها، شعر بطعم السكر على لسانه، ثم حلقه، وشعر بنشوة غريبة تروي أوصاله، نشوة عجيبة أثارت رعشة في بلعومه ثم شرايين رقبته ثم صدره!

لم يكن طعمها مثل شيء ذاقه من قبل، لم تكن تشبه شيئًا لمسه لسانه، هل هذا طعم الباستيليا التي قال عنها الأفندي؟! لا، إنه طعم مصر نفسها، طعم الأفندية اللامعين المبهرجين، طعم الخواجات ذوي القبعات وزوجاتهن الشقراوات اللاتي يأتين لشراء الخيول، طعم الأتوموبيل!

ظل أمامه يمصها بين شدقيه وكأنه في اختبار، فابتسم الأفندي الغريب ابتسامة باهتة، ثم أعطاه واحدة أخرى. أخذها منه وشكره بابتسامة خجولة بلهاء، ثم ركض مبتعدًا، كأنه يهرب!

* * * *

انتهت صلاة العصر، ورأى فوزان الفرسان من الوسايا المحيطة قادمين بكامل زينتهم وزينة أفراسهم، يتقلدون أحزمة الخرطوش، وعلى أكتافهم البواريد ويحملون السيوف.

كانوا يجهزون لإقامة الميز؛ السباق الذي ستتسابق فيه الخيل أمام الجميع، النسوة والبنات داخل الخدور يتفرجن، لا يُعلنَّ عن وجودهن إلا بالزغاريد بعد نهاية السباق، تمنى لو أنهن يزغردن له. على بطولته.

لمح سليم واقفًا في مضيفة العمدة، في يده فنجان قهوة يشرب فيه، يتأمل التجهيزات وبتجاذب الحديث مع مرعي المصري.

لم يعرف لماذا في ذلك اليوم جاءته تلك الفكرة، لم يفهم بعد ذلك وطوال سنوات طويلة هل كان قدرًا أم إنها محض مصادفة. ربما أراد أن يجذب اهتمامه فقط لا غير، ربما أراد أن يقول له إنه مهم. ليس مجرد ولد فقير.

ركض نحو مربط عمه وهو يلهث، مد يده داخل قبة جلبابه، أخرج المفتاح الذي يتدلى من رقبته بحبل، فتح الباب الحديدي، وانطلق بين الخيل إلى الفرس البيضاء، كانت تأكل تبنًا، فك رباطها، ثم قفز فوق ظهرها برشاقة وخفة، لم يضع عليها سرجًا ولا شكيمة، لا رشمة ولا لجامًا، فقط أمسك بشعر مَعْرَفتها، ولكزها لكزة خفيفة بقدميه الحافيتين في بطنها، فانطلقت!

كان العمدة نفسه في المضيفة يمسك بندقية قديمة، شمَّر أكمامه وسمَّى الله، ثم أطلق رصاصة منها في الهواء، وكانت تلك إشارة لخمسة عشر فارسًا بالانطلاق بخيلهم المزينة فوق الأرض الترابية للتسابق!

انطلقت الخيول انطلاقة واحدة مبهرة، وركض الناس خلفها وسط عاصفة من العفار، ولكن لم يكادوا يفعلون حتى سمعوا الصراخ خلفهم، فالتفتوا ووجدوا تلك المهرة البيضاء الجامحة، وقد ظهرت خلفهم تطربق فوق الأرض!

كاد يدهس المتجمهرين من المتفرجين، للدرجة التي رموا فيها بأنفسهم بعيدًا متفادين حوافرها، وقد ظهرت أمامهم وهي تخترق سحابة الغبار التي صنعتها الخيول الخمسة عشر، تشقها كمارد ظهر بغتة من العدم، وتنطلق كريح جنوبية.

الفرسان الخمسة عشر ظنوها فرسًا خُلِقَت من الزوبعة، فقد ظهرت فجأة وراءهم، وفوقها غلام صغير، يمسك بشعرها، كأنه يركب طائرًا أسطوريًا قديمًا، ثم شقَّت صفهم، ومرَّت بجوارهم كضربة برق.

كان فوزان يتمسك بشعرها، ويلفُّ ساقيه النحيلتين حول بطنها، ويحثها على الركض، بلغة جسده، فتتجاوب، مرق بجوارهم واحدًا تلو الآخر، وكانت عيون الفرسان تلتفت له بنظرة اندهاش عندما يجاورهم، ثم لا يلبث أن يجتازهم، ما كان لخيولهم طاقة بفرسه!

سبقهم جميعًا.

وصلت الفرس لخط النهاية، وكان فوزان فوقها جاحظ العينين، لا يعرف ماذا يفعل، جذب شعرها قليلًا، فخفَّفت من

سرعتها وتوقفت، كانت أنفاسه لا تزال تتردد في صدره، ثم سمع صوت الزغاريد تأتي من الخدور، وشعر بتلك الارتعاشة في ظهره، وانطلقت صيحات الاستحسان، ثم دوَّت طلقات البنادق، واحدة تلو أخرى، فابتسم، ثم صرخ بصرخة نصر وهو يرى الناس يتضاحكون، ويتحدثون، ثم شعر بتلك الضربة القوية على كتفه، فالتفت فإذا بها دبشك بندقية عثمانلية قديمة، ضربه بها أحد الفرسان.

- وش جابك يا كلب أنت!

شعر بالفزع، ولم يكد يرد حتى شعر بضربة أخرى على قفاه، فالتفت لصاحبها، فوجده رجلًا غليظًا مغتاظًا، ولم يفعل حتى شعر بضربة قدم قوية في ظهره طرحته من فوق الفرس، فهوى فوق الأرض ملوثًا بالعفار والتراب، كان خائفًا قلبه ينتفض، فقد أثار غضب مَن سبقهم، حاول أن يقوم، فرأى حوافر حصان فوق رأسه، ثم شعر بيد قوية تحمله من قفاه، وتجره فوق الأرض، حاول أن يقوم، ولكن قدمي حامله كانت أسرع منه، سار به، والناس تضحك من حوله يستهزئون به، شعر برغبة في البكاء، ثم حاول التملص من اليد السوداء الخشنة التي كانت تمسك كالكلابة، وأخذ يضربه، ولكنه كان يُجَرُّ، ثم شعر باليد تفلته، فسقط أرضًا، وعندما رفع عينيه وجد نفسه أمام العمدة!

- يا ولد! أنت من مين؟

تردد لوهلة، ونظر في عيني العمدة، ثم أبصر الأفندي الغريب واقفًا وراءه يدخن، ابتلع ريقه وقال متلعثمًا:

- ابن مجلي الطحاوي.

- الله يرحم بوك.

ثم أشار للفرس التي أحضرها الخدم، فوقفت وراءه:

- مهرتك دي إيه؟

- سجلاوية(19)؟

- بوها مين.

- بوها عبيان وأمها يلدز.

التفت العمدة للأفندي الغريب، ثم قال:

- فرس طيبة، قرفة مجلي، وأمها يلدز أم الخيل، أصل بيتها من خيل جار الله طويريش من عرب إسبعة، ببر الشام.

التفت فوجد مرعي المصري يفحص الفرس، عينيها وأذنيها، ويفتح فمها ويتفقد بيده أسنانها ولثّتها، ويجس فقرات ظهرها وصدرها بيدي خبير، ثم مفاصلها، وأرجلها وأوتارها، وفي النهاية ضرب كفلها وهو يقول مبتسمًا:

- اشترينا يا شيخ محمد!

لم يكد يتم عبارته حتى تفاجأوا جميعًا بالنداء العصبي:

- يا ولد! وين لقيت؟

التفت فوزان وقد عرف الصوت المخيف، ورأى عمه برجس يتقدم بخطوات مسرعة نحوهم مستندًا على بندقيته، وعلى وجهه أمارات الغضب.

- تعالَ هنيا! راكب المهرة على العري!

دبَّ الاضطراب في أوصال فوزان، وحاول أن يتراجع خطوتين للوراء، لكن يد عمه كانت أسبق، فهوت على وجهه بصفعة عظيمة خرَّ على إثرها الغلام فوق الأرض.

شعر فوزان بصفير شديد، وبعدم اتضاح للرؤية، وحاول أن يقوم من مكانه، فرأى عمه يمد يده بين فخذي الفرس وهو لا يزال يصيح:

- المُهرة صبنت(20)! سرق الفرس يا شيخ إمحمد..

العمدة بدا ممتعضًا، وقال له بصوت مرتفع لينهي الجلبة:

- الأفندية من مصر عم يشوفوا الفرس..

- ما هيشي للبيع يا شيخ إمحمد..

- تحشم يا برجس..

صمت برجس ولم يحر جوابًا، فاستطرد العمدة بحزم:

- تعالَ هنية للرحبة.

* * * *

جلسوا في مضيفة السرايا، في ظل توتة وارفة فوق سجاد بدوي، ووسائد محشوة بالصوف، لكن فوزان جلس بعيدًا على الأرض فوق عتبة سلم المضيفة يستمع إلى ما يقولون.

كان حزينًا خائفًا يعرف أن ما فعله لن يمر بسلام. أصواتهم مرتفعة وهم يتفاوضون في بيع الفرس، والتوتر يرتفع.

كم يكره عمه، كم يكره تفاصيله، ملامح وجهه العابس المُغبر، الشارب الكث الضخم، السِّنَّة الفضية بين أسنانه، وشْم السمكة الأخضر على ظاهر كفه، يكره كل تفصيلة من تفاصيله، يكره قسوته عليه، وعلى نسائه، فهو متزوج من أربع نساء يضربهن بالسوط كما تُضرب البهائم، إنه لا يشبه أباه أبدًا!

سمعه يصيح:

- ما باخد ورقات(21)، ما باخد إلا دهبات.

سليم قال:

- الحكومة في مصر لو عرفت إنك مش بتاخد العملة الميري هترميك في قراميدان، عارف كده ولا مش عارف!

- وِش يعني الحكومة؟ أنا ما بتهددا!

- حاك خشمك يا برجس.

العمدة زجره، فقال مرعي المصري:

- استبينا، دهبات دهبات، خد عربون دلوقتي، والباقي هنكتب لك به كونتراتو، وشيع حد من محاسيبك ييجي ياخد بقيتهم في مصر جنيهات دهب..

- فوزان.

عندما سمع اسمه تنبَّه، شعر بقلبه يهوي بين قدميه، العمدة قال له:

- انخبلت! ترسل ورع صغير لمصر؟!

لم يعلم لماذا في تلك اللحظة شعر بالإهانة من كلمة «صغير» التي قالها العمدة، فصاح وهو يعتدل ويواجه العمدة في عناد وشجاعة غريبة:

- مانيش صغير!

لم يعرف لماذا قالها، ولم يفهم في تلك اللحظة أي قدر رسمه لنفسه بهذه العبارة القصيرة. العمدة تعجَّب واستاء من رد ولد صغير عليه، ضربه بعصاه صائحًا:

- تجلس بين الإكبار يا ولد؟ روح عني!

هرب فوزان، فنزل درجتين في السلم خوفًا، فسمعهم يتجادلون في طريقة نقلها، رفض عمه أن يرسلها بالبابور إلى مصر، قال إنه أقسم ألا يركب السكة الحديد ولا تركبها أفراسه.

في سنوات الحرب أرسل واحدة من أصايله إلى مصر في عربة السبنسة بالوابور المُحمَّل بالعسكر، وفور أن خرجت من الصالحية، ضرب العسكر الأستراليين السائس وألقوه من القطار، واستولوا على الأصيلة، وعلم بعدها أن السُّلطة أرسلتها إلى فلسطين مع الحمير والجمال والأنفار الذين أخذوهم للحرب، وضاع عليه المال والفرس.

- ولو مش هتركب بالبابور هنشيعها على مصر ازاي؟ على أكتافنا!

- على حافرها..

هكذا أنهى برجس الحوار، ثم تركهم ونزل، رآه غاضبًا قادمًا نحوه، فقام له مفزوعًا، ولكن هذا لم يشفع له، فقد

جذبه عمه من قبة جلبابه، وجرَّه فوق الأرض الرملية، وهو يدمدم في غضب شديد:

- حسابك معي يا كلب!

جرَّه كما تُجرُّ الخِراف إلى المربط. ألقاه تحت حوافر الخيل، ثم غاب فأحضر كرباجًا سودانيًا معتبرًا كان ينقعه طوال الليل في برميل ملآن بالزيت، ثم هوى بالسوط على جسد الغلام.

شقَّت الضربة جلبابه ثم لحمه، فصرخ وتلوى، وصار يستنجد به ويستحلفه:

- ورحمة الناس الزينة الغاليين يا عم.. ورحمة بوي.. خوك..

لكن برجس الطحاوي ما كان يلين أمام توسلات الغلام، وصار يهوي بالكرباج فوق جسده، والولد يحاول أن يهرب منه من بين أقدام الخيل، عندما دخلت أمه تصرخ وتولول، رمت بجسدها على الولد لتحميه وهي تصيح ملهوفة:

- لا يا شيخ برجس! ورع صِغيِر يا شيخ ..

لكن برجس الطحاوي في فورة غضبه لم يهتم بها، وصار يهوي بالكرباج على جسدها هي الأخرى، فاحتضنا بعضهما، والكرباج لا يفرِّق بين لحمه ولحمها، وبرجس يشتمه ويشتمها:

- يا خائن! تسرقني.. يا كلب..

لما تعب من الضرب، ظل يلهث واقفًا فوقهما، يرتجفان من الألم والرعب، ويبكيان يحاولان ألا تلتقي عيونهم بعينيه، ظل دقائق ينظر لهما بوحشية، ثم رحل.

كانت أمه زاهية لا تزال تبكي، استندت على الجدار، وأخذت تنتحب:

- وش خلاك تركب المهرة يا فوزان؟ ليش توحلنا يا ولدي؟

تردد وقال محاولًا تبرير فعلته:

- إنتِ قلتِ الأفراس أفراسنا..

- أفراسنا لكن ما هيش إلنا.

قالتها وهي تبكي، فاستند وهو يرتعش من الألم كتفه إلى الحائط، وفكَّر في كلمتها رغم صغر سنه، لقد كانت كل تلك الأفراس لأبيه، ولكن بعد موته أصبحت ملك عمه. أمه تقول إن عمه من قتل أباه، الناس جميعهم يقولون ذلك.

يتذكر هذا اليوم البعيد الذي جاءت فيه جثة أبيه محمولة فوق جمل، برك الجمل وسط القرية، عند سرايا العمدة، يتذكر وجه أبيه مليئًا بالسحجات التي تختلط بالرمال. كأنه ضُرِبَ على وجهه ألف ضربة. رأى الدم يُغرق جلبابه وعباءته، رأسه عارٍ بدون شال ولا عقال. يتذكر أمه تركض، ثم تنكب على المحفة التي تحمله، تولول، تصرخ، تهيل التراب على

رأسها. ويتذكر عمه هادئًا، باردًا.

طلبها برجس للزواج بعد أسابيع من موت زوجها، لم يكن دمه برد بعد، كانت شابة جميلة كغزال أريل، أجمل نساء البلدة، رغم أن أمها عبدة، أو كما يسمونها حبة سوداء، إلا أنه كان فيها جمال غريب لم يُمنح لامرأة أخرى، بوجه بديع وقسمات حسنة، ضفائرها مروية بالعطر، تتزين بشناف من الفضة يتدلى من أنفها، ووشم على طرف شفتها السفلى والحناء تصبغ كفيها وكعبيها!

رفضت أن تتزوجه، لم تقل فقط إنه قتل أخاه، قالت إنها لا تراه رجلًا! وجُنَّ جنون برجس، تحول إلى نمر شرس، عاملها مثل الخدم، ليس كأرملة أخيه، لم يترك لهما سوى بيت على أطراف البلدة، تعيش فيه، وسلب من ابنها ميراثه، من أفراس أبيه، وأمواله وجعله عبدًا. قنَّ لديه في مربط الخيل، يخدم كي يلقي له بفتات يكفيه بالكاد وأمه، يحرس خيول أبيه، ولا يملك في مصيرها قرارًا!

لهذا فهو يضربها ويضربه بغلٍّ.

لم يعرف فوزان ماذا يفعل، كانت زاهية تبكي وتنوح والدموع تُغرق وجهها، وأنفها، مط شفتيه في ألم، وخفض رأسه، صحيح أنه تألم، ولكنه كان قد اعتاد هذا الألم، إنها تكبره بعشر سنوات فقط، مجرد فتاة صغيرة هي الأخرى في وجه برجس الجبار!

مدَّ يده المرتعشة لجيب جلبابه وأخرج منه قطعة الحلوى

التي أعطاها له الأفندي، قال لها وهو يبتسم:

- خدي، باستيليا!

نظرت ليده بتعجُّب، ففتح غلافها اللامع، فأخذتها منه، ووضعتها في فمها.

- ما تاكليهاش. مُصِّيها مصيص.

مصَّتْها، وشعرت بطعم السكر على لسانها، ورغمًا عنها ابتسمت من بين دموعها، فظهرت ابتسامتها جميلة، وضحك!

* * * *

أمره عمه أن يظل طوال اليوم ينظف الفرس التي ستسافر مع الأفندية؛ غسلها وفرش جسدها بالفرشاة، ثم قشط العالق بحوافرها.

عندما عاد في الليل وجد أمه جالسة على العتبة تبكي. قالت له:

- عمك ناوي الغدر، الأفندية صحيبته، هيهجموا عليك هجيمة وياخدوا الفرس يا ولدي.. الأفندية ما إلهم أمان، عمك رايدهم يقتلوك كيف ما قتل بوك.. دول فلاحين حرامية.. دولة صحيبة عمك..

كانت كلماتها مخيفة، ولكنه حاول أن يكبت الخوف بداخله، قال لها إنه سيذهب معهم، دخل الدار وتركها على الباب، فصاحت فيه:

- أنت سافف لجامك يا فوزان!

كان مرتعبًا، جلس في ركن قصيٍّ من الدار يفكر فيما سيفعله، مضطربًا، تتردد كلمة «مصر» في رأسه كالنواقيس، قلبه يرتجف، ويشعر به يغرق نحو بطنه، وأنفاسه ثقيلة كأن صخرة فوق صدره!

جاءته الفكرة، فقام إلى الصندوق الوحيد المستخدم كأثاث للبيت، بجوار وسائد صوفية، عبث في محتوياته، من أقمشة مهلهلة وأغطية ملأها العث، ثم وجدها؛ خرقة من قماش ملتفة ومربوطة بعناية.

سمع صوت أمه تقول باستجداء:

- ورحمة بوك الغالي، ورحمة الناس الزينة الغاليين ما تروح مع الأفندية يا فوزان!

فتح الخرقة الزرقاء الملوثة بالشحم، فظهرت بداخلها تلك الطبنجة! طبنجة من طراز ويبلي، بريطانية الصنع، بساقية دوارة، ومقبض من الخشب، محفور عليه نقش الجيش الإنجليزي، وتاريخ ١٨٩٩، طبنجة صدئة، وباردة.

عندما شعر بأمه تدخل خبَّأ الطبنجة مسرعًا في جلبابه،

وأغلق الصندوق!

التفت إليها ورأى الدموع تغرق وجهها، بكت كثيرًا اليوم، كانت آثار الضربات التي ضربها بها برجس لا تزال ظاهرةً على وجهها وعنقها. تأمل بأسف فقرها وهي حافية، بقدمين مُغبرتين، وثوب ممزق، ثم سمع الطرق الشديد على الباب، فانتفض، وانتفضت.

فتحت الباب فطالعها وجه برجس الكئيب، ووراءه الفرس، يحمل فانوسًا بشيالة، وعلى كتفه بندقية من الطراز العثمانلي القديم.

قال لها:

- الأفندية مسافرين الحين. وين الوِلد؟

امتقع وجهها، وصاحت كلبؤة شرسة، وهي تخفي فوزان الذي ظهر خلفها:

- ما راح تاخده يا برجس.. شاهي تقتله كيف ما قتلت بوه؟

زام برجس، ودفعها بعيدًا، ثم جرَّ فوزان وراءه من قبة جلبابه، وهي تتمسك به، وتصرخ، ولكنه كان مستسلمًا لقبضة عمه الشديدة، وهو يبكي، حتى ألقاه على الأرض، فقام.

سحب عمه الفرس وهو يصيح بحزم:

- تعالَ ورايا!

تقدم عمه، وبيده الفانوس، فوقف فوزان دقيقة يرتعش، حافي القدمين، يتيم، ينظر لأمه التي تجلس على ركبتيها باكيةً تمسك بقائم الباب. كانت تشعر بأنهم خطفوه منها في لحظة واحدة. ازدرد لعابه بألم، ثم تركها وسار وراء عمه. بعد قليل سمع نداءها، ونباح كلاب، التفت فرآها تركض نحوه، جاءت تحمل بقجة، وتناديه نداء ملهوف يرجُّ الليل.

- يا فوزان! يا فوزان!

عندما وصلت له جلست على الأرض تلهث وتبكي، احتضنته ذلك الحضن الذي لم تستطع أن تحضنه إياه قبل أن يأخذه ذلك الشيطان، ذاب الولد في حضنها، شمَّ رائحتها، وشعر برغبة شديدة في البكاء، ولكنه منع نفسه، قبَّلته بعنف في خده ورقبته وكأنها لن تراه ثانية، ثم طبطبت على صدره وأعطته البقجة.

- الطريق واعر. خد، كُلْ..

ابتسم لها وهو يحتضن البقجة الساخنة. كانت جميلة، سمراء، وكحل عينيها سائح على عينيها. مسح دموعها بيده. ثم أفاق على صيحة برجس الطحاوي:

- يلا يا وِلد!

تركها وسار وراء برجس وسط الليل البهيم ونواحها يشيعه، كان السكون يعم البلدة بلا صوت إلا عواء ذئب بعيد، أو هوام الليل، وخطوات الفرس وخُفّ عمه.

عندما وصل إلى بيت العمدة وجدهم يتحضرون. رأى بخيت عبد العمدة يمسك مصباح كيروسين، يضيء للأفندية، والعمدة واقف بجواره يودِّعهم. رأى الأتوموبيل واقفًا، والأفندي الغريب يجاهد وهو يدير المنفلّة.

دار المحرك بصوت مثل غول يستيقظ، بزمجرة مخيفة جعلت قلبه ينقبض في صدره، شعر في تلك اللحظة أن الأتوموبيل ليس جميلًا كما ظن، إنه مرعب، وإن هؤلاء الأفندية ليسوا مبهرجين، لكنهم كئيبو الخلقة، خطرون، تُلقي ظلال المصباح على وجوههم عتمة مخيفة. كأنهم عفاريت يدبرون أمرًا. التفت للوراء علّه يرى ضوءًا قادمًا من دارهم، لكنه لم يجد شيئًا!

كانت رائحة الغاز الكريهة الخانقة تنبعث من الأتوموبيل، وتكتم صدره، ورأى الدخان يتصاعد منه وهو يرتجّ، كلب سلوقي كان ينام تحت العجلات أفزعه الضجيج فقام وهرب!

توقف عمه، ثم التفت له، وأعطاه قصاصة ورق:

- إن تاخد المالية دقّ على السرايا كيف «رميح العقيلي».

أخذ الورقة من عمه، قصاصة مكتوب عليها رقم ١٢؛ نمرة ماكينة الهاتف الوحيدة الموجودة في جزيرة سعود، والتي لم يكن يتصل عليها إلا رميح العقيلي الذي يعمل بسنترال القنطرة؛ ليخبر العمدة أن لديه أحد عربان الشام، وقد وصل ومعه فرس لأحد المشايخ الطحاوية، فيتم التنبيه على منتظر الأعرابي، فيذهب ليستقبله!

- تاخد المالية وترجع في البابور، ما تأخر يوم. بالله لو نقصت المالية بارة لأقطع راسك.

قالها وتركه ورحل!

ظل ينظر لعمه المُبتعد حتى سمع صوت خبط مرعي المصري على كبوت الأتوموبيل ينبهه، فالتفت له بشرود:

- خليك ورانا!

* * * *

ركب وسار وراءهما وسط الليل، لا يضيء لهم الطريق إلا فوانيس الأتوموبيل الشحيحة التي تعمل بغاز الإستيلين. الطريق مُظلم، كئيب، ضيق، على جانبيه حقول سوداء، خلفها رؤوس نخيل عالية، تبدو في الغبش كرؤوس الشياطين!

يسير الأتوموبيل الهوينى على قدر طاقة الفرس، صوته مرتفع، مروع. يعرف تلك الطريق، طريق نهايتها محطة

قطار الصالحية، سيصلون لها بعد ساعة، أو اثنتين.

كانت حالته سيئة، يرتجف من البرد الذي يخترق لحمه من قدميه الحافيتين، ثم يشق عظامه كصاعقة إلى عموده الفقري فيرتعش. خائف ينظر يمينه وشماله، مخافة أن تخطفه جِنِّية أو عفريت في هذا الليل الحالك، فلا يدري به أحد. قاوم النوم على ظهر الفرس التي كانت كأنما تهدهده في سيرها، لكنه غفا جالسًا برأس متهدل.

لم ينم أكثر من دقائق، لكنه فتح عينيه ورأى الفرس لا تزال تسير، وشعر بالندى فوق كتفيه وعلى شعر فرسه، ورأى الضوء الأبيض. نور البكور، كانوا أطفأوا فوانيس الأتوموبيل، أخذ ينظر وراءه على أمل أن يرى زاهية ثانية، كانت البلدة قد اختفت من خط الأفق، وكان الطريق ضيقًا لم يوجد فيه غير كلاب على جانبيه تهز ذيولها وهي تراقب هذا الوحش الذي تراه أول مرة والمسمى «أتوموبيل»!

* * * *

---

(13)الشين بلغة البدو هو السيئ.

(14)الكحيل رسن من أرسان الخيل.

(15)السباق.

(16)السوء.

(17)الثمن المرتفع.

(18)عملة قديمة ضئيلة القيمة.

(19)رسن من أرسان الخيول أو أنسابها، وهم خمسة أنساب: سجلاوية «صقلاوية»، دهمان، كحيلان، هدبان، عبيان.

(20)تعرقت.

(21)كانت أوراق البنكنوت اختراعًا جديدًا لا يثق به الناس، ويفضلون العملة الذهبية والفضية عليها.

(٢)

سار وراءهما بالفرس وسط العزب والوسايا، وبعض مضارب العرب، فلما تكبدت الشمس السماء كانوا قد خرجوا للصحراء، وكان قد تعب من الركوب فنزل.

كانت الشمس ساطعة، الأرض أسفله كالحُمم، يتصبب عرقًا، وجلبابه التصق بظهره، والأتوموبيل المعدني يلمع كأنه ميسم مكوي، يلتهب حديده تحت أشعة الظهيرة.

عندما وصلوا إلى أرض السماعنة، كان قد فقد القدرة على المسير، وشعر بأن جوفه مثل الحطب الجاف، أشار لهم بالتوقف، ثم طلب ماءً:

- اروينى إبمايه يا أفندي الله يرويك من الحوض.

ناوله سليم قِرْبة، فشرب حتى ارتوى، قال لهم:

- الفرس ضمرت!

لم يقل إنه تعب، حاول أن يظهر بمظهر الشجاع القوي.

توقفوا، وقرروا أن يبيتوا ليلتهم في العراء، أفرغ مرعي زمزمية ماء فوق رأسه، ثم جمعوا قبل الغروب الحطب، حتى إذا ما بدأ الليل في إسدال سدوله أشعلوه، وجلسوا

صامتين حوله، كل هائم في فكره، بينما الفرس واقفة وراءهم بعد أن خفف فوزان عن ظهرها سرجها ووضع لها عليقًا.

الليل في الصحراء ككتلة من العدم، يطوقهم من كل اتجاه، لا يخترقه سوى شعلة النار التي أشعلوها، فأخذ لهيبها يتراقص على وجوههم مثل غيلان الصحاري.

كان الجوع يقرصه، ففتح البقجة التي أعطتها له أمه، أخرج منها لفة قماش، فتحها، فظهر فيها كرات من اللبن الجميد، وبعض أرغفة خبز الصاج، مد يده على استحياء للأفندي الغريب، فتأمل الرجل يده الممدودة للحظة، ثم ابتسم وأخذه منه، وهو يومئ برأسه، مد يده برغيف لمرعي، فرفض بهزٍّ رأسه، وأشار للسيجارة التي يدخنها مكتفيًا بها.

أخذ يأكل ببطء وهو يراقبهما، ذكَّرته رائحة الخبز بها، طعمه يشبه طعم حضنها الدافئ، قاوم دموعًا في عينيه، وهو يشعر بالغربة الشديدة.

ظلوا على تلك الهيئة، والصمت، وأخذ يراقب خلسة ملامح سليم الحزينة الساهمة، وهو ينظر للنار وكأنه لا يراها، وتفكر في سبب حزنه.

لم تمر دقائق حتى قام الرجل، واختلى بنفسه داخل الأتوموبيل دون حديث، وقام مرعي يدخن بعيدًا، قبل أن يلتفت له ويقول:

- إيه المقابلة الدون اللي عمك قابلنا بيها دي؟!

ارتعش من كلمته، وانقبض قلبه، وانعقد لسانه، فواصل مرعي:

- مش جديد عليكم! جدك كان برده قليل الأصل..

والتفت إلى سليم الذي لم يكن مهتمًا، وقال بصوت مرتفع:

- جده الحاوي الطحاوي(22)؛ باع عرابي باشا ببندقية فرنساوي بروحين، الإنجليز كانوا بياخدوا من رجالته راس العسكري المصري بجنيه في التل الكبير..

شعر فوزان بالضيق من حديثه، ولكنه كان خائفًا لم يستطع أن يتحدث، فنفث مرعي دخان سيجارته بهدوء في الهواء الطلق، واستطرد:

- شفته مرة وأنا عيل صغير، عينيه كانت زي الثعلب، اللي سماه الحاوي كان ديليسبس، علشان كان في الحرب عامل زي الحواة بتوع الموالد.

نظر فوزان للأرض، بمزيج من غضب وخوف، وأخذ يحرك ساقيه على الأرض في توتر. فألقى مرعي سيجارته فوق الرمال، ودعسها بحذائه:

- اوعى تكون مستاء. سيدك نفسه مكانش هيزعل، الراجل المجدع ميخزاش من حاجة عملها، مش يتحمق ويلوي بوزه زي ما أنت عامل كده.

تجمدت الدموع في عيني فوزان، شعر برغبة في البكاء، لكنه صمت، تمنى لو أن الرجل يصمت، والحقيقة أنه صمت وذهب يدخن بعيدًا.

بقي قليلًا يتأمل النار، ويقاومها في صدره، ثم شعر أن النوم يهاجمه، لم ينم منذ ليلة أمس، كان خائفًا من أن يغفو ويترك نفسه لهم، ما عاد يشعر بالأمان الآن، قد تكون أمه على حق، ربما الأفندية ينوون قتله، ربما سرقوا الفرس أثناء نومه، يجب أن يظل متيقظًا. عندما أدرك عدم إمكانيته للصمود، قرر أن يربط الفرس به، أخرج حبل، من سرج الفرس، وقيد إحدى ساقيها بالحبل من طرفها، ومن الطرف الآخر قيَّد قدمه هو. لن تبتعد الفرس طالما هو مربوط فيها، تأمل الصحراء حوله والأتوموبيل المتوقف، والنيران، ثم اضطجع على جانبه، فوق الرمال، ولم تكد تمر دقيقة واحدة حتى ذهب في النوم!

لم يُعلِّق سليم على ما يحدث، ولكنه ظل جالسًا على مقعد السيارة أمام المقود، وقدمه بالخارج يتأمل على ضوء القمر صورة فوتوغرافية صغيرة بالأبيض والأسود لزوجته عايدة، صورة تحمل الكثير من الحزن بقدر ما تحمل من الذكريات.

أغمض عينيه هو الآخر قليلًا فنام، وحلم بمجلس التأديب، وكبار الضباط جلوس وراء طاولة، وهو واقف أمامهم في وضع «زنهار»، جميعهم من الإنجليز يرتدون الزي الميري المصري والطرابيش الحمراء، عيونهم زرقاء باردة أجنبية، ترمقه ببرود، وكأنهم ينظرون إلى شخص مُنتِن، يحكمون عليه حكمًا سيُدمر حياته.

بجوارهم مفتش بوليس مصري يتولى قراءة الحكم عليه بالعربية:

- بعد الاطِّلاع على مواد الاتهام وُجِدَ أن الصاغ سليم عبدالتواب حقي مذنب بخروجه عن قواعد الضبط والربط.. وإتيانه بسلوك مغاير للترتيب الحسن، والنظام العسكري.. وبناءً عليه وبتصديق من حكمدار بوليس مدينة مصر تقرر تجريده من جميع الرتب والنياشين، ورفته من وظيفته، مع حرمانه من حقوقه في المكافأة والمعاش اللذين يستحقهما بمقتضى القانون».

التفت وراءه فرأى عايدة واقفة ووجهها بلا حياة، وهي تحمل ديكًا مذبوحًا، والدم يُغرق ثوبها الأبيض، يعرف هذا الديك.. إنه الديك نفسه الذي كان يراهن عليه في مقهى الديوك، مدَّت له الديك دون أن تنظر له، فأمسكه ونظر لرأسه الذي بدأ يتحرك، ثم بغتة قفز الديك هاربًا من بين يديه، وانطلق ينهش لحم رقبته بمنقاره، بنقرات قوية تخترق لحمه، حاول أن يبتعد أو يهرب، ولكن الديك كأنما التصق بصدره، فصار يصرخ، وهو يحاول الابتعاد، ولكن صوته لم يكن يخرج، وكأن الديك قد أكل حنجرته، ثم استيقظ

يشهق!

فتح عينيه في فزع، فطالعه الظلام، وشعر بالبرد يُجمِّد أطرافه، والريح الخفيفة تنفذ لعظمه، وجد نفسه لا يزال داخل السيارة على المقعد، ولكنه لم يجد الصورة في يده، اضطرب، وصار يتلفت حوله باحثًا عنها، فوجدها ملقاة بين قدميه، وقد سقطت منه خلال نومه، فنظَّفها، وألقى نظرة عليها، ثم وضعها في جيبه، ورفع رأسه..

كان كل شيء هادئًا، ومرعي نائم يطلق شخيرًا مرتفعًا على مقعد السيارة الذي يجاوره، بينما كانت النار لا تزال مشتعلة تراقص الريح، وبجوارها يتكوم الغلام نائمًا، فيما كانت الفرس ما زالت واقفة تنظر إلى اللامكان في وسط الليل.

صامتة، ساكنة، لا تُغيِّر من حركتها، لا يهتزُّ فيها غير شعرها، وكأنها تخاطب كائنًا غير موجود، أو تتلقى إلهامًا ما يأتيها من مكان غير معلوم، ظل يراقبها، فهزت رأسها قليلًا، ثم عادت مرة أخرى تنظر إلى المكان نفسه، نحو الظلام، حيث لا يظهر شيء في الصحراء الغامضة..

لم يقترب من فرس منذ أن ترك السواري، كان قبلها في أورطة الراكبدارية، وفي حرس الشرف في سرايا عابدين، كم كان يحب الخيل ويعرفها! لكنه منذ يوم إحالته للمعاش، وهو يتجنَّب حتى النظر إليها.

لم يعرف في هذه المرة لماذا قرر الاقتراب، شيء ما

جذبه إليها، ربما جمالها البادي، جسدها ضئيل رشيق، ليس كخيل الميري، لها تينك الأذنين النشيطتين، والأنف ذو الفتحتين المتسعتين، وكأنهما تشربان الريح إذا ما ركضت، والذيل المرفوع من كفلها بانسيابية شديدة، كقوس كامل يرتفع ثم يسقط نحو الأرض كبرقع ثقيل.. كم تبدو جميلة وأبيَّة!

اقترب منها، بهدوء كي لا تجفل، فالتفتت له وصارت تنظر له بنظرة جامدة بلا تعبير وهو يتقدم بحذر، ولاحظ هو الولد النائم بالقرب منها، كانت إحدى ساقي المهرة مقيدة بالهجار من طرفها، ومن الطرف الآخر مقيدة برجل الغلام..

توقف وهلة ليفهم، ثم استوعب أنه يخاف منهما، حيث ربطها به مخافة أن يسرقاها ويبتعدا بها دونه، ولم يستطع أن يغالب ابتسامته، وهو يلقي عليه نظرة في رقدته، كالجنين فوق الأرض، وقد وضع كساءً على ظهره يقيه من البرد، تخرج من أسفله قدمان مضمومتان حافيتان.

تقدَّم باتجاه الفرس التي لم تُظهر خوفًا منه، تعلَّم منذ أيام البوليس ألا يقترب من الفرس من اتجاه لا تستطيع أن تراه منه، ولذلك حرص أن يقترب إليها من وجهها، وكانت هي تنظر له بجانب رأسها الأيمن؛ لتتأكد من أنه لا يمثل خطرًا عليها في اقترابه، كانت ابتسامة هادئة وديعة على وجهه، حتى إذا ما كان قاب قوسين أو أدنى منها، مدَّ يده برفق إلى رأسها، ومسد جبينها، فامتثلت له بغير خوف، وهدأت، وأرخت رأسها وأذنيها المنتصبتين في تحفز، فابتسم من ذلك، وصار يمسّد شعر قصتها بهدوء، ويتنفس

ببطء..

لكن لم تمضِ ثانية واحدة، حتى سمع الصراخ المرتعب:

- خلي الفرس!

نظر له سليم، وقال:

- متخافش أنا...

امتدت يد فوزان المرتعشة لأسفل جلبابه وأمسك بمقبض المسدس المخفي، ووجهه لسليم وهو ينظر له خائفًا:

- خلي الفرس!

- اهدأ، متخافش..

قاطعه فوزان وهو يختنق بالبكاء:

- خلي الفرس، وبعِّدْ عنها..

رفع سليم وهو يتراجع ببطء.

- تمام..

ارتفع صوت مرعي من الوراء:

- هو فيه إيه؟ يا ابن الفرطوس! طبنجة؟!

التفت فوزان لمرعي بالمسدس، وصاح وهو يبكي:

- ما تسبّ..

- أسبّ لك أرمة أبو جدك كمان.. هات الطبنجة دي يا ابن الكلب يا جلنف!

تراجع الولد وكأنه يحتمي بالفرس، وهو يوجِّه المسدس لكليهما، فتوقَّف مرعي عن التقدم، وقال بخبث:

- ماشي، بشوقك.. بقى أنت عاوز الفرس؟

ابتلع فوزان ريقه وأومأ برأسه أن نعم، وهو يتلفت بينهما، فاقترب مرعي:

- وجب!

لكنه في هذه اللحظة ضرب كفل الفرس بعنف، فانتفضت واضطربت، ثم اندفعت مفزوعةً إلى الأمام هاربة، فجرَّت الغلام المربوطة قدمه بساقها، فاختلَّ توازنه مشدودًا بحبل الهجار، وسقط على وجهه وسقط منه المسدس!

ركض سليم نحو الفرس، وأمسك بلجامها، ليمنعها من سحل الولد على الرمل والحصى، وركض مرعي نحو

المسدس والتقطه:

- سلاح! شايل سلاح! يا ابن المنجوس، مطوقنا واحنا ولا داريين..

قام فوزان وقد جُرِحَ وجهه وكتفه من أثر السقطة العنيفة، وقال لمرعي بعناد:

- هات فرد أبوي..

لكنه لم يتقدم منه خطوتين حتى جذبه الحبل مرة أخرى، فمال وفكَّه، بينما مرعي يتأمل السلاح:

- دا ويبلي روفلوفر عجب! جبته منين دا يا ابن الـ...

فكَّ فوزان نفسه وهو يبكي ثم صرخ:

- هات الفرد..

أبعد مرعي السلاح عنه، ودسَّه بكمر سرواله، فهجم عليه الولد لما لم يجد بدًّا من هذا، ولكن مرعي الذي كان يفوقه حجمًا وقوة فدفعه بقبضته فسقط أرضًا.

قام فوزان يلهث، ويرتعش، كان مرعوبًا خائفًا، قلبه ينتفض، حاول أن يهجم على مرعي مرة أخرى، لكنه دفعه ثانية، فانكبَّ على وجهه فوق الرمال، قام ثانية وصاح، ثم اندفع نحو غريمه القوي الذي صفعه فسقط.

كانا يتصارعان تحت القمر، وكلما قام الولد طرحه الرجل أرضًا، حتى أنهكت قواه، فجلس على ركبتيه ملوثًا بالغبار يبكي. كان خائفًا ضعيفًا وحيدًا، ينوح بصوت مرتفع باستسلام كطفل:

- فرد أبوي! فرد أبوي!

هزَّ مرعي رأسه ومطَّ شفتيه، وتركه متجهًا نحو الأتوموبيل، واستند على مقدمته وهو يُخرج المسدس ليتأمله.

- رجِّع له الطبنجة!

سمع فوزان العبارة الحازمة، فرفع رأسه ورأى سليم واقفًا أمام مرعي، الذي قال متعجبًا:

- أنت اتهبلت أنت التاني؟ سلاح إيه اللي هيمسكه عيل صغير زي دا.. دا هيجيب لنا تلقيحة.

- رجعهوله..

كان فوزان متعجبًا، شعر بقلبه يخفق، عندما اعتدل مرعي وقال بتحدٍّ:

- لتكون فاكر إني رايح أخاف من طرطورك يا جناب الكونستابل!

لم يستفزَّ الكلام سليم، وقف هادئًا أمام مرعي المصري الذي أراد أن يأخذ الموقف لمستوى أكبر عندما تراجع خطوة، ووجَّه المسدس نحو صدر الأفندي الآخر!

لم يهتز، قال بهدوء:

- خلينا نخلَّص الدور دا يا مرعي.. أنت مش رايح تركب الأتوموبيل بيه.

تجمَّد المشهد لوهلة، وكان فوزان يرتعش وهو فوق الأرض، جاحظ العينين، متهيأ لأن يطلق مرعي النار على الأفندي، وفكر أنه من الممكن أن يلتفت إليه هو الآخر ويطلق عليه، ولكن في اللحظة التالية، ابتسم مرعي، ثم ضحك، وأمسك بكف الأفندي ووضع فيه المسدس قائلًا:

- عفارم عليك، عجبتني!

أمسك سليم المسدس بيمينه، ثم بحركة خبيرة سريعة فتحه، وأدار ساقيته بطريقة محددة، فسقطت الطلقات الستة في كفه الأخرى، وضعها في جيبه، ثم رآه فوزان يتوجه نحوه، ويجلس أمامه بنصف رُكبة بهدوء، ويمد له بالمسدس.

كان فوزان لا يزال يشكُّ به، لكنه مسح أنفه ودموعه بكم جلبابه، وسارع لأخذ المسدس منه، فيما قال له الأفندي:

- متخافش من حاجة، أنت في أمان.

صمت فوزان وتأمله، كان يبتسم له ابتسامة جميلة هادئة. قام، واتجه نحو مرعي، الذي صاح:

- ولع بقى سيجارة علشان نسخن الطاسة في الليلة الغبرا دي.

* * * *

مع الفجر انطلق الأتوموبيل من جديد وئيدًا، وسار فوزان خلفهما بالفرس، كان سليم غارقًا في أفكاره عندما قال مرعي:

- طلعت راجل مجدع وتعشق النبي، بس عيب العيل الصغير دا يطوقنا ويداري منا فرد زي دا بصنعة لطافة.

لم يرد سليم، فتابع:

- لو كان ضرب عيار واحد كنا رُحنا في أبو نكلة، ومكانش هيبقى لينا دية في الخلا دا.

- متخافش.

قالها سليم مقتضبة بلا مشاعر، فأجابه مرعي محاولًا استرداد جزء من قوته:

- وأنت خليك لين، أحسن العود الناشف مفيش أسهل من كسره.

لم يعطه سليم أهمية، استمرَّ في القيادة حتى حلَّ المغيب، كانوا على وشك دخول الخانكة، ولكنهم فضَّلوا المبيت في العراء ثانية، على أن يدخلوا المدينة ليلًا.

جلسوا حول النار، يلوكون كرات اللبن الجميد بالخبز. طالهم التعب، وغمرهم الغبار من كل جانب، دخل ملابسهم، واختلط بمسامِّ جلدهم، تقشَّرت شفاههم مع قلة المياه، وقد أوشكت قِربهم على النفاد، بعد قليل قام مرعي مبتعدًا وسار وحيدًا في الخلاء، ظل فوزان ينظر لسليم، فوجده يُخرج صورة، وارتسمت على وجهه ملامح الكآبة والحزن، حاول أن يتلصص ليرى ما بالصورة، فإذا بها صورة فوتوغرافية لامرأة. لم يكن فوزان الطحاوي قد رأى صورة فوتوغرافية من قبل. لم يكن يعلم ماهية آلات التصوير، ظنها (تصويرة) مرسومة بالريشة. ظل ينظر للمرأة الظاهرة بالأبيض والأسود فوق قصاصة الورق الصغيرة، كانت جميلة، ربما أجمل امرأة رآها في حياته، بيضاء الوجه، عيناها لامعتان، تضحكان، شعرها ناعم مرفوع لأعلى بتسريحة جيبسون جيرل، وتلبس فستانًا رقيقًا بياقة مرتفعة من الدانتيل.

انتبه الأفندي، والتفت له، فتصنَّع الولد النظر للأرض، ثم رفع عينيه وسأله محرجًا:

- حُرمتك؟

ابتسم الرجل، وهز رأسه أن نعم، فقال فوزان:

- مزيونة، كيف إهلال اتناشر ليلة.

أعجب الأفندي الوصف، وعاد ينظر للصورة مرة أخرى، ثم أعادها لجيبه في أسى وقال:

- مُنى الواحد اللي خايف ميكملش.

كم بدا تعيسًا في تلك الليلة، كم بدا كئيبًا في هذا الليل المعتم، والنار تطقطق أمامه.

ربت على رأس الولد بحنان أبوي، ثم قام وهو يبتسم بهدوء.

* * * *

جلس والبرد يخترق ظهره يفكر في أمه، كم يفتقدها، فرسته تمد رأسها باتجاه النار لتتدفأ، أخذ يعبث بخصلات معرَفتها، وهو يتأملها، وعاودته الغُصَّة ذاتها عندما تذكّر أنه سيفارقها بعد أيام قليلة، وربما ساعات، وهي غُصة كانت ترافقه كلما بيعت فرس من مربط عمه.

ظهر مرعي أمامه من جديد، فاضطرب وتصنَّع الجدية، وضمَّ ركبتيه لصدره، فابتسم الرجل، وجلس بجواره، وقال:

- أمال إيه حكاية الطبنجة الإنجليزي اللي معاك دي؟

- فرد أبوي..

- عرفنا يا سيدي إنه فرد أبوك رضي الله عنه وأرضاه! إيه بقى حكايتها؟ الفرد دا مُعتبر، ميشيلوش العربان.

- عطاها إله الجنرال ألنبي.

بُهت مرعي:

- الجنرال ألنبي(23) بتاع الجماعة الإنجليز؟!!

- بوي حارب معهم الترك في السويس، وشال القومندان بتاعهم على ظهره لما مات، وعدى بيه البحر ورجع برمته، شافه الجنرال ألنبي فرح بيه، وعطاه الفرد وبندقية مكسية كلاهيتها فضة.

هرش مرعي في رأسه:

- يعني الفرد الروفلفر دا فرد ألنبي بجلالة قدره؟ يا سيدي يا متولي!

ساد الصمت بينهما، وجلس مرعي يدخن، فسأله فوزان بعد لحظة:

- كيف بتشْبه مصر؟

ابتسم مرعي دون أن يلتفت له:

- بلد زي كل بلد، بس مدندشة حبتين.

- كبيرة؟

- كبيرة. فيها من كل المِلل، بكرة تشوفها.

صمت فوزان ونظر للقمر اللامع في السماء التي بلا غيوم وقال:

- رأيت القمر حدانا كيف مزيون! مصر فيها قمر زييه؟

تعجّب مرعي وقال وهو ينظر للقمر لأعلى:

- ما هو نفس القمر!

ابتسم فوزان بسخرية من جهل مرعي، كيف يكون قمرًا واحدًا ويضيء بلدين؟! لا شك أن مصر بلد بلا قمر، ألهذا من يعيشون فيها حزانى، مثل الأفندي الغريب؟!

- هي «شمعة» رايحة السبق؟

- «شمعة» مين؟

- المُهرة.

ضحك مرعي بصوت مرتفع، ونظر للفرس التي كانت تلوك العليق الذي أمامها، وأومأ برأسه أن نعم.

- كيف السبق في مصر؟

شرد مرعي لحظة، ثم سحب نفسًا عميقًا من سيجارته، ونفثه في الهواء بتنهيدة حارة، وقال:

- دنيا.. دنيا كبيرة، بتبرق من برة زي البلور، بس من جوة عفشة زي (24)المواحيل.

وابتسم:

- عاملة زي المرا الماشية اللي عتقت، متكحلة ومتلونة بالأحمر والأخضر، بس على مين؟

التفت له كأنه يعطيه حكمة:

- خيل بتجري، ونفوس جعانة.

شعر فوزان بالانقباض مما قاله مرعي، لكنه صمت.

* * * *

(22)الشيخ سعود الطحاوي، المعروف باسم الحاوي الطحاوي، من عرب الطحاوية ومؤسس جزيرة سعود، كان صديقًا لفرديناند دليسبس، باعتباره مسؤولًا عن تأمين المؤن للعاملين في حفر قناة السويس، وفي حروب الاحتلال الإنجليزي خان أحمد عرابي باشا، وحالف الإنجليز.

(23)الفيلد مارشال إدموند ألنبي، ضابط وإداري بريطاني، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى حيث قاد قوة التجريدة المصرية في الاستيلاء على فلسطين و سوريا عامي ١٩١٧ و١٩١٨.

(24)المجاري

السيدة الإنجليزية

(I)

بردت الشمس فوق الرؤوس ومالت نحو المغيب في تمام الساعة الخامسة، وبدأ عدد من الأجانب وقليل من الأفندية من أبناء البلد في التجمع بأزيائهم المميزة والمظلات في الحديقة العامة بميدان الملكة إليزابيث بهليوبوليس، على يسار كنيسة البازيليك. استعدادًا لاستراحة الشاي.

كانت فرقة موسيقى عسكرية بريطانية قد وصلت للتو، وبدأت في أخذ أماكنها داخل أحد أكشاك الموسيقى المزخرفة والمبنية على الطراز الإغريقي، عندما وصلت تلك السيدة الإنجليزية وحيدةً

إلى المكان، وتخطَّت المقاعد المتراصَّة بانتظام، واختارت أحد المقاعد المواجهة للكشك، وجلست هناك منعزلةً بثوب حدادها الأسود، تتأمل بابتسامة باهتة وعينين رائقتين الجنود وهم يستعدون.

كانوا يرتدون ملابس رسمية، حمراء قانية، وتنورة الكِلت التقليدية المعروفة لأفواج المشاة الإسكتلندية تظهر من تحتها سيقانهم الحمراء النحيلة، وفوق رؤوسهم قبعات الريش الأسطوانية الضخمة الخاصة للحرس الملكي البريطاني، وبأيديهم آلاتهم الموسيقية من مزامير القِرَب وآلات النفخ والطبول العسكرية.

يعرف الجميع من سكان هليوبوليس أن موسيقى الجيش المصري تعزف المارشات العسكرية وبعض المقطوعات الكلاسيكية في أيام الجمعة بعد الظهر في هذا الكشك، فيما يخصص يوم الأحد من كل أسبوع لتعزف فرق الجيش البريطاني مقطوعاتها وقت استراحة الشاي.

ظلت السيدة تراقب الجنود، معتزلةً الجلبة التي حولها، من أشخاص يصبون الشاي، وأطفال يلعبون، وسيدات يتهامسن ويتجاذبن أطراف الحديث، حتى قام قائدهم بالدقِّ بعصاه الرفيعة مُنَبِّهًا ثم تنحنح، ووقف أمامهم وكأنه في ساحة معركة، ورفع ذقنه عاليًا، وصاح بطريقة عسكرية، وكأنه على وشك إعطائهم أمرًا لإطلاق النار:

- Ready!

صمت الجمهور في الحديقة، ثم بدأ العزف، بالطبول كمارْش، ثم انطلقت الموسيقى من القِرَب والمزامير معًا كجوقة بمقطوعة مبهجة، وارتفع صوت العزف عاليًا، وتحلَّق عدد كبير من الناس أجانب ومصريين ليشاهدوا العرض، بينما جلست هي وعلى طرف شفتيها ابتسامة هادئة، ثم أغلقت عينيها، وتركت خيالها، فشعرت وكأنها في أرض بعيدة، وكأن وجهها يلامس هواء باردًا غير ذلك الهواء، وتشم روائح غير هذه الروائح.

عندما انتهت الفرقة من عزف مقطوعتها، انطلقت التصفيقات بقوة من الحاضرين، ففتحت عينيها ببطء وكأنها

تستيقظ من حلم عميق، ثم قامت من مكانها وعلى شفتيها ابتسامة هادئة، وخرجت بهدوء نحو البوابة، حيث كان ينتظرها خادمها النوبي ببذلة من الصوف وطربوش فوق رأسه، فتح لها باب الأتوموبيل؛ أتوموبيل ماركة فرانكلين ضخم، أزرق اللون. فجلست في المقعد الخلفي، بينما أخذ هو مقعده أمام عجلة القيادة.

تناولت السيدة التي قاربت الأربعين من العمر حقيبتها، ثم أخرجت منها صورة فوتوغرافية في إطار بيضاوي لطفل صغير لم يتجاوز الرابعة عشرة من العمر بالأبيض والأسود، وأخذت تتأملها بهدوء، قبل أن ترفع ناظرها للخادم الذي كان يقود الأتوموبيل في الشوارع الهادئة وتقول بالإنجليزية:

- لقد كان ديفيز يحب هذه العروض في يوركشاير، كان يحب موسيقى القِرب، ويعجب بالتنورات التي يرتديها الجنود! كانوا يعزفونها في الأعياد، وكنا ننتظرهم في الشارع لنسمعها معًا، خاصة في أيام الحرب.

ابتسم السائق ولم يُجِب، كانت المرة المائة التي تحكي له فيها تلك الحكاية، يصحبها كل يوم أحد من كل أسبوع وقت الظهيرة إلى الكنيسة؛ حيث تقضي نصف يومها هناك، ثم في ذلك الموعد يأخذها من هناك إلى الحديقة العامة؛ لتستمع لموسيقى القِرب تلك، ثم تعود إلى السرايا وهي تقصُّ عليه تلك الحكاية.

وكانت هي تشعر بالضيق من نفسها؛ لأنها تضطر أن

تُثقل عليه بهذه القصة، في كل مرة، وهي تعرف أنه مُجبَر على سماعها، ولكنها ما كانت تملك البديل، وفي كل مرة تدفعها الرغبة في الحكي إلى التكلم بنفس الكلام لتشعر فقط ببعض الراحة حتى الأسبوع التالي.

ابتسمت في خجل ثم استطردت:

- أنا آسفة لأني أتعبك كل أحد بهذه الزيارة!

قال بأدب جم:

- لا عليك يا هانم.

هذه المرة وجد ما يقوله عندما اقتربا من السرايا في شارع مينيس:

- لقد أحضروا الفرَس!

كانت تتأمل الصورة الفوتوغرافية عندما قالها، فرفعت عينيها له مستفهمةً:

- أي فرس؟

- فرس السباق.

- آه!

قالتها وقد رأت مرعي المصري واقفًا أمام باب السرايا، وفي يده لجام فرس بيضاء تتلألأ في الوجود مثل جوهرة، أبهرها مشهدها، ولمعانها الشديد، وقامتها المتناسقة البديعة، وعندما توقف الأتوموبيل أطل مرعي المصري من النافذة، وقال بإنجليزية كالمصيبة:

- هلو مسز ميتسي، مرعي إذ هير، ذا هورس إذ هير تو!

نزل السائق من الأتوموبيل، ودارَ ليفتح لها الباب، فنزلت وتقدمت من الفرس، ومرعي يحييها بيده من بعيد كخادم مطيع، متراجعًا للوراء ليُفسح لها الطريق، تقدمت من الفرس ثم مدَّت يدها وأخذت تمسد شعرها بهدوء، قبل أن تلتفت له:

- متى يبدأ الموسم هذا العام يا مرعي أفندي؟

كانت تقصد موسم السباق.

يقام السباق في مواسم، الموسم الأول في القاهرة، والثاني في الإسكندرية، والثالث في الخرطوم.

أجابها بالإنجليزية التي تعلمها أثناء الحرب من العساكر الإنجليز، ومن قبل أثناء عمله كقباني في ميناء البصل:

- بعد أيام يا هانم.

أومأت برأسها بالإيجاب، ثم نظرت للفرس، وقالت له:

- إنها جميلة.

ابتسم فيما بدت عليها الكآبة، عرفها منذ شهر واحد بتلك الخلقة الكئيبة الحزينة، لم تكن تستطيع أن تتحدث كلمتين إلا بهذا الشكل. ملامحها شاحبة على الدوام، وشعرها أشقر قصير ومُموَّج، وأسفل عينيها داكن من أثر السهر، نحيلة، وكتفاها مستديران للأمام بعض الشيء، ونظراتها مترددة خائفة كقط، ولا ترتدي إلا الأسود!

- ما هو حسابك الآن يا مستر مرعي؟

- خيرك سابق يا ست هانم، الأمر بسيط، وصلني ٦٠٠ جنيه ثمن الفرس، ولي الآن ١٠٠ قرش أجرة نقلها بالسكة الحديد، و٥٠ قرش عوايد سنوية للمجلس البلدي، و١٠٠ قرش للعليق ومصاريفها، وجنيهان للسائس الذي اصطحبها من الشرقية.

صمت لوهلة كأنما يتأكد من أنها شربت كذبته:

- هذا بخلاف أتعابي.

ابتسمت ابتسامة هادئة وقد علمت أنه يكذب عليها، ثم نظرت للأرض والتفتت بهدوء لخادمها، وأخبرته بأن يعطيه ما يحتاجه، ابتسم في خبث، لقد خدعها، لم تُنقل الفرس بالسكة الحديد، ولم تحتَجْ إلى سائس، لم يأخذوا منه أجرة

مرور، ولم يدفع ريالًا واحدًا للعليق، ولكنه أخذ كل ذلك فوق القومسيون الخاص به.

هكذا يكسب مرعي المصري من وراء الخواجات دائمًا، معتمدًا على قاعدة تقول إن «العايز أهبل»، وهو يستغل هذا الهبل، ويبرر ذلك لنفسه بأن تلك الطبقة التي يتعامل معها لن يتأثروا بالقرشين الخردة اللذين يلطشهما منهم، «العيش عاوز الحركة»، وهو يتحرك.

أخذ يتأملها وهي تصعد سُلم السرايا، كانت ضئيلة الجسد، ضعيفة الجثة، وكأن على كاهلها مائة عام، مطأطئة الرأس، لم يفِقْ إلا على الخادم النوبي وهو يهزه:

- حسابك كام؟

- على مهلك يا زول، متبقاش زلنطحي.. هنتحاسب.

* * * *

(٢)

تبع فوزانُ سليم صاعدًا سلم منزله، سلم بدرابزين من الحديد المشغول، مرتفع، بلاطاته باردة، شعر ببرودته بقدميه الحافيتين المغبرَّتين، لم يصعد سلمًا بهذا الارتفاع من قبل، كان مترددًا، ولكن الأفندي كان يحثه بالالتفات له على الصعود، وصلا إلى الباب، ففتحه الرجل..

- ادخل.

وجد البيت مظلمًا، قابضًا، حزينًا، شعر بالرهبة عندما دخله، خاويًا ليس بردهته أي أثاث، إلا مقعد خشبي وحيد في أحد الأركان.

تقدم بقدميه الحافيتين يضم بقجته على البلاط، أشار سليم لأحد الأركان:

- استناني هنا.

جلس القرفصاء في الزاوية التي أشار إليها في الصالة، وضم بقجته، ليشعر ببعض الأمان، ورأى سليم يختفي في إحدى الغرف، لكنه ترك الباب مواربًا، فاستطاع بفضول أن ينظر إلى الداخل.

كانت الغرفة مضاءة بلمبة جاز خافتة، كئيبة، رأى سريرًا

معدنيًا فوقه ألحفة وأغطية، تحتها جسد نحيل لامرأة نائمة في وضع بين الجلوس والرقود، شاحبة، عرف أنها امرأة من الشعر الكستنائي الطويل المنثور حولها على الوسادة والملتصق بجبينها من أثر التعرُّق، فاغرةً فاهها كميِّتَة، مغمضة العينين، كأنها في عالم آخر، بجوارها كومود تراصَّت عليه زجاجات الدواء.

رأى ذلك بنظرة خاطفة، وسمع صوتًا خافتًا لامرأة أخرى في الغرفة، لكنه لم يستطع أن يراها. ثم رأى الأفندي يغلق الباب وراءه.

كان يشعر بالرهبة منذ حلَّ في تلك المدينة، رأى القاهرة لأول مرة هذا النهار، وجدها مرعبة ومهيبة، أصوات عالية، زحام، بشر يتحركون بسرعة، مبانٍ مرتفعة، متراصَّة بانتظام، تماثيل برونزية في الميادين، خلق مختلفة، وأزياء متباينة، بعضهم يلبس الجلاليب، وآخرون البذلات. طرابيش وبرانيط وعِمم، جنود إنجليز، عساكر بوليس، عربات تراموای تسير بالكهرباء، عربات سوارس تجرها البغال على القضبان، نسوة في البراقع، وأجنبيات بجونلات متبرجات صدورهن مكشوفة! كان يظن أن أتوموبيل الأفندي هو الوحيد في تلك الدنيا، لكنه في ذلك اليوم عرف أن هناك أتوموبيلات كثيرة، أتوموبيلات أزهى وأجمل وأكبر وأكثر لمعانًا، هناك أتوموبيلات حمراء، وخضراء، وزرقاء.. العشرات منها! كان كل شيء يخبره بأنه أصبح في بقعة أخرى من الأرض، بقعة لم ولن يرى مثلها ثانية!

فُتح الباب، وخرجت امرأة عجوز، رمقته بنظرة غاضبة، ثم

اختفت في إحدى الغرف الأخرى، شعر بالتوتر، ولكن ظهور الأفندي خلفها طمأنه بعض الشيء.

أخذه لغرفة خاوية ليس فيها إلا مرتبة وقُلة ماء، ضغط سليم على زر الإضاءة مرتين في الغرفة، فلم يضئ، وقال مبتسمًا بمرارة:

- كان فيه كهرباء، بس الكوبانية قطعت الليترك عنا علشان مش بندفع الاشتراك.. في لمبة هتنور لك كويس..

أشار إلى لمبة جاز معلقة.

- نبوية هتجيب لك اللي أنت عاوزه لو احتجت حاجة.

أومأ فوزان برأسه، فابتسم الأفندي، وأشعل سيجارة.

- أنت اسمك إيه؟

- فوزان.

جلس الأفندي على الأرض، وأسند ظهره للجدار، فجلس فوزان فوق المرتبة، وأخذ ينظر له.

- خايف يا فوزان؟

- لا ما بخاف.

قالها فوزان فورًا وكأنه يؤكد شجاعته، فابتسم الأفندي، وقال:

- متخافش، مفيش هنا غير نبوية و.. عايدة.

ثم ابتسم وأخرج الصورة الفوتوغرافية من جيبه، ومدَّها لفوزان، فرأى فيها المرأة التي رآها من قبل، وسليم يقول عبارته التي وصفها بها من قبل:

- دي عايدة.. المزيونة كيف إهلال اتناشر ليلة!

قالها بنبرة أسى بالغة، رغم أنه كان يبتسم، ولكن الولد بذكاء فطري لمح بعض الدموع في عينيه.

ساد الصمت بينهما، فتركه سليم وغادر الغرفة، فجلس فوزان وضم ركبتيه لصدره، وجلس ساكنًا وهو يفكر في المرأة المريضة، وكيف تحوَّلت من ذلك الجمال الأخاذ الذي رآه في الصورة إلى تلك الحالة المزرية التي رآها عليها اليوم.

كان سليم أفندي في تلك اللحظة في الحمام المظلم إلا من شمعة موقدة، يستحمُّ بعد الرحلة الطويلة الشاقة؛ يجلس القرفصاء عاريًا، في طشت نحاس، وبجواره بستلة الماء الساخن يتصاعد منها البخار.. وحيدًا، ولأول مرة منذ أيام ليس معه أحد.

بعد وهلة شرود استفاق ثم تنهد وأخذ الكوز، ملأه بالماء وصبَّ منه على جسده بوهن، فلمس الماء كتفيه، وانساب على ظهره وصدره ثم بطنه، لكن ظل الكوز معلقًا في الهواء، لم ينزل، تجمَّد، وتجمَّد جسد سليم كتمثال من الشمع، وهو ينظر للأرض، ثم فرَّت دمعة من عينه، فوضع الكوز فوق البلاط، وأنفاسه تتهدج، وأمسك بكلتا يديه حافة الطشت الذي يجلس بداخله، وهو لا يستطيع أن يسيطر على أنفاسه، ثم انفجر مرة واحدة في البكاء!

* * * *

(٣)

قبل أذان المغرب كان مرعي المصري يعبر بخطوات واثقة شارع الموسكي باتجاه حي الحسين، ولكن قبل أن يبلغه اتجه يسارًا إلى شارع مكسر الخشب، ومنه دخل إلى حارة اليهود، وأخذ يسير في أزقَّته وممراته الضيقة التي لا يتجاوز عرضها المتر الواحد، وكأنه في متاهة يحفظها عن ظهر قلب، حتى دخل إلى زقاق ضيق من بوابة منخفضة اضطر أن يحني قامته كي يدخلها.

بجوار البوابة رأى امرأة راقدة فوق سرير من الخشب، عجوز في حالة احتضار، وجهها مجعَّد بعينين محفورتين،

وفوقها بطانية قذرة ازداد سمكها بفعل الزيوت والقاذورات، وبجوارها فتاة تبدو حفيدتها تتلقى الإحسان..

رفض برجس الطحاوي أن يأخذ ثمن الفرس الذي استلمه من المرأة الخواجاية أوراق بنكنوت، خاف منها، ولكن مرعي المصري كان لديه الحل، فصحيح أن العملة الذهبية شحيحة في السوق من بعد الحرب، بعد أن منعتها الدولة، ولكن الصيارفة اليهود لديهم الحل، عندما اشتعلت الحرب طافوا الأسواق واشتروا الجنيهات الذهبية من أيدي الناس والتجار، وكانوا يدفعون على كل جنيه ٤ و٥ ملليمات زائدة على ثمنه، ولما شحَّ الجنيه وأصبح (أندر من الكبريت الأحمر) وكره الناس البنكنوت باعوا هذا الذهب بأغلى من سعره! صحيح أنه سيشتريه منهم الآن بأعلى من تسعيرة

الكّمبيو(25) ولكن (آدي الأرض وآدي السماء!).

كان غائبًا في أفكاره، وهو يأخذ الطريق من حارة اليهود إلى عطفة المقاصيص بخطوات هادئة يدخِّن، ولكن بالقرب من الجامع رآهم يسدون عليه الطريق؛ الجناخنجي ومعه عدد من الرجال بالشوم والعصيّ، وسمع النداء:

- حمد الله على السلامة!

للوهلة الأولى عرف ماذا يريدون، ولكنه قال:

- خير يا جناخنجي!

صاح الجناخنجي في غضب:

- هييجي منين الخير يا مرعي، الكديش راح وعتريس مرمي في الإسبتالية.

نظر مرعي للخمسة رجال الواقفين وراء الجناخنجي وعرفهم؛ أغلبهم عربجية وفتوات من السيدة عائشة.

- ألف رحمة ونور يا أخويا، وأنت عاوز إيه بقى بالجرمأ اللي أنت جايبهولي دا؟!

- عاوز حقي.

- حق إيه؟ هو أنا اللي دخّلت التوموبيلات البلد، روح خد

حقك من المحافظة، متاخدش الطايع مع العاصي.

- حق الفرس يا مرعي، أنت اللي قعدت تشممه المنزول بتاعك لحد ما راح.

- أنت عارف الجرام من المنزول دا بكام؟ دا بنص جنيه، يعني أنت اللي محقوق لي، بس هعمل إيه في ديمقراطيتي، علشان الإنسانية بس عفيت عنك..

ضرب الجناخنجي الشومة في الأرض في غضب وهو يزوم، وهو ما اعتبره رجاله بداية المعركة، فتقدم منهم رجل أسود ضخم الجثة يبلغ وزنه فوق المائة وعشرين كيلوجرامًا، يلبس جلبابًا مُمزقًا، ويمسك بيده عصا ضخمة، فقال مرعي مستنكرًا:

- أنت جايب لي واد بربري يهوّشني!

قال الجناخنجي في غضب:

- دا مقامك؛ عبد أسود يأدبك..

- طيب خد مشاديدك وابن الجارية دا من هنا وارجع لعيالك أحسن لك، بدل ما أخلي ليلتك زيت.

ولكن كلمات التهديد لم تكن تؤثر في الجناخنجي ورجاله الذين عزموا على أخذ حقهم منه، فاندفعوا باتجاهه معًا، ولم يجد مرعي بُدًّا في تلك اللحظة من أن يُخرج مطواة من

ظهره، ويفتحها في وجوههم، ولكنه لم يكد يفعل حتى هوت على يده الشومة فأطاحت بها، وتكاثر عليه العربجية الخمسة، فأوسعوه ضربًا بالعصيّ والركلات، وظل متكومًا على الأرض يسعل، ولا يستطيع أن يحرك جزءًا من أجزاء جسده وسط التراب، فتقدم الجناخنجي ووضع قدمه بالبُلغة على صدر مرعي وهو يقول بتشفٍّ:

- كلب زيك عاوز يتقنصل عليا أنا؟!

ثم مال ليفتش جيوبه، فحاول مرعي إبعاد يده عن مال المرأة الخواجاية صاحبة الفرس، ولكن الجناخنجي أبعد يده بعنف، ثم أخرج رزمة أوراق بنكنوت، وعندما رآها صفّر في انبهار، ثم اعتدل وأخذ يعدها فوق مرعي المصروع، ثم تركوه ورحلوا!

ظل مطروحًا فوق الأرض، يسعل بقوة، والدم يسيل من فمه وأنفه، ثم رفع رأسه، فوجد الفتاة الجالسة بجوار جدتها تطلب الإحسان تنظر له في بَلادة!

* * * *

جلس نغازي صاحب خمارة كوستيه يستمع بملل إلى مرعي المصري، وهو أمامه يصب من زجاجة السكولانس ويشرب:

- بس على مين يا نغازي، دا أنا هقعد لهم زي عزرائين، وراح أخلي أتخن شنب فيهم فطيرة، والفلوس دي رايحة

ترجع..

كانت المرة العاشرة التي يعيد فيها حكاية قصته وتهديده للجناخنجي ورجاله، فنظر نغازي إلى زجاجة الخمر التي أمام زبونه، ووجدها شبه فارغة..

إنه نوع رديء من الخمور يسمونه «سفنجة»، عندما تسقط قطرات من الخمور على الرخامة والبارمان يصب للزبائن، يمسحها بالسفنجة ويعصرها في إناء، ويكوّن في النهاية خليطًا من النبيذ والويسكي والعرق والكونياك، فيعبئونه في زجاجات، فيصبح خمرًا من أقوى الخمور، كفيل بإذهاب رأس بغل، ومرعي المصري شرب زجاجتين من هذا السكولانس، ولم يصمت بعدُ..

- اللي ينزل البحر يستحمل مُوجُه يا نغازي..

فتح نغازي ساعته ذات الكاتينة، وألقى نظرة عليها وهو يمطُّ شفتيه بضجر..

الخمارة شبه فارغة، لم يعد فيها أحد، ومرعي المصري يشرب شُكُك ولا يدفع، على الأقل لن يدفع الليلة بعد ما حدث، وقد طفح وحده زجاجتي خمر، بالإضافة إلى المَزّة.

- بيطوّقوا مرعي المصري.. محدش قالهم يسألوا عنه قبل ما يعملوها..

- لا خبيبي محدس..

شرب كأسه كلها جرعة واحدة، وتلاها بكأس أخرى، ثم قال بنبرة باكية، وكأن الخمر كانت قد بدأت تلعب برأسه:

- كده يا نغازي.. يعملوا فيا أنا كده؟!

مطَّ نغازي شفتيه، ثم ربت على كتفه:

- طيب معلس، أنت قوم روّخ خبيبي ارتاح، وبكرة صبح إرجع تاخد خقك.. وتعالى الخمارة بتاع إحنا وقول لنا عملت إيه..

تأمله مرعي متشككًا، ثم قال موافقًا:

- يصح..

خرج من بوابة الخمارة يتطوح، وزجاجة السكولانس الرخيصة في يده، لم يبقَ فيها غير الثمالة، وسار في الطريق المظلم الذي لا تضيئه سوى مصابيح غاز الاستصباح الخافتة وهو يغني بنشاز:

حلاوتِـك أنـتِ يا خفة يا مـحلا قوامك في اللفة

كان يسير متتبعًا ظله فوق الأرض، عندما فوجئ بتلك القدم التي تقف أمامه، وعرف صاحبتها من الصندل الذي ترتديه وشكل أصابعها المُنمق، رفع عينيه فإذا هي فتاة سمراء جميلة تكشف البرقع عن وجهها، وتلفُّ جسدها بملاءة من قماش الكريشة، فور أن رآها انقبض قلبه، وفتح

عينيه في ذهول، وظل مُبحلقًا فيها، في صمت.

سمعها تقول بصوت مبحوح مُغْرٍ:

- نسيتني يا سي مرعي؟!

حاول مرعي أن يتوازن فوق الأرض، وألا يسقط من أثر الخمر في وسط الشارع، وندت عنه كلمة واحدة:

- زينب!

ابتسمت الفتاة ابتسامة مُتسعة، ونظرت له نظرة جريئة بعينيها اللتين تشبهان عيني الغزال، ولم تتكلم، فقال وقلبه ينتفض وصوته يتهدج:

- أنساكِ إزاي يا زينب!

ابتسمت وقالت:

- أمال مبقيتش تزورني ليه؟ فرغ حبي من قلبك؟

طفرت الدموع من عيني مرعي، وارتعش صوته وهو يقول:

- مكسوف من حالي يا بنت الغاليين..

لم تتحدث، ولكنها ظلت تنظر له في عينيه، فقال هو

يختلج:

- أنت وحشتيني قوي يا زينب..

قالها ثم انفجر في البكاء، وكأنه لم يبكِ من قبل، انفجر وترك نفسه لتتناثر الدموع من عينيه، وصدره ينتفض بقوة، ثم حاول أن يمسح دموعه بكمِّه فسقط ما بقي من زجاجة الخمر على ملابسه، ثم إنه أخفى عينيه بكفه، وعندما فتحها، رآها قد تركته، وسارت في طريقها في الشارع الخاوي إلا من بعض قطط الليل، فصاح بها:

- حقك عليا يا زينب، أنا محقوق لك..

ولكنها لم تلتفت له، فحاول أن يسرع الخطوات وراءها، ولم يكد يتم خطوتين حتى شعر أن رأسه يدور، وأنه لا يستطيع أن يقف على قدميه، فلم تحملاه، ولم يشعر إلا ورأسه يرتطم بالأرض المرصوفة بالحجارة، ويشعر بطعم الدم في فمه!

* * * *

---

(25) تسعيرة العملة الرسمية

(٤)

استيقظ فوزان على صوت السعال القوي، كان غارقًا في نوم عميق، ولكن الصوت بدأ ضعيفًا ثم صار أقوى، فتح عينيه، وشعر بقلبه ينقبض، كان الجو باردًا، وكان يتدثر ببطانية من الصوف، قام وجلس على المرتبة، ثم أنصت..

لم يكن يعرف كم الوقت، ابتلع لعابه، ثم قام من مكانه يتلمَّس الفراغ، فتح الباب فصار صوت السعال أقوى، وسمع أصواتًا هامسة خافتة. كانت الصالة مظلمة، ولكن غرفة عايدة كانت مضاءة، ومفتوحة.. الصوت يأتي منها.

تقدم بخطوات مترددة، كان الضوء أصفر شحيحًا.. رآها نائمة والخادمة العجوز تحتضن رأسها، وشفتاها تتحركان، تقرأ لها الصمدية، وكان سليم جالسًا على طرف السرير، ظاهرًا بظهره يمسك إناءً يتصاعد منه البخار يضعه أسفل أنفها وهي تجاهد لتأخذ أنفاسها، كان صدرها يعلو ويهبط بصعوبة، وكأنها تحاول إزاحة صخرة ضخمة فوقه، وجهها شاحب، وفمها مزرقّ وكأنها على وشك الموت، ولمح الخوف في نظرتها الساكنة المستسلمة والدموع المتجمدة في عينيها، رفعت ناظرها عندما رأت شبحه، ونظرت له نظرة مُبهمة، وظلت صامتة تكافح.

تراجع وهو خائف، وأنفاسه متصاعدة، شعر بغُصة في حلقه، وألم يعتصر صدره، جلس في الزاوية، وأخذ يراقبهم من بعيد، بعد قليل رأى سليم يضع الإناء، بعد أن غفت

المرأة، ثم قام متهالكًا، خرج فرآه مكانه، لم يتحدث له، ألقى عليه نظرة حزينة قالت أشياء كثيرة، نظرة قالت: ماذا تفعل هنا؟ قالت: لقد تعبت، قالت: أنا خائف! لم يعرف إن كان قالت نظراته هذا حقًّا أم لا، كان الضوء شحيحًا.

جلس على البلاط وأسند ظهره للجدار، وبقي جامدًا ينظر للامكان. كان كرجل أنهى معركة.. مثقلًا.. متعبًا.

ظل فوزان ينظر له، ثم سأله بصوت خافت كأنه يستنكر ما يقوله:

- هي بتموت؟!

نظر سليم له بطرف عينيه، ثم قال بصوت متحشرج به الكثير من الحزم:

- مفيش حد هنا هيموت.

كانت أغرب عبارة سمعها الولد في حياته، قالها سليم وكأنه يملك القرار في ذلك، بعد وهلة رآه يشعل سيجارة، أضاء عودُ الثقاب لوهلة ملامحَ وجهه، فظهرت جامدةً مثل تمثال من الشمع، وجلس يدخن بصمت، ثم سمع فوزان نشيجه الخافت وهو يدخن، نهنهة صامتة مكتومة.

نظر للأرض مرتعدًا، ثم ضم ركبتيه لصدره، وصمت.

بعد قليل، قام سليم ودخل الغرفة، جلس بجوارها على

مقعد، ومال ووضع رأسه على السرير بجانبها وهو يمسك يدها.

ظل فوزان يتأمله حتى غلبه النوم هو الآخر، فنام في مكانه، وعندما استيقظ كان نور الصباح الأبيض قد بدأ يتسلل عبر الشيش إلى داخل الصالة، فتح عينيه وسمع الأصوات تأتي من الشارع، وجد بطانية فوق كتفيه، لم يعرف مَن وضَعَها عليه أثناء نومه، نظر ناحية الغرفة فوجدها مظلمة، ولم يجد سليم بها!

* * * *

(٥)

كانت البلد كلها تتأهب لبداية الموسم، نشرت الجرائد إعلانات لسكة حديد الحكومة المصرية بمناسبة بدء موسم السباق في هليوبوليس، حيث خصصت قطارًا يقوم من كوبري الليمون الساعة ٨ إفرنجي، ويصل حتى سراي القبة، أقرب المحطات لمضمار السبق، وأعلنت اللوكاندات عن إفراغ أجنحة كاملة؛ من أجل استقبال الوافدين على العاصمة؛ لحضور السباق من أعيان المديريات البعيدة وعُمَد القرى الذين يأتون مع خدمهم؛ ليشاركوا بخيولهم أو خيول مستأجرة، أو يتشاركون ملكيتها مع آخرين.

قبل السباق بيومين قصد سليم حقي العتبة لدكان خواجة أرميني يدعى آشود، مُرابٍ كبير، رجل متخصص في إقراض المال بـ«الفايظ» لمن يَهْوَوْن الرهان على الخيل أو المقامرة في الألدرادو وسبلندد بار، يربح في ساعتين ما لا يربحه أشباهه في عامين.

دكان بقالة أمام محطة الترامواي، يجلس أمامها بكرشه وعينيه الضيقتين، والخاتم الماسي الكبير في بنصره، وعدسة المونوكول المربوطة بسلسلة يستخدمها في قراءة أوراق البوليصات والكمبيالات، وهو جالس داخل دكانه وسط رائحة الزيتون وسمك الباكالاه! أعطاه آشود ثلاثة جنيهات، ثم أخرج سندًا وقلمًا، ووضع إصبعه على الورقة:

- إمضاءك الشريف هنا، مطرح إصبعي.

قرأ سليم الرقم المكتوب بغضب، كتب عليه الخواجة ستة جنيهات مقابل ثلاثة، يكسب الضعف من لحمه الحي!

- دي حاجات متزعلش يا أفندي! دي حقوق مدنية.

- معلوم.

- آخرك ١٥ يوم، يعني ٢٠ منه، بعد كده سانتي هييجي ياخدهم منك.

رفع سليم نظره إلى سانتي ذاك، كان إيطاليًّا ضخم الجثة واقفًا بقامة مديدة مثل الباب وراء آشود، ينظر له بنظرة كالنار، كان تهديدًا مبطنًا.

* * * *

لم ينم سليم حقي في ليلة السبق، ظل مستيقظًا وحده في صالة بيته الخاوية، لم يعرف ما الذي أوصله إلى هنا؟ اتهم الأمل وأمعن في اتهامه، ثم اتهم الإنجليز، ثم اتهم خورشيد؛ صديقه الذي أشار عليه أول الأمر بالمراهنة على الديوك، ثم الخيول فيما بعد.

قال له يومها:

- الحياة يا سليم يا أخويا لعبة، لعبة وبس، وربك حط قوانينها وسابها، وسابنا نخبط ونضبّش، اللي ينوبه حاجة

واللي يخسر حاجة، اللي يعيش، واللي يموت.. حظ.. كل اللي نابك في الدنيا دي كان بالحظ، كل اللي خسرته برده كان بالحظ، وطالما كده كده حظ، طيب ما تلعب على حظك، مش بتشوف العيال بتلعب في الشوارع نطة الإنجليز؟ العب أنت على قوانين الدنيا دي النطة.. يمكن بختك يتعدل.

لقد جرَّب أن يلعب النطة على قوانين الدنيا بالفعل، واكتشف أنه مثل بقية البشر يحتاجون فقط لمن يلفت انتباههم لذلك، اكتشف أنه كالبقية يملك نفسية مقامر، ورغباته، ذلك الشيطان بداخله الذي يحركه، إن الجميع كذلك، من منا لا يهوى المجازفة بكل شيء لاختبار قَدَره؟!

مرعي المصري كان ساهرًا هو الآخر في تلك الليلة في خمارة كوستيه، وحيدًا أمامه كومة من أعقاب السجائر وزجاجات الخمر الفارغة، كان غارقًا في أفكاره.

لقد نجح بطريقة ما في لفت أنظار إدارة كلوب هليوبوليس إلى فرس ميتسي خشاب، قال لهم:

- الفرس مش مشهورة، دي الدارك هورس بتاع اللعبة الموسم دا، مفيش جدع هيرمي عليها بنص فرنك.

وافقوا:

- ماشي، نبِّه على الجوكية في السبق بتاع الخيل الغشيمة ميتقدموش عليها، والجوكية اللي مش تبعنا يتزنق عليهم وميعدوش.. مش مسموح لك تلعب غير بجنيه

يا مرعي..

أومأ ككلب مطيع، وخرج، خدعهم، لم يقل لهم إنه اتفق مع سليم حقي على أن يرمي عليها بأكثر جنيهات لوحده، لم يقل لسليم حقي من الأصل إنه رجل من رجال أعضاء مجلس إدارة النادي. الفوز مضمون في الغد، ولكنه رغم ذلك كان قلِقًا.

لم ينم أي منهما في تلك الليلة.

* * * *

السباق

(1)

«استعدوا ليوم السحب في ١٠ فبراير»

«اشتروا الآن تذاكر يانصيب المواساة ليكون لكم نصيب في هذه الثروة»

جلس فوزان مقرفصًا يتأمل اللافتة الضخمة، التي تحمل إعلانًا لجمعية المواساة الإسلامية فوق شبابيك التذاكر بميدان سباق هليوبوليس، وأخذ يتأمل رسم الكاريكاتير الذي يصوِّر عجلة روليت تدور وتقذف أوراقًا لوترية، وأيادٍ ممدودة تتخطفها. ولكنه لم يستطع أن يقرأ العبارة الفرنسية المكتوبة فوقها.

لم يفق إلا عندما اقترب منه سليم حقي، ووقف أمامه وبيده أوراق التذاكر. الزحام شديد وطوابير من الناس يملأون المكان وراء ملاهي لونا بارك(26)!

رأى أسفل أحد شبابيك التذاكر رجلًا من العربان لا يعرف كيف يقرأ، بعباءة صوفية، يُحلق بعينين غائرتين في قصاصة ورق لا يفهم منها شيئًا، تحمل أسماء الخيول ومواعيد الأشواط.

على الدكك الخشبية الطويلة يجلس أصناف كُثُر من البشر،

خليط من أفندية وفلاحين، وخواجات بقبعات، أخلاط كثيرة من البشرات واللهجات؛ يهود وشراكسة وأرمن، رفع عينيه إلى الأتوموبيلات الفاخرة التي تصل لمدخل المضمار، وأخذ يتأمل النازلين منها؛ بكوات وباشوات وضباط إنجليز في أزياء عسكرية، وبأيديهم نسوة إفرنجيات بفساتين ومعاطف فراء ثمينة وقبعات لافتة مزينة بريش ودانتيل وقفازات حريرية يحملن مظلات.

تبع سليم بعد ذلك إلى البوابة؛ حيث دخل إلى المضمار، ورأى هناك المدرجات المرتفعة الممتلئة عن آخرها، ويراقبون ميدان السباق الرملي، وعددًا من الخيول التي تسير وفوقها الجوكية للتريُّض قبل السباق عن طريق النظارات المكبرة.

- جبت تذاكر؟

استمع إلى الصوت من ورائه، فالتفت فإذا به مرعي المصري يتقدم نحوه، التفت له سليم أفندي، وابتسم، أومأ برأسه، فسأله مرعي وهو يقف بجواره:

- جينياه ولا بلاسيه(27)؟

- ثلاثة جنيه على نمرة ٨، فرس ميتسي خشاب.

أومأ مرعي برأسه بِرِضا، وصمت، وأخذ يتأمل الخيول التي بدأت تدخل المضمار، وفوقها الجوكية، لقد اتفق مع جميع الجوكية على أن يفسحوا الطريق لفرس ميتسي البيضاء، لم

يخبرهم أن الأمر جاء من إدارة مجلس النادي نفسه؛ فهم لا يعرفون مَن يوجِّهُهم، ولكن لغة المال ليس فيها أسئلة، هم من يحسِمُون اللعبة، ليست الخيول ولا سرعتها، لهم في ذلك ألف حيلة وحيلة، تنتهي لتأخير جيادهم، ليتصدر الحصان المراد، بعضهم يُطعِم حصانه قبل السبق مباشرة؛ يخلط له التبن بالعسل حتى يأكل أكثر فيصبح أثقل، بعضهم يتركه يشرب الماء بلا رقيب حتى تمتلئ بطنه فيثقل، بعضهم يتكاسل عن ضرب حصانه بالسوط، فيظهر للناس وهو يضربه بينما هو يضرب كعب حذائه، آخرون يبدأون السباق وهم جلوس بالكامل فوق ظهر الفرس، وليس بوضعية القرفصاء التي يسابق بها الجوكية، فيؤخرون أفراسهم، ولا يظهر ذلك لمالكيها، ومنهم من يجهد جواده بالركض في بداية السباق ويتركه يخسر في النهاية بعد أن تفرغ طاقته، يمكنهم خنق المتصدر في المضمار، وتأخيره، وترك مساحة لتقدم آخر… مائة حيلة وحيلة.

إن عالَم السباق عالَمان، ومرعي المصري يعرف ذلك، عالم لامع براق، يتقدمه البكوات والباشوات والأجانب بزيِّهم الحسن المهندم، يأتون إلى هنا فقط للاستعراض والتعارف، وعالم آخر تالف عطن، يمثله اللصوص والنصابون ومزورو العملة ولاعبو الثلاث ورقات.

إن كل هؤلاء الأغبياء مخدوعون، يرمون أموالهم تحت حوافر الخيل، والفائز محدد مسبقًا. وسليم حقي واحد من المحظوظين بمعرفته ممن سيرمون على اللعبة الصحيحة من المرة الأولى، دون حتى أن يعلم!

- بيقولك السلطان فؤاد -أنعِم وأكرِم- جاي دلوقتي..

قالها مرعي بصوت مرتفع؛ ليتغلب على الجلبة، فابتسم سليم في سخرية، ولم يكد يتم الأخير عبارته حتى ارتفع الضجيج، فالتفوا فإذا بموكب السلطان يدخل المضمار، وارتفع الصياح، ورأى الناس يهللون، ويلوحون بقبعاتهم والمناديل.

كان الموكب يتقدمه طوابير من فرسان السواري بزي التشريفة المزركش، والسيوف التي يلمع نحاسها تحت أشعة الشمس، والطرابيش المرتفعة القانية، بجياد مطهمة ألوانها موحدة، ثم ظهر الأتوموبيل الذي يُقِلُّ السلطان نفسه، وخلفه عدد آخر من الخيل الفخمة التي تتحرك بخطوات مدربة عليها بمهارة.

توقف الموكب أمام الكوشة السلطانية، وانطلق أحد الضباط ليفتح الباب للسلطان، ويقوم بأداء التحية العسكرية، وهو يصيح:

- بادي شاه يشا..

خرج السلطان وانطلق واحد من مستقبِليه، ينحني يُمسك يده، ويلثمها، فترك له أفندينا يده وهو يضم إحدى دفتي معطفه على جسده السمين القصير، وتقدَّم إلى حيث المقصورة، وهو يسلِّم من بعيد بشكل التحية العسكرية؛ ليرد على الهاتفين باسمه، والجماهير التي وقفت في إجلال داخل المدرج.

ثوانٍ وظهر السلطان في اللوج من الأعلى، وقام بتحية الجماهير، وخلفه الخدم والحشم، ثم جلس وفي يده عكازه، وقد ضم دفتي معطفه، ووقف ياورانه على يساره، بينما عدد من الوزراء والقادة العسكريين جلوسٌ بجواره.

وكان الصراخ والصفير يظهر من جانب السياج، وقد تجمَّع عدد كبير من أولاد البلد والأجانب، وتمازجوا، فيما كان عزف الجوقة بالنشيد السلطاني يدق بالآلات والصناجات والطبل.

- حلت البركة..

قالها سليم مبتسمًا في استهتار، وهو يتابع السلطان بعينه.

لقد كان منذ سنوات قليلة واحدًا من حرس الشرف في سرايا عابدين، وكان يراه خارجًا داخلًا، يزفُّه كالعروس فوق حصان ميري مُحترم، وقد كان ولاؤه لهذا الرجل قويًّا لا يمكن زعزعته، ولكن كل ذاك الولاء انهار مع أول رصاصة أطلقها الإنجليز سنة ١٩.

كان صوت ميكرفون داخلي يرتفع:

- سباق الخيل الغشيمة، الوزن ٥٧ ك، تخفيض ١.٥ ك للفرسات.

قال سليم متعجبًا وهو يتأمل الجموع الحاشدة في

المدرجات:

- كل دول جايين علشان الخيل؟

ضحك مرعي وهو ينفث دخان سيجارته:

- وأنت فكرك كل الخلق دول بيسابقوا بالخيل علشان مغرمين بجمال خطوتها؟ دول بيشتروا الخيل ويربوا ويعلفوا علشان يدخّلوهم هنا، لا أزيد ولا أقل. لا عاوزين خيل ولا دياولو، بيركبوا التوموبيلات فينو وفي إيديهم الحريمات اللي زي البنور، ويجيبوا الخيل تدخلهم المطارح اللي من غيرها عمرهم ما هيدخلوها، يتعرفوا بلا قافية على الناس اللطافة دي، ويلاعبوهم ورق ويشربوا معاهم ويسكي، وياكلوا وياهم روزبيفات وفليتات على الطريقة الألفرنكة، ويستذوقوا، والجورنالجية يكتبوا عنهم، وبعدين يطلعوا من وراهم بدوبل اللي دفعوه على الخيل، وفي الأخير يبيعوها.. برتيتة يا ابن سيدي.

- عالم ناقصة عقل!

- متغلطش في حق الأغنيا، أحسن إحنا من غيرهم منساويش، لو مكانش في الدنيا أغنيا مكانش هيبقا في واحد زيي.. هي الدنيا كده زي ما ربك خلقها، عالم لامؤاخذة فوق بعض.. لولا الأغنيا مكانش هيبقى فيه الحرمة اللي هتعطينا لما تلطينا دي.. مين عالم يمكن بكرة تصبح تلاقي نفسك بنكير!

ألقى مرعي عقب السيجارة فوق الأرض، وداسه بقدمه، ثم أشعل واحدة أخرى، عندما تقدم منه واحد من الخدم، وهمس في أذنه بكلمة، فدار نحو المدرجات، ثم التفت لسليم وهو يقول:

- بخاطرك!

راقبه سليم وهو يبتعد، يعبر المضمار إلى حيث المدرجات، واقترب من امرأة ثلاثينية، وأخذ يتبادل معها الحديث.

- أفندي! «شمعة» أهِه. والله أهه.

قالها فوزان، فالتفت له، ثم نظر إلى الفرس البيضاء التي كان يعتليها جوكي بكاسكيت وقميص حريري أحمر براق وسائس يمسك برَسَنِها، ويصفُّها بجوار بقية الخيول على خط واحد من أجل البداية!

* * * *

رنَّ الجرس مرة واحدة، ورُفِعَت الحبال، وانطلقت الخيول انطلاقةً واحدةً بشكل مفاجئ، مما جعل الفرس «شمعة» تضطرب، لولا ضربة السوط التي سارع بها الجوكي لتنتفض وتنطلق إلى الأمام.

وارتفع الصراخ في المدرجات، حتى لم يبقَ واحد من الجمهور جالسًا، بل إن البعض قد هبط من مكانه إلى حافة المضمار ودخله، ليشاهد الخيول التي بدأت في الركض وهم

يصرخون، بينما رفع البعض مناظيرهم المكبرة، ليشاهد ما يجري..

اختلط الحابل بالنابل، يتدافعون، وكان سليم بينهم يحاول مراقبة الفرس؛ كي لا تغيب عن عينيه وهي تخترق الصفوف نحو الأمام بسرعة كبيرة، والجوكي يلهب كفلها بضربات سوطه، حتى لم يتبقَّ بينها وبين الفرس الأولى سوى ياردات فقط. كانت ضربات قلب سليم أفندي مضطربة، وكان يراقب الفرس التي تركض وكأن روحه فوق سرجها، الولد فوزان كانت ملامحه حزينة، كان يكره أن تُضرب فرسه بهذا الشكل.

ابتعدت الفرس، ودارت مع الخيول المضمار البيضاوي، واقتربت مرة أخرى، ولكن بشكل مباغت غير مفهوم توقفت الفرس عن اندفاعها السريع وهي تصهل بغضب. وانزلقت ساقها فوق الأرض، وطار جسد الجوكي بالقصور الذاتي للأمام بغتة، فحاول أن يتمسك برقبتها، فلم يستطع وطاح في الهواء، وسقط، وتدحرج بعض الأمتار فوق الأرض، وسقطت الفرس بجواره، ثم قامت مسرعة، وانطلقت باتجاه معاكس نحو المدرج، وصرخ بعض الجمهور، من المشهد، وانطلقت أصوات التعجُّب والاندهاش والجزع من الأفواه، ثم لم تلبث أن امتزجت بأصوات الصراخ المتحمس المتقد مع وصول الخيل الباقية إلى خط النهاية..

انطلق فوزان، وهو يشعر بالهلع نحو فرسته البيضاء التي بدت مضطربة لا تدري ماذا تفعل، وإلى أين تذهب، حاول أن يمسك بلجامها، وهي بحالة هياج عندما رأته..

وقام الجوكي من مكانه، ملوثًا بخجله، وبالغبار وبقايا الطين والحشائش التي علقت به، ينزف من سحجات وجهه على إثر السقوط العنيف، ثم انتصب، وكان السوط لا يزال في يده، ونظر إلى الفرس الواقفة بعيدًا بضيق..

بينما وقف سليم كالمصعوق، الفائزون يندفعون من حوله نحو المضمار، يصرخون بفرحة عارمة بأصوات متداخلة، يصدمونه بلا انتباه، ولا حساب، وهو واقف وسطهم كخيال المآتة، يصدمه هذا ويدفعه ذاك، بينما عيناه مسلَّطتان بدموع متجمدة نحو الفرس، وبيده تذاكره الخاسرة!

* * * *

شقَّ سليم حقي طريقه بين الجموع، وعلى وجهه ملامح الثورة، حتى رأى مرعي المصري فصرخ فيه:

- أنت قلت الفرس رايحة تفوز!

وألقى التذاكر في وجهه في غضب، قبل أن يمسك ياقتي قميص مرعي بقوة، وهو يجذبه صارخًا بثورة:

- دي اللي هتفوز؟!

صُدِمَ مرعي مما فعله سليم، واتسعت عيناه، وأمسك قبضتيه اللتين تقبضان عليه مثل الكلابة وصاح في عصبية:

- نزِّل إيدك.. لأقطعهالك!

دفعه سليم بقوة للوراء وهو يزمجر، والزبد يتناثر من فمه من أثر الغضب، وعيناه محمرتان من فرط الانفعال، فتراجع مرعي يلهث، وهو يتلمس رقبته التي جُرحت من الجذبة الشديدة، وتأمل سليم الذي كان مثل نمر حبيس، صدره يعلو ويهبط في هياج، وقال له:

- هدي أخلاقك! الحق عندي النوبة.. أنا رايح أعوضك..

واعتدل وأردف، وهو يمسح شفتيه بكمه:

- يحرق دينه البخت المافرو بتاعك..

كان سليم لا يزال واقفًا أمامه بتحفُّز، لا يدري ماذا يفعل، كان ثائرًا، مختنقًا، خائفًا، كانت تتمثل أمامه عايدة على سريرها.

ضاعت الأموال هباءً منثورًا، ضاع كل شقائه الأسابيع الماضية، كان ينظر لمرعي مثل حيوان غاضب، وصدره يعلو ويهبط مع دقات قلبه المتسارعة..

- واش يا واش..

كان مرعي يحاول تهدئته، مخافة أن يهجم عليه من جديد، ولكنه ألقى عليه نظرة أخيرة، وأدار ظهره، واندفع نحو الأتومبيل ليغادر المكان.

* * * *

وجد فوزان نفسه بغتة بين جمع لا يعرفه، رجال كُثُر، أحدهم يساعد الفرس على القيام، والآخر يسحبها، الجمهور قد نزل إلى المضمار، يندفعون، والفرس خائفة من الزحام الذي لم تَعْتَدْه. حاول الدخول وسطهم. لم يستطع، فأخذ يدفعهم لكي يصل إليها.

- خلوا الفرس! خلوها..

كانت خائفة تتحرك بعصبية.

لم يعرف متى وكيف ذهب معها إلى الإسطبلات، مقابل المضمار، باتجاه الصحراء، وضعوها داخل كابينتها المخصصة، ووقف فوزان أمامها، فمدَّت رقبتها مستسلمةً له بعد أن عرفته. تعجَّب السياس داخل الإسطبل من استسلامها له، لم تكد تفعل حتى لمحوا الجوكي يدخل المربط وعلى ملامحه أمارات الشر المستطير، ملابسه ملوثة وجبهته لا تزال تقطر دمًا، وبيده سوط!

عندما التفت له فوزان وجده أمامه مباشرة، بوجهه الغاضب، انتزعه من أمامه وهو يُطلق سبابًا باللغة اليونانية، سقط أرضًا، ورأى الجوكي يرفع السوط ويهوي به على جسد الفرس التي انتفضت بغتة. وركضت إلى أقصى مكان في الكابينة، ولكن هذا لم يوقفه، طاردها إلى الركن الآخر وهوى ثانية على جسدها بالسوط فشقَّ لحمها، فانتفضت

وهربت للجانب الآخر، وكان الفتى يصرخ في جنون، فسمع صراخه كل من في المربط، وتركوا ما في أيديهم وهرعوا ليشاهدوا ما يجري، لم يجسر أحد على إيقاف الرجل إلا فوزان الذي فتح باب الكابينة وصرخ وهو يرتمي على جسده.

اختلَّ توازن الجوكي، ولكنه اعتدل وانهال على فوزان بالسوط هو الآخر، فصار يضرب الاثنين؛ الفرس وصاحبها بثورة وهو يصرخ:

- يا أبناء الزنا يا ملاعين!

وصل مرعي ووقف متسمرًا بهدوء يدخن السيجارة، وقد وضع يديه في جيب سرواله، يتابع المشهد بعينين ميتتين، وصوت السوط يشق الهواء ويهوي فوق الأجساد يلهبها!

بعد دقيقة نفدت طاقة الجوكي، وأخذ يلهث والسوط ما زال يرتعش في يده، وقد تهدَّلت خصلات شعره الأشقر على جبينه، فوقف يرمق ضحيتيه بعينين زائغتين، بينما الصبي يمسك بساق الفرس المنكمشة في طرف الكابينة والدم ينزف من كفلها، وأجزاء من رقبتها، وهو يتلوى ويصرخ كالمفجوع، وقد فُتِحَت بعض الجروح في ظهره وساقيه وذراعيه.

ألقى مرعي عقب السيجارة وداس عليه بحذائه وهو يرى الجوكي يعبر أمامه، خارجًا مثل العاصفة، فناداه:

- يا خواجة!

التفت له الجوكي متسائلًا، لكنه ما كاد يفعل حتى فوجئ بذلك الجبل يهوي على فكه، كانت لكمة عنيفة سددها له مرعي المصري زلزلت كيانه، فطرحته أرضًا!

لم يتحمَّل ضربة أخرى، كان ضئيل الجسد، قصيرًا خفيفًا؛ يشترطون ألا يزيد وزن الجوكي على ٦٠ كيلوجرامًا؛ كي لا يعطل جري الفرس، ولهذا كان مثل الدمية في يد مرعي المصري الذي جرَّه من قفاه حتى خرج به إلى وسط الإسطبل ثم رماه.

تربَّى مرعي المصري في الشوارع، ولهذا فقد اعتاد الشجار، وقد علَّمته أيام الحرب المزيد؛ منذ ثلاثة أعوام كان مع فيالق العمال يحارب مع الإنجليز في خنادق المعارك في فلسطين وسوريا والعراق، عاد وقد أصبح أكثر قبحًا وأكثر عنفًا، بعد أن رأى الموت مئات المرات. وأصبح الدم بالنسبة له (زي السبارتو الأحمر) كما كان يقول.

طرح الفتى أرضًا، وأخذ يكيل له اللكمات، واحدة تلو الأخرى، وقد استسلم الفتى اليوناني للكماته الثقيلة، لكن مرعي توقَّف بغتة عندما لمح ذلك الأتوموبيل الأزرق يدخل من باب الإسطبل ويتجه نحوهم، فخفف من حمله عامدًا، حتى استطاع الفتى أن يحمله، ويطرحه أرضًا، فمثَّل الاستلقاء على ظهره، فركب الجوكي فوق صدره وكال له لكمة، ثم أخرى، في تلك اللحظة التي توقف الأتوموبيل فوق رؤوسهم مثيرًا عاصفة من الغبار، وكان مرعي مطروحًا

على ظهره، عندما سمع الصوت الملهوف بالإنجليزية:

- Oh my lord, what is this ?

رماه مرعي من فوقه بسهولة عندما تأكد من أن ميتسي خشاب قد رأته يُضرب هو الآخر، فقام وهي تقول ملتاعة:

- What’s going on, Mr. Merhi?

صاح كممثل بارع بثورة مظلوم:

- هي المسألة عافية؟ هو اللي يدافع عن المظلوم يتهان ويتبهدل؟ ابن الكلب الجريجي دا يعمل كده مع الفرس؟! هو اللي يسيبوله السرع على آخره يدوس الناس ويعمل فلوطة؟ دا عدم الفرس العافية؟ بيضربها ولا كأنها عبد حبشي؟ ولما أقلّه بس يا خواجة عيب يا خواجة.. يعمل فيا كده؟

كانت جاحظة العينين، وقد وضعت كفَّها على فمها في جزع، فاستطرد بنفس الأداء:

- الخيل ما تتعاملش كده يا ست، دي أصيلة؟ هي خيل سُلطة ولا مسكوفي(28)! أنا لولا عارف إنه من محاسيبك وحياة دقن النبي كنت سيّحت دمه وسقيت منه الأصايل.. الفرس بتاعتك دي.. بتاعة الست «ميتسي خشاب» بنت الحسب والنسب.. تنضرب كده؟ إيه مفيش رحمة؟ مفيش خِشا؟!

رمقت الجوكي بوجه مكفهر، وقالت ويداها ترتعشان من الغضب:

- ستافروس، هل جننت؟! ماذا تفعل؟

التفت مرعي وكأنه يترنح، ثم أشار إلى فوزان الذي كان لا يزال يبكي بجوار الفرس، ثم تقدَّم وسحبه من قفاه، وألقاه عند قدميها كقطٍّ ضالّ:

- شوفي عمل إيه في الواد السايس الغلبان لما جه يحوش عنها؟ عدمه العافية، ومفيش راجل شهم يحس ويحوش.. عالم ماحيين من الإنسانية..

والتفت إلى بقية السُّياس زاعقًا كممثل في أحد مسارح شارع عماد الدين:

- أصل مفيش رجالة!

كان يظن أنها غاضبة من خسارة الفرس، ولكنه حاول أن يلهيها بقصة أخرى، شهقت عندما رأت فوزان:

- Oh my lord!

انحنت عليه وحاولت مساعدته على القيام وهو يبكي متأثرًا بجراحه، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، فاتجه نحوها مرعي وقال:

- متتعِبيش نفسك يا ست هانم، أنا هقوم باللازم.

نظرت لفوزان بحزن بالغ، ثم تقدمت ناحية الجوكي، وانتزعت منه سوطه وصاحت مؤنبة كأستاذة تعاقب تلميذًا:

- عارٌ عليك يا ستافروس! هل أمَرَك المسيح بهذا؟ أنت لم تأخذ شيئًا من اسمك(29)، يجدر بك الذهاب والاعتراف أمام الكاهن!

عرف مرعي بخبرته الطويلة أنه (بلصها) كما كان يقول بهاتين الحركتين.

لمح ارتعاشة أطرافها، كانت كأنها أول مرة ترى اثنين يتشاجران، وقد كان المشهد مؤثرًا بالنسبة لها خاصةً مع ضرب الولد والفرس بالكرباج، فتح خادمها النوبي الباب لها، فالتفتت لتركب، ثم توقفت كأنها تذكرت شيئًا، والتفتت إلى مرعي المصري وقالت:

- مرعي أفندي! فيه حفل كبير غدًا في بالاس أوتيل، علشان بداية الموسم بتاع السبق. أنت مدعو. أنت من الحاشية بتاعتي .. هذا اعتذار عما فعله ستافروس!

اندهش مرعي من ذلك العرض الغريب الذي ينمُّ عن سذاجة بالغة، وكاد يرفع حاجبيه تعجُّبًا، لكنه أومأ برأسه، وقال:

- إحنا خدامين جنابك يا ست هانم.

تابع الأتوموبيل وهو يبتعد، ثم رمق فوزان الذي كان ينظر له بحقد، وابتسم!

* * * *

دخل سليم بيته في الظلام، إلا من بصيص ضوء يأتي من مصباح واحد، عندما سمع صوت الشهيق القوي، فانقبض قلبه، وهرع نحو غرفة عايدة، فوجدها غير قادرة على التنفس، كانت الخادمة بجوارها تبكي، والفتاة أمامها شاحبة الوجه عيناها جاحظتان مفزوعتان، تجاهد ليدخل النفَس لرئتيها بصعوبة، وهي تبكي، وجميع أطرافها ترتعش، وتمسك بإحدى يديها صدرها، وباليد الأخرى تتشبث بالخادمة!

تجمَّد من الهلع عندما رآها تنازع الموت، عندما رأته قالت بصوت متحشرج من بين أنفاسها الثقيلة بصوت باكٍ:

- سليم!

اندفع سليم نحوها:

- عايدة متخافيش.

كان وجهها شاحبًا مزرقًّا، وفي حالة إعياء شديدة.

- أنا هروح أشيع للحكيم جران.

تمسكت به:

- متسبنيش أبوس إيدك.

التفت للخادمة:

- روحي شيعي للحكيم جران.. بالعَجَل!!

كانت المرأة كالمنومة وأيقظها هتافه، فنزلت مسرعة، بينما قالت عايدة وهي تمد يدها نحوه:

- سليم! مش عاوزة.. أموت.. متسبنيش أموت..

صرخ متلعثمًا والدموع تطفر من عينيه:

- لا! متخافيش يا عايدة.. متخافيش.. مفيش موت.. إنتي هتطيبي.

ثم أقبل عليها واحتضن رأسها لصدره، قبل أن ينظر لعينيها اللتين تنظران له وهو يردد بجزع:

- لا يا عايدة! لا.

عندما جاء الحكيم الإنجليزي فحصها، وسليم واقف عند

الباب قلبه يرتعش من الهول، وهو يرى الخادمة تساعد الممرضة المصاحبة له على غلي إحدى الحقن، كان خائفًا يراقب ملامح الطبيب العابسة تارة، ويحاول أن يستشف من خلجاته حالتها، ثم يتابع وجهها، ويسمع شهقاتها المروعة المضطربة.

صوت المطر كان يأتي من الخارج شديدًا.

قام الحكيم بحقنها، بينما الخادمة تحتضنها، فنامت.

عندما انتهى الطبيب قال له:

- لقد حقنتها بالكافور والكافيين، هذا أقصى ما يمكن أن نفعله في مثل تلك الحالات..

ابتلع سليم لعابه والطبيب يشرح له الحالة؛ لقد انطبقت رئتها اليسرى، وانضغطت، ككيس مفرغ من الهواء، الأفضل أن تسافر إلى إنجلترا لإجراء عملية استرواح للصدر، سينشرون عظام صدرها بمنشار، ويمدون أنبوبًا للداخل من أجل مساعدة الرئة على التنفس بشكل أفضل. إنه حل أخير.

كان سليم غير واعٍ بما يقوله الطبيب الهادئ، يفتقر للتركيز، مُشوَّش.

- الأفضل لها أن تسافر خلال الصيف، برد لندن لن يكون جيدًا بالنسبة لحالتها.. سوف نحتاج لهذه العقاقير.

مدَّ له اليد بالورقة، أمسكها وهو مُغيَّب، مراقبًا تنفس عايدة الذي كان أكثر هدوءًا، ونبوية تقوم بتغطيتها، والممرضة تحزم حقائبها.

نظر للروشتة بعد أن نزل الحكيم، ولم يعرف كيف يتصرف! دفع آخر ما معه للطبيب، لم يعُد معه حتى عشرين خردة يشتري بها شيئًا. لم يعرف ماذا يفعل في ثمن الدواء.

* * * *

اندفع بالأتوموبيل بسرعة كبيرة، كان يدعس دواسة الوقود كأنه يريد الموت.

كان خائفًا، وكانت صورها تمر أمامه كمشاهد السينماتوغرافية، تذكر ضحكاتها المرتفعة الصاخبة، نظراتها الشقية.

تذكرها أول ما جاءت من تفتيش شاوة في المنصورة إلى بيته ذاك، وعلَّمته الأكل على الطريقة الأوروباوية بالشوكة والسكين، كان فلاحًا وُلِدَ في بيت فلاحين لا يعرف عن الإتيكيت أو آدابه شيئًا، حيث تربى أن يوضع الأكل كله في صحن واحد ويأكل الجميع منه، فاشترت أول ما جاءت من بيت أبيها البك مائدة طعام، وصار لكل واحد طبق من الصيني يأكل فيه.

تذكرها يوم خرج لعمله في قسم الخليفة، وعاد وقد وجدها أحضرت نجارًا إفرنجيًا صنع لها دكة لبيت الراحة،

واشترت خزان ماء، وجميع المستلزمات، وحوَّلت الحمام البلدي إلى حمام إفرنجي، يومها جلست في خبث تأكل معه على مائدة الطعام، وهي تنقل بصرها بينه وبين طبقها والحمام، ثم لم تُطِق صبرًا وقالت وسط الأكل:

- مش عاوز تخش بيت الراحة؟

اندهش، وتلفَّت حوله ظنًّا أن هناك شيئًا خطأ فيه أو في شكله، فضحكت عابثةً وأخذته من يده لهناك، وظلت تشاهد ملامحه البلهاء وهو ينظر لدورة المياه الجديدة.

ابتسم عندما تذكر كل ذلك من بين دموعه، فمسحها بكفِّه حتى يرى طريقه الذي كان يطويه.

* * * *

أوقف الأتوموبيل في درب طياب، عند خمارة نعيمة الظباطي. كان يعلم أن صديقه محمد خورشيد يسهر هنا كل ليلة، إن خورشيد هو ذلك الشيطان الذي أشار عليه بسلوك تلك الطريق من البداية.

شقَّ طريقه في الخمارة الكئيبة بين الطاولات التي تتراصُّ فوقها زجاجات البيرة الرخيصة، والنسوة البدينات في الأثواب المزركشة بالترتر والقصب التي انحسرت عن أنصاف صدورهن العامرة، وأذرعهن البضة يسرن في عبث بضحكات خليعة وأجساد ملتوية يشاغلن الضباط الشبان.

من بعيد كان صوت امرأة تغني غناءً قبيحًا، تطغى عليه أصوات السكارى والمُعربدين.

عصفوري ياما عصفوري أرقص له وأوري له أموري

بحث بعينيه حتى وجده، ببذلته الميري السوداء قد ميّل طربوشه وقلب زره للأمام، بجواره امرأة سمينة تصبُّ له من قارورة كونياك، وقد غمرهما الدخان.

اندفع نحوه وجلس، فرفع له صديقه عينين غائمتين، وقال مندهشًا:

- سليم! ازيك يا أخويا.. اقعد.

قال سليم بلهفة:

- شوفلي الله لا يسيئك جنيه معاك يا خورشيد.

ضحكت المرأة ضحكة خليعة، ورأى سليم وجهها الملطخ بالألوان عن قرب، وقالت بصوت قبيح وهي تحاول لمسه:

- إيه الحلاوة دي.. هي أول مرة للأفندي عندنا هنا.. شكله حلو وصغار..

صاح خورشيد فيها:

- اختشي يا مرة.

ضحكت ضحكة رقيعة وصارت تغني:

- يا حاطط على السترة نجمة..

التفت خورشيد لسليم بضيق:

- عاوز إيه يا سليم؟ أنا شارب نص الجمدانة وعقلي مش في راسي، إنت مش لسه آخد مني جنيه من كان يوم.

- معلهش يا خورشيد أنا...

قاطعه وهو يشير إلى فتاة تغني:

- أنا عندي حاجة أحسن من الجنيه، يا لبيبة! تعالي..

التفت إلى سليم وأردف:

- دي لبيبة المغربية، قطقوطة تعجب الباشا.. خد راحتك..

نظر سليم للفتاة السمراء النحيلة التي كانت تقترب منهم، ولم يتمالك سليم حقي نفسه، ولم يشعر إلا وهو يلكم صديقه في وجهه، فيطرحه أرضًا. كانت مفاجأة للجميع، وارتفع الصراخ بين النسوة في المكان. بينما سليم حقي واقف فوق رأسه، ينظر له باستنكار. تقدم عدد من البلطجية

ناحيته، أمسكه واحد من ورائه، وكان الآخر يهمُّ بضربه، لكن خورشيد اعتدل وقد سقط طربوشه عن رأسه، ومسح أطراف شفتيه قائلًا:

- خلاص يا تركي! سيبه..

تركوه، فاندفع للخارج تاركًا مجلسهم، خرج للمطر، للهواء، شعر بأنه يختنق، لم يعرف ماذا يفعل، كان مثل طفل تائه، ركب الأتوموبيل وأخذ يدور في الشوارع لا يعلم إلى أين يذهب، جاءته فكرة ولم يعرف إن كان يرتكب خطأ أم لا.

* * * *

أوقف الأتوموبيل أمام خمارة كوستيه، سألهم عن مرعي المصري، لم يجده، أخبروه بأنه ربما يتأخر، وقف على الرصيف المظلم المبلل أمام باب الخمارة ينتظره، لم يكن هناك أحد، لا الرجل الذي يشوي العصافير ولا غيره، كان وجه عايدة المذعور لا يفارق خياله، وشعر برغبة عارمة في الصراخ، لكنه تجلد، كتم ألمه.

بعد ساعة وجده داخلًا، عرفه من كابه المسطح الذي يخفي به رأسه، فصاح ملهوفًا:

- مرعي!

التفت الأخير له بتعجُّب وفضول، فقال سليم مبتدرًا:

- أنا محتاج فلوس يا مرعي.

ابتسم الأخير ابتسامة ساخرة، وقال بصوت مرتفع ليتغلب على زخات المطر:

- مكانش ينعز والله يا أفندي، كلنا محتاجين..

همَّ أن يتركه ليدخل، ولكن سليم أمسك بذراعه بقوة قبل أن يتركه، وقال بلهجة مرتعشة حاول أن يجعلها قوية قدر الإمكان وفشل:

- لاجل خاطر النبي، مراتي بتموت..

وقعت الكلمة على قلب مرعي الذي توقف، والتفت إلى الرجل وشاهد موته في عينيه، عرف فيهما الألم، ورأى الغصة تخنق روحه، رأى الكبرياء يحارب دموعه، ويُهزم. بعد وهلة سحبه من ذراعه:

- ادخل.

جلسا حول طاولة وسط السكارى.

- عاوز كام؟

- ٥٠ قرش..

مد مرعي يده وأخرج المال، عده، وضع له ٥٠ قرشًا فوق الطاولة، فأخذها سليم وهو يقول:

- هرجعهم لك في السبق الجاي.

كان يهمُّ بالانصراف، ولكن مرعي قال:

- مفيش سبق جاي.

التفت له سليم ولم يفهم، كان مرعي يعلم جيدًا أن فرصة الفرس في الفوز قد انتهت، إدارة الكلوب لن تسمح بالخسارة مرتين، أردف متلعثمًا وهو يُشعل سيجارة محاولًا صرف انتباه سليم عن مشاعره المتضاربة:

- هي الست بتاعتك ما لها؟

صمت سليم، تردد لوهلة، ثم قال بصعوبة وصوت منخفض وكأنه ينكر ما يقوله:

- الحُكَما بيقولوا إنها بتموت.

عقد مرعي حاجبيه وشعر بالانقباض في صدره، وبدا عليه التوتر، فأطفأ السيجارة التي أشعلها للتو، وصاح بعصبية:

- وأنت بتصدق الحُكَما؟ دول طايفة حرامية، المخبول اللي يصدق كلامهم...

أومأ سليم برأسه وانصرف مسرعًا ليلحق بالأجزخانات، ولكن مرعي أمسك بيده، فتعجب، ونظر له، رفع الأخير نظره له وقال:

- بكرة في بالّو في لوكاندة بالاس أوتيل، تعالَ معايا يمكن تعرف باشا ولا بيه هناك يتوسطوا لك ويرجعوك البوليس تاني.

أومأ سليم برأسه، كان كمن ألقي له طوق نجاة، ثم انصرف، فسمع صوت مرعي وراءه:

- الواد العرباوي سبته في الإسطبل، معرفش يروّح!

خرج من الخمارة، وترك مرعي ساكنًا في شرود.

* * * *

حمل زجاجات الدواء ملفوفةً في الورق، وصعد السلم بقدمين لاهثتين، اندفع للداخل فوجدها لا تزال نائمة، ونبوية بجوارها تحتضن رأسها كأم حنون.

وقف مثل اليتيم عند الباب وفي يده الدواء، ملابسه مبللة ملتصقة بجسمه، وشعره فوق جبهته.

كان يشعر بالاختناق وانقباض قلبه، ورغبة عميقة في البكاء.

وضع قنينات الدواء، ثم خرج يجرُّ قدميه، اختار ركنًا مظلمًا في الردهة، وجلس فيه فوق الأرض متكومًا، وضع رأسه بين ركبتيه، وفكر في عجزه أمام الموت، كان قلبه يؤلمه. لِمَ خلق الله الموت والمرض والفقر والفراق؟ أي حكمة سماوية يمكن أن تُفضي لهذا الألم وتُسفر عن هذا الكرب؟!

نظر نحو حجرتها مثلما كان يفعل فوزان، وتأملها وهي نائمة فوق سريرها، وتمتم بصوت متهدج راجٍ، وهو يهتز للأمام والخلف في توتر وفزع:

- متموتيش يا عايدة! سايق عليكي النبي ما تموتي!

ثم أجهش في البكاء.

* * * *

في تلك الليلة الطويلة، ضاع فوزان الطحاوي، لم يقبلوا أن ينام بجوار فرسه بالداخل. كانت الفرس أهم منه؛ فهي فرس الست ميتسي، ولكنهم لم يعرفوا له نسبًا أو صاحبًا، فطردوه ككلب.

لم يعرف أين يذهب، بدت المدينة موحشة بالنسبة له.

وقف أمام الإسطبل ضائعًا متألمًا، كان المطر يهطل، والناس يركضون في كل اتجاه، سار في المدينة محاولًا العودة، ولكنه لم يستطع، تاه، كان الناس يركضون نحو

بيوتهم يتَّقُون المطر. فوانيس عربات الترام كانت تضيء الشوارع، لكنها كانت مخيفة بالنسبة له، كان يبتعد عنها. حتى المحلات والدكاكين كانت تغلق أبوابها.

لم يعرف إلى أين يذهب، عندما نظر للسماء لم يجد النجوم، كانت مختفية، والسماء ملبدة بالغيوم، عاد من حيث جاء إلى حيث أسوار الإسطبل، تكوَّم واحتمى بالجدار من البرد الشديد، كان مثل الصعق يدخل جسده، ويرجُّه، جلس يرتعش من البرد ومن الضربات العنيفة التي تلقاها في الصباح من ستافروس.

كان يحاول أن يخترق السور الحجري بجسده الضعيف من شدة الألم والبرد، أن يلتصق به ويتوحد معه، لكنه لم يستطِعْ، تذكر أمه زاهية، فكر فيها، وندم على تركها، نادى عليها، يا أماه. ثم بكى، بكى كثيرًا حتى شعر بالخدر في جسده ونام.

في الحلم رأى تلك الليلة التي وُلِدَت بها الفرس «شمعة»، كانت ليلة حالكة السواد، وقد نبّه أبوه على غفير المربط أن يراقب الفرس الكبيرة الحارز؛ حيث إن ميعادها قد حان، عرفوا هذا بعد أن امتلأت ضرتها وكبرت وظهر الحليب عند حلماتها، وأصبحت في حالة مزاجية قلقة، فأمرهم بأن يطلقوا سراحها ويُحل قيدها لتكون حرة في المكان الذي تلد فيه.

إن الخيول تلد ليلًا، هكذا قال له أبوه، وأرسله ليبيت مع الغفير في الخيمة.

كان غفير المربط البعيد عبد من عبيد جده القُدامى، رجل يدعى رزق، يرتدي مثلما يرتدون ويأكل مما يأكلون، ولكن رغم أنه كان بعمر جده أو أصغر قليلًا، إلا أنه كان يقول لفوزان الصغير «يا سيدي».

في تلك الليلة لم يكن يضيء في الخيمة التي يجلسان فيها سوى فانوس، وقد استعانا على البرد بشالية فخار عليها جمر، وكان الولد جالسًا يستمع إلى حكايات الرجل عن أبو زيد الهلالي والزير سالم، والنار تنعكس على وجهه الأسود وأسنانه البيضاء، وعيونه المُصفرة، والرجل يمثل ما يقوله، بالأفعال والأصوات، ثم إنه صار يحدثه عن الخيل وأنسابها، حتى غلب الرجل النوم، ومال على عمود الخيمة، فلم يحاول فوزان الصغير إيقاظه، وأخذ الفانوس وذهب للاطمئنان على الفرس، وهناك وعلى الضوء الخافت وجدها ملقاة على بطنها، ورأس الوليد وساقاه الأماميتان يخرجان منها!

كانت تلك هي اللحظة الأولى التي رآها فيها، فارتبط قدره بها، رأى فيها يومها الحياة تخرج وتولد وكأنها معجزة، فعشقها.

كان رأسها أبيض، مغمضة العينين، ضعيفة، مُبللة بالماء والسوائل.

أطلق ساقيه للريح:

- يا عم رزق! يا عم رزق!

الخادم انتفض من رقدته، أخذ الفانوس وهرول حافيًا وراءه إلى حيث المربط، ثم شمّر عن جلبابه، ووضع طرفه بين أسنانه، وناول الفانوس لفوزان الذي سلَّطه على الوليدة، وبدأ الرجل بإمساك قَدَمي المهرة، وجذبهما برفق، كان صدر الجنين قد بدأ بالخروج، نظر ساعتها فوزان لرأس الأم، فوجدها مفتوحة العينين في ذعر تبحلق، لا تفهم ما يحدث لها، جذب رزق أحد قدمي الفرس قبل الأخرى؛ ليقلل عرض كتفيها ويسهل خروجها، فكان يجذبها بحركة منتظمة متزامنة مع النفَس العميق الذي تُخرجه الفرسة من الألم.

لم ينسَ فوزان بن مجلي تلك اللحظات طوال حياته، وقلبه يرتعش، والدنيا تتشكل أمام عينيه بشكل جديد، في تلك الليلة المظلمة وفي تلك البقعة المضاءة بالغاز، عندما خرجت الفرس الصغيرة بكامل جسدها، غارقة وسط السوائل والأوحال فوق القش، متكومة في بعضها.

ظل ينظر لها، وتمنى لو أنه يحتضنها، أو يضمها برفق إليه، وكأنها جزء منه، وعندما كان في وسط أفكاره الصغيرة الفطرية البريئة، أيقظه أمر العبد بإحضار بصلة، فانطلق يتعثر وقلبه يدق، وأحضرها من بيت الشَّعر، ثم عاد إليه وهو يلهث وضربات قلبه مثل طبول الأفراح، تناول الرجل البصلة وشممها للمهرة التي استفاقت، ثم ساعدها على النهوض ووجَّهها إلى ضَرّة أمها، وكأنها عمياء..

بدأت الأم في لعق جسد صغيرتها بالكامل لتدفئتها، وبث

الحنان فيها، وأشرقت الشمس.

يذكر فوزان قدميه وهما تأكلان الأرض أكلًا بينما يركض نحو دار جده، صارخًا.. كان هو أول من أبلغ بميلاد الفرس، فأعطاه أبوه البشارة: ريال فضة، وجعله يختار اسم الفرس، لما سأله حار جوابًا، ثم نطق بانفعال:

- «شمعة»!

صار ينادي عليها بصوت منخفض، وهو نائم، كان المطر قد توقف، لكنه ظل ينتفض أثناء نومه، ويرتعش، ولكنه كان مغمض العينين، مُصرٌّ على ألا يفتحهما، وكأنه يهرب من الوجود، كان يحتفظ بالظلام في عينيه، ولكن رغمًا عنه شعر بذلك الضوء القوي يخترق جفنيه. يصدم مخه، حاول أن يغمض عينيه أكثر كجنين خائف يرفض الخروج من أحشاء أمه لضوء الحياة. لبردها. كان ملوثًا بالطين والماء.

سمع صوت الهدير القوي، ثم شعر بالخطوات، فقرر الاستلام خوفًا وفتح جفنيه بوهن، فرأى الحذاء الأجلاسيه أمامه. عرفه! رفع نظره للأعلى فوجده، الأفندي الغريب، يقف على رأسه وخلفه الأتوموبيل الأسود العجيب، كان مبهرًا فريدًا مثلما رآه أول مرة في جزيرة سعود!

جلس القرفصاء أمامه، ونظر له، وعلى وجهه تلك الابتسامة الحزينة، قال له فوزان كلمة واحدة وأسنانه تصطك ببعضها:

- أنا بردان!

لم يكن فقط بردان كما قال، كان حقًّا على وشك الموت من البرد، ابتسم الأفندي الذي كان يبحث عنه، ثم حمله حَملًا من فوق الأرض، ووضعه داخل الأتومويبل، كان مغمض العينين غير قادر على فتحهما ينتفض، ركب بجواره وسار بهما الأتومويبل. كان فوزان الطحاوي مغمض العينين منكمشًا داخل السيارة، كان جفناه يقاومان انفتاحهما، لم يكن يرى أمامه سوى أضواء كومضات، ورأسه تهتز ذات اليمين وذات الشمال دون إرادة منه.

ربما نام ثانية، لم يعرف ماذا حدث، فقط كان يرى خيولًا تركض، رأى جثة أبيه فوق الجمل، وذراعاه مفرودتان فوق سنامه كمصلوب، رأى كلابًا، رأى أتومويبل أسود.. صحراء.. أفندية.. زاهية أمام دارهم البعيدة.. الحجالة ترقص.. رأى نبوية الخادمة العجوز.. كانت غاضبة.. شعر بماء ساخن فوق جسده.. شمَّ رائحة صابون..

استيقظ مع نور الصباح الذي كان يتسلل عبر نافذة، لم يعرف أين هو، كان نائمًا في هدوء ودفء، عندما فتح عينيه رأى لمبة جاز قريبة، حرارتها تدفئه. كان تحته مرتبة قطنية ناعمة. لم يجد ملابسه عليه، أحدهم بدّلها، ويرتدي بدلًا منها جلباب كستور طويل للغاية وواسع، قدماه مغسولتان، ويتدثر في بطانية نظيفة!

عرف أن الأفندي أعاده أمس وأخذه، أعاده إلى حيث كان يشعر بالأمان. ذلك الإحساس بالدفء جعله لا يستطيع أن

يقاوم النوم. فنام ثانية بهدوء، وبلا أحلام!

* * * *

---

(26)أول ملاهٍ في الشرق الأوسط، بناها البارون إمبان في هليوبوليس؛ ليجذب المستثمرين والسكان إليها، وكانت شبابيك بيع تذاكر السبق في ظهر مبناها.

(27)جينياه: لفظ فرنسي معناه رهان فردي على الحصان الفائز، وبلاسيه: رهان ثلاثي على أول ثلاثة خيول.

(28)خيل روسية غير محببة تعمل في الجر.

(29)ستافروس تعني الصليب باليونانية.

البارون

(أ)

أخذ سليم حقي ينفث دخان سيجارته في مزيج من ضيق وقلق، وهو يتأمل من داخل أتوموبيله لوكاندة هليوبوليس بالاس الفخمة(30)، بقبتها التي ترتفع عاليًا، ونوافذ غُرَفها المَضاءة، والتي تتخطى أربعمائة غرفة! وأخذ يراقب الأتوموبيلات التي تتوقف في فنائها وينزل منها الأثرياء بأفخم الثياب والمجوهرات.

التفت يساره لمرعي وسأله متشككًا:

- واحنا هندخل الحفلة ازاي؟

ضحك مرعي ونفث دخان تبغه، وقال:

- إحنا داخلين للخواجاية اللي اسمها ميتسي خشاب.

تأمل سليم مظهر مرعي الخارجي، كان قد بذل جهدًا كبيرًا حتى يبدو متأنقًا، فدهن شعره بالبريانتين وفَرَقه من الجانبين، وحلق لحيته بالموسي، وارتدى بذلة بربطة عنق، لكنه رغم ذلك لم يبدُ كواحد من أبناء الطبقة المحترمة، تعجَّب من محاولاته البائسة للتأنق، وهو الذي لم يزد شيئًا عن مظهره المتواضع!

- وتطلع إيه ميتسي خشاب دي علشان تعزمنا؟

سأله سليم فابتسم مرعي وقال:

- أرملة واحد بيه، اسمه خشاب، حايز الدرجة التانية والنيشان المجيدي، راح جابها من لندن، وجه بيها. ما البهوات بيروحوا اليومين دول يلموا كناسة العطّار من هناك. أهو الحُرمة دي بيقولوا كانت شغالة غسالة في بلدها، تغسل ياقات وقمصان، بس البك شافها دخلت مزاجه، فخدها ورقاها وخلاها بني آدم، وراح اتقندل واتجوزها، وبقت زي ما أنت شايف، بعد ما كانت منقوعة في المية والنشا.. سبحان العاطي الوهاب من بعد الشبشب والقبقاب!

تعجب سليم مما قاله مرعي فسأله:

- على كده حَبَّها؟

ضحك مرعي بسخرية، ثم قال وهو ينظر لفوزان:

- أما أنت طيب بشكل، الناس دي متعرفش الحب بتاع أهل زمان.. حب اليومين دول يا ابن سيدي عامل زي الخرُّوب، فاضي من جوة.. ميلذّش.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه سليم عندما سمع فلسفة مرعي الخاصة عن الحب، فسأله متخابثًا:

- يمكن حلوة؟

- ولا شافت الحلاوة من ورا باب حتى..

ثم التفت له وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى، متراجعًا في مقعد الأتوموبيل وقد راقه الحديث:

- أصل الحريم مزاجات، زي عدم المؤاخذة الخمرة، مش فيه الشمبانيا أبو تلاتة نجمة وفيه الكونياك اللامارتيل؟ أهو الحريم كذلك، ومحسوبك الحريم الخواجات دول ميملوش عينيه؛ لأن دول نسوان عدّادها قالب زي عداد الكوبانية، ماعندهمش كيف للعواطف القوية، مش حريم حسّاسة.. وأنا راجل على كيفك، متوحش.. أحب المرة تكون عاوزاني، ملهوفة عليا، عطشانة للحب اللي بالك فيه.. شاعرة بالفطرة وعواطفها حية.

ضحك سليم بصوت مرتفع من منطق مرعي، وقد تحوَّل لفيلسوف، ثم دون أن يدرك تذكر عايدة، وشعر بتلك الغصة في حلقه، ثم بتأنيب الضمير؛ لأنه سمح لنفسه وسط تلك الظروف أن يختلس لحظة ليضحك فيها، فصمت، وتكدَّر وجهه وابتلع غُصَّته.

فكر سليم في عايدة، وهو يتأمل الفندق الفخم، إنها فرصة جيدة ليجد فيها من يتوسط له من أجل إعادته لنظارة الداخلية، ربما هي فرصة لن تُعوَّض مرة أخرى، كان قلقًا، قلبه ينبض، مثقلًا وحزينًا، ولم يفق إلا على عبارة:

- يلا بينا!

ومرعي ينزل من الأتوموبيل.

* * * *

كان الحفل داخل القاعة المستديرة؛ قاعة مهولة تحت القباب، مصممة على الطراز الإسلامي المغربي، ومزينة بزخارف من الفسيفساء البديعة، تتخللها أعمدة رخامية عملاقة من الجرانيت.

عدد كبير من الموجودين يرتدون البذلات الرادينجوت والنسوة يتبارين في الأناقة، ويلبسن من أفخم بيوتات الموضة في باريس، الحضور يدخنون تبغ دانهل الفخم، ويتحلون بالساعات والدبابيس الألماسية، ويمسكون العصيّ الذهبية البراقة، لذا كان من السهل على العين الخبيرة أن تكتشف أنهما دخيلان على تلك القاعة!

من مكان ما تتسرَّب موسيقى وترية هادئة، بحث سليم عن مصدر الصوت، فوجد فرقة بالملابس الرسمية تتصدر القاعة.

تأمل مرعي المصري الزخارف الفخمة، ثم قال:

- يا سيدي يا متولي! شايف الأبهة!

ثم التفت إلى واحد من الخدم الذين يحملون الصواني،

واستوقفه، ثم أخذ منه كأسًا من الشمبانيا الفاخرة، عبَّه في جوفه مرة واحدة، ووضعه على الصينية، وأخذ كأسًا أخرى في يده، وسمح للخادم بالمرور.

لم يكن سليم مهتمًّا من الأصل بما يراه. كان يبحث عن شخص يصلح أن يساعده على العودة لعمله، بك مشهور أو باشا معروف يصلح للوساطة في ذلك الأمر.

لكزه مرعي بكوعه:

- شايف العالم المقلفطين دول اللي يتحطوا في فاترينة الخياط، واقفين إزاي. بص، الكاس في الإيد الشمال، بس اليمين فاضية علشان يسلموا على بعض. سلام نصب في نصب، علشان الفلوس.. ذمة كاوتشوك وملة أنتيكة.. بص الحريم.. إيه رأيك في كبشة النسوان الألفرنكة دي؟ حاجة تخلي الشيخ يرجع لصباه.. خلوا البلد بقت ألدرادو بنات الـ...!

لم يهتم سليم بما يقوله، ودار بعينيه يبحث عن شخصية مصرية ذات حيثية يمكن أن تساعده على الوصول لهدفه، لكزه مرعي ثانية، وأشار بعينيه للمرأة التي تقف وحيدة مثل يتيمة لا أحد يتحدث معها وخلفها خادمها:

- أهي دي السنيورة.. بقولك إيه تعالى معايا.

اتجه مرعي ناحيتها، بينما تبعه سليم ببعض التردد:

- مسز ميتسي!

رفعت رأسها نحوهما، ورسمت ابتسامة هادئة على وجهها، ثم نظرت للخادم، وكأنها تستأذنه الحديث، فيما تابع مرعي بالإنجليزية:

- نحن نريد أن نشكر جنابك على هذه الدعوة الكريمة.

لاحظت ميتسي الأثر الداكن بجانب عينه اليسرى؛ إثر لكمة من قبضة الجوكي اليوناني، وقالت بعربية مكسرة:

- ليس هناك داعٍ يا مرعي أفندي.

- هذا سليم أفندي حقي.. ضابط سواري، كان غرضي أن أقدمه لجنابك؛ لأنه سيكون مفيدًا جدًّا للفرس، إن ضباط السواري أفضل من يدربون الخيول!

تأملته ميتسي بعينيها بخجل، ثم أومأت برأسها بهدوء.

لم تكن قبيحة في عيني سليم مثلما وصفها مرعي المصري! بالتأكيد هي لن تروق لمزاجه الخاص الذي تحدث عنه، ولكنها جميلة جمالًا هادئًا، بلا أي صخب أو بودرة ومساحيق تجميل، بملابس سوداء متواضعة، وجسد هزيل ضئيل.

لم يكد يستغرق في أفكاره حتى لكزه مرعي مرة أخرى مشيرًا بعينيه لنقطة خلف ظهره:

- البارون وصل!

التفتت الأعناق كلها إلى مدخل القاعة، ثم ارتفع صوت التصفيق، حيث كان ذلك الرجل ذو الزي العسكري يتقدم وخلفه بعض الخدم، قصيرًا يستند على عصا يداري بها عرجًا في ساقه، وله وجه ذو سمت حزين، وجه يليق برجل رأى الكثير من الأشياء التي أثقلت كاهله يومًا بعد يوم حتى تعب، شعره خفيف من المقدم؛ وله عينان ناعستان ذكيتان، وفم دقيق فوقه شارب ولحية مدببان على طراز لحية نابليون الثالث.

كان يُحيِّي الجميع بابتسامة هادئة، وشعر سليم بتلك الهالة الخرافية التي تحيط بالرجل الذي لولاه لظلت مصر الجديدة مجرد صحراء جرداء، فقد بعثها من العدم كعنقاء تُبعث من رمادها.

لم تكن من الأساس قد ظهرت للدنيا إلا من عشرين عامًا فقط، كانت قبل ذلك مجرد بقعة شاسعة على حدود القاهرة الشرقية.

كان يعلم أن إمبان ذلك واحد ممن أرسوا القواعد المالية والتقنية لعصر البخار والكهرباء، صديق مقرب لملك بلجيكا، يملك ثروة لا تضاهى، يملك بنك إمبان، أنشأ عن طريق استثماراته مترو أنفاق باريس الميتروبوليتان (Metropolitan)، وشركات لتوليد الكهرباء توزع خدماتها في شتى المدن الفرنسية والبلجيكية، ثم تولى مهمة إنشاء السكك الحديدية في الكونغو البلجيكية، وتمكَّن من تشغيل

نظم النقل والمواصلات التي تدار بالكهرباء في داخل أكبر المدن في العالم؛ نابولي، وتورينو، ومدريد، ووارسو، والصين، ثم جاء لمصر.

في عام ١٩٠٠ أسس شركة واحات هليوبوليس، وبوساطة من بوغوص نوبار باشا، رئيس الحكومة المصرية -الذي سهل له الاجراءات- اشترى تلك الأرض في الصحراء أطراف القاهرة، بمبلغ جنيه للفدان الواحد، ثم أقام عليها ضاحيته.

ولم تكن الضاحية في ذلك الوقت قد دخلت حيز القاهرة العمراني بعد، بل كان لا يمكن الوصول إليها بقطار أو أتوموبيل! وكان السائرون في شوارع هليوبوليس(31) يستطيعون إذا نظروا للغرب أن يروا -عبر الصحراء وفي الأفق- القاهرة، بعيدة هاجعة وسط الرمال والضباب والغبار الذي يظهر من بينه القمم الثلاثة للأهرامات، ومآذن مسجد محمد علي بالقلعة على بُعد ٢٠ كيلومترًا.

بنى على أطراف ضاحيته الجنوبية قصره الهندي(32)، وشقَّ منه شارعًا طويلًا يسمى طريق البارون يأخذه إلى ميدان السبق في الشمال، وفي وسط الطريق ميدان يسمى ميدان الملكة إليزابيث؛ تقربًا لإليزابيث زوجة ملك بلجيكا ليوبولد الثاني، وكان في ذلك اليوم أكثر من ١٢ ألف إنسان يسكنون تلك الضاحية.

* * * *

انتظر مرعي حتى جلست ميتسي فجلس على مائدتها،

لم تعطِهِما انتباهًا، وجلست صامتة، كان هناك الكثير من الشخصيات الشهيرة..

- اللي هناك دا يوسف كمال باشا، مروض خيل من اللي بالك فيه، عنده حصان بيسابق بيه اسمه روضة، مبتخسرش. اللي قاعد هناك دا الخواجة شيكوريل، والقصير اللي هناك دا الخواجة داوود عدس بتاع بانزيون ومحلات عدس اللي في عماد الدين. وأبو شنب دا موسى قطاوي.. كل دول غاويين خيل وسبق.

لم يكن سليم مهتمًا، كان وسط جمع لامع تفوح منه رائحة العطور الزكية، وتدور بينهم أحاديث فرنسية تتخللها الإنجليزية، والقليل من العربية، على الطاولة كان يوجد صحفي فرنسي تابع لجريدة الإجيبسيان، وامرأة فرنسية، وانضم لهم واحد من أعضاء مجلس إدارة كلوب هليوبوليس ومسؤول عن الخيل، خليل بك، عرف مرعي على الفور، وتعجَّب من وجوده، رفع حاجبيه عندما رآه، ثم لم يتحدث، جلس بجوار زوجته الأمريكية.

كانت ميتسي هادئة تنظر للأرض، وخلفها خادمها واقفًا مثل حارس.

قال خليل بك، وكان رجلًا أنيقًا بشكل مبالغ فيه، يلبس بذلة رادينجوت بصديري، وقد فتل شاربه بمسحوق الكوزماتيك، فأصبح له طرفان مدببان لامعان، تفوح منه رائحة الكولونيا دوشيس:

- لم نتعرف على الأفندي يا مدام خشاب؟

قالها مشيرًا بعينه إلى مرعي المصري، فابتسمت بمجاملة:

- آه! أعرِّفكم أيها السادة، مرعي أفندي المصري، سمسار الخيل الذي أتعامل معه، إنه موهوب في عمله.

ضحك خليل بك بسخرية، وقال:

- لو كان موهوبًا حقًّا لما حدث الذي حدث أمس في السبق.

ثم التفت له وسأله بالعربية:

- أنت شغال دلال بقى؟

- آه يا سعادة البك.

ابتلع مرعي لعابه، لام غباءه لأنه قَبِل تلك الدعوة، فوجئ بوجود خليل بك من الأصل بين الحضور، فُضِحَ أمام (اللي مشغلينه)، وأصبح ملزمًا بتعليل وجوده هنا، وكان يخفي عنهم أمر عمله خارج النادي.

قال خليل بك بالإنجليزية:

- هذه أول مرة أرى سمسار خيل مدعوًّا لحفل مثل هذا؟

لا أعرف أين تعلَّمت السيدة إتيكيت حضور الحفلات الرسمية، الأحرى ألا أسأل عن سمسار الخيول، ولكن أن أسأل السيدة نفسها، مَن هي؟ ومن أين جاءت؟

لم تستطِع ميتسي أن تتحدث، بدت جَزِعةً، ثم نظرت للأرض، لاحظ سليم حقي ارتعاشة يدها على الطاولة، كانت ضئيلة منكمشةً أمامه، لم تعرف ماذا تقول، فرفع خليل حاجبيه مبتسمًا، ظلَّت تنظر للأرض كطفلة يؤنِّبُها أستاذها، فرفع هو الكأس إلى فمه، وارتشف رشفةً من شرابه وقال:

- لا أعلم كيف تجرَّأ الأمريكيون على حظر الخمور؟(33)
قال الصحفي الفرنسي:

- إنه انتصار للأخلاق الحميدة والصحة العامة، أتمنى أن نفعل ذلك في فرنسا.

لاحظ سليم تردُّد ميتسي خشاب وقلقها، ورأى دموعًا في عينيها، صمتت بعد ذلك، ونظرت للأرض كأنها معاقَبة.

قالت المرأة الأمريكية زوجة خليل بك، مُعلِّقةً على حظر الكحول:

- أنت تفهم الأمر خطأ مسيو ديمنيه، إنها رجعية، وفرض توجهات بروتستانتية ريفية على أبناء المدن المتحضرين. إنها خطوة للخلف.

قاطعهم صوت صليل ملعقة فوق كوب، فالتفتت الأعناق

إلى حيث الصوت، وعرفوا أن البارون إمبان على وشك أن يقول كلمة، ارتسمت الابتسامات المتسعة على الوجوه، وأنصت الجميع.

فتقدم الرجل مستندًا على عصاه، وصعد أولى درجات السلم المُفضية إلى الطابق الأعلى، وواجههم.

بدا في عين سليم مهيبًا بزيه العسكري، رغم قصر قامته، وعرجه، ابتسم البارون، ثم تنحنح وقال بصوت جهوري:

- يقولون إنه إذا أنجب الرجل طفلًا، وغرس شجرة، وبني منزلًا يكون قد خلّف حقًّا أثرًا للأجيال المقبلة، وأنا لم أنشئ منزلًا واحدًا، لقد بنيتُ مدينة!

التهبت الأكفُّ بالتصفيق للرجل، وعندما توقفوا استطرد:

- لقد كانت هليوبوليس حلمًا فقط، أمنية في عقل رجل، ولكن ها أنتم تسكنونها الآن، إن بعض الأماني تتحقق وتحدث، منذ عشرين عامًا فقط كانت تلك البقعة مجرد صحراء يسكنها بعض البدو، أما الآن فهي قطعة حضارية من أوروبا.. انظروا إلى المستقبل. إننا نخلقه هنا.

كانت جميع الأعناق مشرئبَّة تنظر للبارون العظيم، ولكن عندما نظر سليم لميتسي خشاب، وجدها تنظر للأرض في صمت!

* * * *

- الكولونيل شابو! كيف حالك؟

هكذا قال خليل بك، وهو يحيِّي رجلًا مسنًّا، بشارب كث، يرتدي الملابس العسكرية، بصدر مرصع بالنياشين المبهرة، جلس الجنرال وحيًّا الجميع بنظرة هادئة، فسأله الصحفي الفرنسي بفضول:

- إنها فرصة جيدة أن أسأل الكولونيل شابو، مدير شركة واحات هليوبوليس عن رأيه في معارضة الوفد للجنة ميلنر؟

نفث الجنرال دخان سيجاره، وقال:

- أنا لا أظن من الأساس أنها ستفيد، عانت البلاد كثيرًا تحت وطأة السلطة العسكرية البريطانية في الحرب، وفؤاد مثل حسين ليس له الشعبية الجارفة التي كانت لعباس من قبلهما، الحزب الوطني مع سعد، لكن الإنجليز يملكون العالم الآن، الأمر مُنْتَهٍ.. لو أنهم أذكياء لقبلوا التفاوض مع ميلنر.

قالت المرأة الأمريكية:

- المصريون لا يفهمون معنى الاستقلال من الأساس، إنهم ينادون بالحرية، ولكنهم لا يفهمونها، إن الإحساس الوطني لديهم ليس متغلغلًا، وأغلب من ينادي بالاستقلال عن بريطانيا يدعو إلى العودة لحظيرة الأتراك في أستانة.. سيعودون للرجعية، وإذا أطلقت بريطانيا يد هؤلاء فإن هذا

الشعب المتعصب سيعادي جميع المسيحيين.

قال الصحفي:

- سواء عادوا للأتراك أم لا، أو حتى طلبوا استقلالهم الذاتي، هذه حريتهم وهذا حقهم، ثم إنهم أثبتوا عكس ذلك، الجنرالات البريطانيون ظلوا يقولون إن الضباط المصريين سيخونونهم طوال الحرب في السويس، وينضمون للأتراك في الجبهة الأخرى عندما يلمحون أول طربوش في الأفق، لكن هذا لم يحدث(34). لا أحد يستطيع أن يعارض منطقية المبادئ الأربعة عشر التي أقرَّها ويلسون، وحق تقرير المصير لهذه الشعوب الذي شرعه لها، عليهم هم أن يقرروا، ولا يجب أن تختار فرنسا أو بريطانيا عنهم.

- ويلسن نفسه أقرَّ بحماية بريطانيا العظمى على مصر، إن هذا عبء الرجل الأبيض.

- إن عبء الرجل الأبيض هو عبء حمل الأموال المنهوبة، مدام إيفون، إن إقرار ويلسون بالحماية هو نفاق، ولا أعتقد أن الأمة الأمريكية تؤيد هذا النفاق، وإلا كانت مصيبة.

كان سليم حقي يتابع الحوار الذي كان يدور أمامه بالإنجليزية، وهو يشعر بخليط من الضيق والغضب والاشمئزاز، وجد نفسه يقول بانفعال:

- لقد حاربنا الأتراك في الحرب بالسويس.. أصدقاء لي ماتوا هناك. نحن نطالب باستقلالنا، وحريتنا.

ساد صمت عجيب عندما ألقى بجملته، صمت الكلام، وتصادمت الكؤوس، والموسيقى الوترية، والتفتت الأعين له على الطاولة متسائلة، أو ربما متعجبة، استطرد بانفعال وهو يوجه كلامه للكولونيل شابو:

- لو أننا كمصريين أذكياء لرفضنا وضع أيدينا في يد ميلنر وهؤلاء الجناة، لا أعرف كيف يقول رجل بلجيكي هذا، إن ألمانيا احتلَّت بلجيكا المحايدة كجزء من خطة شلفين لاصطياد الفرنسيين على حين غرة، لقد تعرضتم للاحتلال لمجرد أنكم على الطريق لفرنسا! دخلتم الحرب من أجل الاستقلال، السلطان حسين نفسه عندما رأى صور الدمار التي حلَّت ببلجيكا أمر بمنحة ٥٠٠ ألف فرنك لملكتكم؛ من أجل إعادة إعمارها، فهل كنتم لتضعوا أيديكم في أيدي الألمان؟

نفث الكولونيل شابو دخان سيجاره الكوبي، وأخذ يتأمله وهو يندفع بغضب:

- ماذا يفعل الإنجليز في بلادي؟ غير النهب والسلب، لا أعرف ويلسون، من أعرفهم هم من ماتوا في سنة ١٩ بالبنادق والميتراليوزات وصُفِّيَت دماؤهم في الشوارع، من أعرفه هو صديقي محمد كامل مأمور بندر أسيوط الذي دافع عن بلاده، ووزَّع السلاح على الفلاحين، وأعلن الحرب مع خفرائه على الإنجليز، فأعدموه بالرصاص وهو مربوط لوتد في ساحة القرية.. ماذا كانت جريمة هذا الرجل؟ ماذا يفعل الإنجليز هنا؟ غير السرقة وإراقة الدم!!

كان غاضبًا، ثائرًا مرتفع الصوت، حتى إنه لفت انتباه بعض الجلوس على الطاولات الأخرى بحديثه العصبي ذي الإنجليزية البائسة، بملامح متشنِّجة جَزِعة، صَمَت، وساد سكوت ثقيل لوهلة قبل أن تقطعه المرأة الأمريكية ببرود:

- جميل أن تقصَّ علينا قصة حزينة مثل هذا لتثير تعاطفنا، لكنك تثبت بحديثك العدائي العاطفي هذا أن الجميع في خطر إذا رحل الإنجليز من هنا.

نظر لها بجزع، لم يستطِع أن يرد عليهم، كاد أن يصرخ فيهم أو يشتمهم، تجمَّد ينظر لهم بقرف، بدا وكأنه سيثور، ولكنه لم يفعل، ظل متشنجًا، متعجبًا كيف لم يشعروا بتلك النيران التي تحرق ضلوعه وأحشاءه؟

غيَّروا الحديث بعد ذلك، تحدثوا عن معاهدة فرساي، عن الحُمَّى الإسبانيولية، عن جلسات مجلس العموم البريطاني وإضرابات عمال الفحم، أحدهم قال نكتة عن حقوق المرأة في الانتخاب، ثم استمر الحديث دونه. تجاهلوه كأنما انتباههم له من الأساس كان غلطة.

قدماه تهتزان بعصبية، وهو على وشك الانفجار، أول ما فكر فيه أنه لا ينتمي لهذا المكان، لا يوجد شيء يربطه بكل هؤلاء، إن امرأته تموت، ولا يجد ما يسد رمقها، إنهم بعيدون كل البعد عن تلك البقعة التي يقف فيها ليواجه مصيره وحيدًا. شعر بكره شديد للغتهم وأشكالهم اللامعة، والروائح التي تفوح منهم. وجد نفسه يضرب الفوطة فوق

الطاولة، ويقوم من مكانه.

صمتوا جميعًا ونظروا له، وهو يغادر المكان كعاصفة، كاد مرعي المصري أن ينادي عليه، لكنه صمت. لم يفعل.

اندفع عبر طاولات الحاضرين، لا يعرف إلى أين يذهب، ارتطم بأحدهم وتجاوزه، كان يشعر بأنه يختنق، أنه بحاجة للهواء، قادته خطواته نحو أحد أبواب القاعة، سار في ممر به خدم، رأى بابًا آخر، فخرج لحديقة خلفية خاوية، شهق فور أن شعر بالهواء يندفع عبر حلقومه ليملأ رئتيه، ثم وقف يلهث.

وقف ينظر للموجودات بنظرة حيوان حبيس، لقد أتى ليُصلح ما أفسده في الماضي، فوجد نفسه يزيد الطين بلَّةً. أفسد آخر فرصة له، بغبائه ذاته، بتوهُّمِه للبطولة. كان من الممكن أن يساعده أي من (أولاد الكلب) الجالسين بالداخل على استعادة حياته ثانية، لكنه دمر كل ذلك. دمرها بنفس الطريقة التي دمرها بها أول مرة.

كان يدير منفلة أتوموبيله وحيدًا في الشارع، وهو يفكر في آخر فرصة ضيَّعها بغبائه، بتوهُّمِه البطولة للمرة الثانية، ماذا فعل بها عندما ارتكب حماقته؟ لا شيء، لقد ظن طوال شهور أن ما فعله هو الصواب، لقد فعل ما لم يستطع أيٌّ من زملائه (عبيد الأوامر) كما كان يسميهم أن يفعل.

صديقه محمد شاهين أحد البكباشية كان إذا قبض على

واحد من الطلبة المتظاهرين ربطه من يديه في سرج جواده، ثم جره خلفه حتى يُسحل ويموت، وتلميذه سليم زكي الذي خدم تحت إمرته في قراقول الموسكي قبض على المتظاهرين رجلًا ونساءً وكوَّمهم في السجون بعضهم مع بعض بغير احترام لحرمة بنات الناس!

أيامها لام الجميعَ، شتم خِسَّتهم، ثار، هاج، ولعن الزمان، ثم لم يتغير شيء، أصبحوا هم في أفضل المناصب، والآن أين هو؟ رجل امرأته تموت، وعاجز عن فعل أي شيء لها!

لم يشعر من شدة غيظه وقد كان على وشك البكاء إلا وهو يلكم كبوت أتوموبيله المعدني لكمات متتالية عنيفة!

- please do not!

سمع الهمس بالإنجليزية من ورائه، فالتفت كأنما يتأهب لقتال، لكنه رآها أمامه، واقفة شاحبة، وعلى عينيها أمارات الهلع والمفاجأة، كفَّاها مغلقتان بجوارها، وكأنها تمسك روحها من الهرب وأنفاسها متلاحقة، كانت عيناه محمرتين وعروق رقبته نافرة.

- Calm down, please

بدا لوهلة أنه لا يطيق النظر لوجهها، تركها واتجه ليفتح باب أتوموبيله:

- انتظر يا أفندي!

لم يتوقف، فأمسكت ذراعه برفق، فاندهش، والتفت لها، فقالت بتأثر وهي تنظر لعينيه:

- أنت تتألم. أنا أشعر بذلك.. أنت تتألم.

كانت عيناه تطفران بالدموع، نظر للسماء محاولًا إخفاءهما، قال:

- أنتِ مثلهم.

- يدُك تنزف!

كانت قبضته قد بدأت بالنزف من أثر اللكمات العنيفة.

- أنتم لا تفهمون.

قالها باحتقار، ثم تركها وركب أتوموبيله، ضغط دواسة الوقود في غضب، فانطلق، وتركها وحيدة وسط الشارع المظلم!

* * * *

كان فوزان نائمًا على جانبه في غرفته. لم يخرج منها مذ وجد نفسه فيها بعد أن أحضره الأفندي في فجر اليوم السابق، ظل يومًا كاملًا، وضعت له نبوية الخادمة بعض

كسرات الخبز والجبن، لكنه لم يأكل، ظل الصحن على الأرض بجواره.

قبل منتصف الليل سمع صوتًا ينادي على نبوية، لكن نبوية لم ترد، كان صوتًا ضعيفًا، واهنًا، لا يصمت.

قام فنظر عبر الباب الموارب، فوجده يخرج من غرفة المرأة المريضة، كانت الغرفة مظلمة، والصوت يخرج منها كأنه نداء ميت يخرج من قبر موحش، تردد لوهلة وتساءل أين ذهبت الخادمة، شعر بالغصة في قلبه، ثم حسم أمره، فحمل لمبة الجاز، وخرج بها.

- يا نبوية!

كان صوتها لا ينقطع، واهنًا شاحبًا.

تقدم حتى دخل غرفتها، أضاءت لمبة الجاز الأركان، فظهرت أمامه على السرير في وضع نصف نائمة ونصف جالسة، عندما ظهر قالت له:

- ميرسي!

لم يفهم الكلمة الفرنسية التي قالتها، فاستطردت:

- أنا بخاف من الضلمة، والزيت خلص.

كان قلقًا متوترًا، قال:

- وأنا جفلان.

- خليك هنا، نبوية شكلها نامت.

الضوء الشحيح، منعكس على الحائط، ينعكس على ملامحها، ملامح كانت جميلة في يوم من الأيام نضرة، لكنها الآن مصفرة ونحيلة، تذكَّر تلك الصورة التي مع الأفندي، لقد كانت آية في الجمال. تساءل أين ذهب كل هذا البريق؟ شعرها طويل كستنائي، مفروش بجوارها على الوسادة. بشرتها بيضاء حليبية، بملمس المخمل. وعيناها عسليتان، لم يرَ من قبلُ عينين بذلك الجمال. لم يعرف لِمَ كان طوال هذا الوقت متوجسًا منها ومن غرفتها، كانت غرفة كئيبة رائحتها غريبة، لكن المرأة كانت تشبه الملائكة.

قالت له بوهن:

- بيقولوا الموت ضلمة، وأنا بخاف، قلت لسليم يخليهم يعلقوا لي لمبة جاز بعد ما يدفنوني، بس هو قال لي إني مش هموت. بيكذب.

لم يستطع أن يقول لها شيئًا. صمت، وظل يتأمل عينيها وتلك الابتسامة الهادئة على شفتيها.

قالت:

- أنا بخاف من الموت، شفت حد ميت قبل كده؟

تذكر أباه وأومأ برأسه وصمت. كانت صغيرة، وجميلة، أراد أن يبكي. ولكنه لم يفعل.

قالت له:

- أنا شفت ماما، ماتت بنفس العيا، ماتت بليل، علشان كده بخاف من الضلمة.

قال متشجعًا:

- ما في شي يخوف في الليل، حتى.. حتى العفاريت ما بيظهروا إلا للي وحديهم، وأنا.. أنا جارك.

وأشار للمبة:

- والفانوس جارنا..

ابتسمت، وظل صامتًا، خجولًا، مترددًا. نامت. لكنه لم يقم من جوارها. ظل جالسًا على الأرض كأنه يحرسها يضم ركبتيه إلى صدره، ويتأمل ضوء لمبة الجاز والخيالات التي يرسمها على الحائط، استيقظت بعد قليل فنظرت له، وتأكدت من أنه لا يزال موجودًا، فابتسمت له مرة أخرى وقالت كي لا تنام ثانية:

- حبيت مصر؟

لم يعرف كيف يجيبها، لم يعرف إن كان أحبها أم لا، ولكنه يشتاق لأمه، يشتاق للخيول في مربط عمه، يشتاق لرائحة الخبز هناك. قالت له:

- أنا محبيتهاش، عاوزة أرجع لبابا في المنصورة، بس خايفة أموت هناك زي ماما.

لم يعرف أين هي تلك المنصورة التي تحدثت عنها، ولكنه شعر أنها تشاركه ذات الحزن، نفس الغربة والألم.

- احكي لي عن بلدك.

قالتها وهي تبتسم بوهن، فابتسم لها، حكى لها في البداية عن سرايا العمدة، قال لها إنه تعجّب بعد أن شاهد سرايات مصر لِمَ يسمون دوار العمدة بسرايا، إلا لأنها تختلف عن بيوتهم بمندرة وبرجي حمام! ضحكت. فأخبرها عن أمه، وعن الخيول. حكى لها كيف يصطادون الصقور، ثم كيف يروِّضونها، ويعلمونها الصيد، وكيف يربون الكلاب السلوقية، كيف يصطادون الغزلان بهذه الصقور وتلك الغزلان؛ تنقضُّ الصقور على الغزلان فتنقر عيونها، في الوقت نفسه التي تهاجمها الكلاب المدربة، تسيطر على حركتها حتى يصل الصياد. كانت متعجبة، تنظر له بتمعُّن وهو يحكي. حدَّثها عن الخيول، وكيف تولد، وكيف يربُّونها على الجري، كيف يطاردون عليها الفرائس في الصحراء، لهذا تصبح خيولهم أسرع خيول.

كان صادقًا في حديثه، مندفعًا متحمسًا، كأنما وجد فرصة ليتكلم، وكانت هي تسمع له بإنصات وشغف. اندمج في الحديث، فقام من جلسته، أخذ يرسم لها ظلالًا على الحائط بيديه، على الضوء الشاحب.. كانت ظلال حديثه تتحرك، ترسم غزلانًا، وأرانب برِّية، وجِمالًا، وحَجَلًا، وخيولًا، وطيورًا، وبنادق، وكانت هي تضحك من قلبها، لأول مرة منذ شهور!

* * * *

قاد سليم عبر الطريق الذي يخترق الصحراء من هليوبوليس إلى القاهرة، وهو يشعر بانقباض قلبه والغضب يسري في كل أجزائه. كان الظلام دامسًا إلا أضواء مصابيح أتوموبيله، وأضواء معسكرات الإنجليز على يمينه من بعيد، باتجاه العباسية، أضواء زادت من الألم الذي يعتصر صدره.

شرد، وفكَّر في عايدة وما يفعله بها، تذكر قبل خمس سنوات مضت، عندما رآها لأول مرة.

أراد أبوه تزويجه، فأشار عليه العمدة الباجوري عمدة قريتهم بالمنصورة أن يناسب أحمد بك كامل، مفتش تفتيش شاوة، قال له إن لديه بنتًا تعليم إفرنجي، لا تكتب إلا بالفرنساوي، يستمع في كل مرة يكون فيها في التفتيش إلى (الأبصر إيه البيانو) الذي تضرب عليه.

يومها نظر له شيخ البلد الحاج عبد التواب حقي مترددًا، ولكن العمدة قال له: سليم زي ابني، مرضالوش جوازة أقل من دي، وعلى هذا الأساس ترك شيخ البلد الأمر لصديقه

العمدة الذي اصطحب سليم معه في الزيارة التالية ليقابلوا البك، يومها ارتدى الشاب زيه الميري، ولمَّع قايش الجلد المسكوفي، وحذاءه الإنجليزي، فجعلهما كالمَرَايا، نفخ طربوشه، وكواه، وسار على التعليمات ذاتها التي علَّمها له العمدة وهما في الطريق؛ أن ينحني ويمسك يد البك ويقبّلها كأنما يقبل يد والده، وألا يرفع صوته، وكل ما تقتضيه معاملة الذوات الفخام.

ورغم أنه فعل كل هذا بالحذافير، رفض البك فكرة زواج كريمته من هذا الفلاح، صحيح أنه أفندي متعلم في مصر، وضابط في الراكبدارية، ولكنه في النهاية فلاح.

عندما جاء العمدة الباجوري ليعرف رد البك، قال له: الأفندي مش قيافة! يومها عاد العمدة على حماره من التفتيش مكسور الخاطر، ونسي الأمر، ولكن بعد أن اشتعلت الحرب ومر عام، وهبطت أسعار القطن، انكسر البك، وفي الوقت ذاته ترقى سليم من رتبة اليوزباشي إلى رتبة الصاغ، وشعر العمدة الباجوري أن الوقت مناسب مرة أخرى لفتح الأمر مع البك.

قال له:

- يا بك كلها سنوات ويصير الولد له شأن وربما صار حكمدارًا في يوم من الأيام!

البك هز رأسه وصمت. بعد أسبوعين أرسل للعمدة وأخبره بموافقته. لكن ما حدث بعد ذلك كان شيئًا آخر لم يخطر على

بال أحد!

* * * *

وصل إلى الخليفة، وظل جالسًا دقائق في أتوموبيله، تنهَّد محاولًا السيطرة على انفعاله. أطفأ المحرك، ثم صعد متهالكًا لمنزله قبل الفجر.

عندما دخل غرفتها وجدها نائمة ولمبة الجاز بجوارها، والولد فوزان نائم على الأرض. تعجَّب في البداية، ثم ابتسم. قبَّلها فوق جبينها، ثم عندما نظر لوجهها الذي يحبه شعر بالعبرات تخنقه، ولم يشعر إلا بها ساخنة تطفر وتنساب بصمت على خديه!

* * * *

---

(30)كان أكبر فندق في العالم في هذا الوقت.

(31)الاسم القديم لمصر الجديدة.

(32)يُعرف الآن باسم قصر البارون، ولكن في أوساط الصفوة الفرانكفونية أيامها كان يعرف بالقصر الهندي أو الفيلا الهندية.

(33)يقصد حركة حظر الكحول في الولايات المتحدة (Prohibition of alcoholic beverages).

(34)حارب الجيش المصري الجيوش العثمانية في الحرب العالمية الأولى بجوار البريطانيين، ومنعوا دخولهم سيناء، ثم طاردوهم حتى فلسطين وسوريا.

لو كانت الأمنيات خُيولًا

(١)

بعد أسبوع، استدان سليم حقي من الخواجة آشود جنيهين آخرين، أصبح حسابه أثقل؛ ١٠ جنيهات، ولكن خسرت الفرس السبق للمرة الثانية، جاءت هذه المرة متأخرةً في الترتيب الخامس. كان سليم يستند إلى الأتوموبيل وهو يراقب الخيل تدور عبر المضمار، ممسكًا بالتذاكر في قبضته، تعابير وجهه تقول كل شيء.

رآه مرعي من بعيد، حاول ألا يلفت انتباهه، وقف يدخن متظاهرًا بمتابعة السبق، كانوا قد أخبروه من قبل -إدارة

النادي- باسم الفرس التي ستفوز، لم تكن فرس ميتسي خشاب، لن يراهنوا على فرس خسروا عليها مالهم للمرة الثانية، لن يثقوا في فرس خذلتهم بعد أن هيأوا لها جميع الفرص للفوز.

فاز حصان آخر اسمه هالو، لم يستطع الجوكي اليوناني الذي يسابق بـ«شمعة» أن يتخطى تزانيق الجوكية الآخرين ممن رشوهم، ولن يستطيع أحد غيره.

فشلت خطته هو الآخر. وُضِعَ هو أيضًا بين المطرقة والسندان، يحتاج أن يعيد لبرجس الطحاوي ماله، والمال سُرِق، والفرس لا تفوز، ولا يجرؤ أن يخبر ميتسي بأنه

فقد كل هذا المبلغ. لقد علم مرعي المصري الخسارة منذ سنوات، ألفها. عرفها مثل خطوط كفه، خاصمه الحظ كثيرًا وصالحه حتى ما عاد يحزن لمخاصمته أو يفرح لمصالحته. لقد أصبح بلا روح. لكن هذه المرة المال ليس متعلقًا به هو.

اقترب من سليم حقي وهو ينفث دخان سيجارته، جلسا في مقهى الكولوزيوم القريب؛ يجتمع البوابون النوبيون على بُعد ناصيتين من مضمار السبق بهذا المقهى؛ ليراهنوا فيما بينهم، حيث إنهم لا يستطيعون الدخول للمدرج.

كانت الجلبة شديدة، زحام، خمور رخيصة، مزة أرخص.

جلسا ورائحة الطعام تحيط بهما، وسأله مرعي أول ما سأله:

- الست بتاعتك عاملة إيه؟

تعجب سليم من السؤال، ولكنه لم يردّ، فاستطرد مرعي:

- أنا عارف أنت بتفكر إزاي. بتقول أنا ليه ما أعيش معاها لحد ما أموت، ليه أتحرم منها، بس..

سكت، والتفت له:

- بس الدنيا مش حتة قماش عدم المؤاخذة الترزي هيقيفها لك على مقاس جتتك، ولا جزمة الخواجة هيجيبهالك على نمرة رجلك.

قال له سليم وعلى شفتيه شبح ابتسامة:

- وليه متكونش كده؟!

لم يكن مرعي المصري يعلم أن سليم حقي عاش أيامًا طويلة يفكر في ذلك، كم دعا الله أن تشفى ولكنها لم تشفَ، كم تمنى أن تعود الدنيا للوراء، ولكنها لم تعد. أين ذهب كل هذا الدعاء، لا يعرف!

راودته الشكوك، فذهب لإمام مسجد السيدة عائشة ليسأله، وجده جالسًا يومها أمام كرسي المقعد والمسبحة في يده. انتظر حتى انتهى وقام له بهدوء، قال للشيخ:

- مراتي بتموت يا شيخ، وربنا مش بيسمعني..

- الصبر يا بني.. الصبر.. بين ليلة وضحاها يغير الله الدنيا، نمسي في حال ونصبح في حال.

بكى في صلاته حتى ابتلَّت الأرض، دعا ألا تموت، أن تشفى، سهر الليالي يدعو الله حتى تقرَّحَت قدماه من الوقوف، كان الأمل يأخذه لأراضٍ بعيدة، للدرجة التي كان يتخيل فيها أنه من الممكن أن ينام فيستيقظ فيجدها تضحك مثلما كانت تضحك قديمًا، أو تجهز له ملابسه لينزل إلى عمله. لكنه كان كل يوم يستيقظ وحيدًا في الفراش، بذلك الألم في رأسه، ويسمع من بعيد سعالها الذي لا يهدأ.

- صبرت يا شيخ..

- قد يدَّخر الله لك دعاءك ليوم القيامة، حيث تكون إليه أحوج..

لم يكن سليم حقي يريد القيامة، إنه أحوج ما يكون لهذا الدعاء الآن، ما الفائدة إذًا؟ كان يريد حياته، يريد عايدة، يريد عمله، يريد أن يرحل الإنجليز عن البلد. يريد ألّا يظل الأمل أملًا.

نظر لمرعي المصري، وأعاد سؤاله بتحدٍّ:

- ها؟ ليه متكونش حتة قماشة وتتفصل على مقاسنا؟ دا هيضر مين يا مرعي؟ مش هيضر حد.. إحنا بس اللي بنقنع نفسنا إن الشر خير. علشان مفيش في إيدينا نغيّره.

عجز مرعي عن الرد، فقال سليم باختناق:

- هي عارفة إنها بتموت، مبقالهاش حتى الأمل، وأنا مفيش في إيدي حاجة، ولا عارف أنجدها، ولا حتى أسعدها في آخر يومين هتعيشهم بينا، لو النفر يعرف يختار.. كنت فارقت الدنيا دي من زمان، بس هي تعيش، على الأقل تفتكرني. لو هي راحت يا مرعي، مين هيفتكرني؟

مط الأخير شفتيه، وأطفأ سيجارته، ثم قال:

- شكل الدنيا دي محكوم فيها على خلق ربنا إن مفيش واحد منهم يوصل لمناه، الدنيا دي مفيش فيها حد بيحصل له اللي هو عاوزه!

ابتلع لعابه ثم قال:

- وطالما الست بتاعتك حالتها كده، أنت قاعد تعمل إيه هنا جنب واحد عواطلي سَبَقْجي زيي؟ بتعمل إيه وسط العالم العيرة دي يا أفندي؟

ابتسم سليم ابتسامة منكسرة:

- بلعب على قدري..

صمت ونظر للأرض، ثم رفع عينيه:

- تعرف يا مرعي. وأنا عيل صغير أبويا وداني المدرسة في المنصورة، كانت زي السجن تمام، والتلميذ اللي يغلط يحطوا رجليه في الحديد، ويودُّوه زنزانة، كان أكلنا رغيف صامولي طول اليوم، والباقي عليك، معاك نقدية اشتري، ممعكش تبات ترفص من الجوع، أنا متودِّك على الجوع يا مرعي، بس هي لأ، هي تربية سرايات.

واتسعت ابتسامته الباهتة:

- فكرك هبقى مرتاح وأنا عارف إنها رايحة تموت في بيتي على سرير عيار بوصة وربع، ولمبة جاز خمس شمعات؟

رأى مرعي الدموع في زجاج عينيه، سمعها في ارتعاشة نبراته، وهو يقول وكأنه يتحدَّى الوجود ذاته:

- لو رايحة تموت، تموت موتة ذواتي زي ما عاشت عيشة ذواتي!

نظر له مرعي ثم مط شفتيه، كان يفهم منطقه، ولكنه قال بصوت واهن متحشرج كأنما يُحدِّث نفسه:

- عدم المؤاخذة، الموت موت يا حضرة، على ريش نعام، أو بلا قافية على خيش، والحرمة في ساعة العيا مبتبقاش عاوزة إلا إيد طيبة تطيب خاطرها، مش ورق بنكنوت وتذاكر لوترية.

صمت لوهلة وكأنما يستجمع قواه، ثم استطرد:

- ابعد عن سكة الرهانات، دنيا السبق اللي أنت شايفها دي أولها أونطة وآخرها خراب ديار، اسمع مني..

- يمكن أفوز.

- مش رايح تفوز..

قالها مرعي بنفاد صبر، كان يشعر بانحداره، بتلك الهشاشة النفسية التي تأتي بعد فقدان الأمل، تأتي بالأحلام غير الممكنة، بالاحتمالات المستحيلة، فتتضخَّم

وتلوح في الأفق كسراب المسافر في الصحراء.

- افهم! الفرس مش رايحة تفوز تاني، وفّر القرشين الخردة دول للحرمة تتصحح بيهم.

لم يكن سليم يعلم شيئًا عن حسابات نادي سبق الخيل، وإدارة مجلسه، ولهذا بعناد بدا في عيني مرعي سذاجة:

- هيخلصوا، وإن كنت رايح أعمل كده، كان كل دا ليه من الأول؟

مط مرعي شفتيه، وقال وهو يقوم من مكانه:

- اللي رايح يفوز الأسبوع الجاي الحصان اللي اسمه سقراط، حصان الخواجة جيالوني، ارمي عليه اللي باقي معاك، مش هتكسب كتير، بس مش هتخسر، والخمسين قرش اللي استعطيتها مني خلاص، مش عاوزهم. سلام يا ابن سيدي..

قالها وغادر المقهى..

* * * *

جلس سليم حقي مكانه وحيدًا، كان يشعر بغُصَّة في حلقه. كان يعلم أن هناك بديلًا واحدًا لكل ذلك، بديل قد يريح الجميع، أن يُطلِّقها ويعيدها إلى سرايا أبيها البك!

بديل قد يريح أباه الذي حلف عليه بالطلاق ألا يكون ابنه إن لم يطلقها بعدما عجزت أن تُنجب طفلًا طوال خمس سنوات، وقال عنها إنها «بور»! وقد يريح البك أباها الذي لم يكن من الأساس راضيًا عن تزويج ابنته لابن فلاح، وقد يريح عايدة التي ستعيش آخر أيامها في رعاية دزينة من الخدم، والأطباء المحترمين.

لكنه بديل قد يقتله. بديل قد ينهي قصة فشله بنهاية مستحقة. يقتل رجولته. ربما وقتها يكون الموت أهون عليه. رفض طوال خمس سنوات أن يُطلِّقها لأجل عُقمها، اتصل به أيامها أبوه من تليفون النقطة وقال له:

- طلَّق الحرمة البور دي يا ولدي.

- لا يابا مش هطلقها.

- لو مطلقتهاش يا سليم لن تكون ابني.

لم يطلقها. تحدى أباه، وتحدى العالم، تحدى بكاءها ورجاءها أن يُطلقها من أجل أن يعود كل شيء كما كان، وأن يتجنَّب غضب أبيه، رفض أن يتخلى عنها، حتى هي لم تفهم مقدار حبه لها. كان على استعداد أن يخسر كل شيء من أجلها، ولكنه الآن يخسر كل شيء بخسارتها! كم يحبها.

من دون أن يشعر فرَّت دمعة من عينيه في جلسته وسط الكازينو، مسحها، ثم قام من مكانه، كان يتمشى هائمًا عندما سمع النداء:

- يا أفندي! يا أفندي!

التفت فوجدها داخل الأتوموبيل الأزرق الضخم، المرأة ذاتها، صاحبة الفرس، نظر لها متعجبًا، وكانت تبدو متعجبة هي الأخرى بالمصادفة التي جمعتهما. توقف الأتوموبيل بأمر منها، ثم نزلت، عبرت الطريق إليه، لم تقل شيئًا، لكنه قال:

- أنا آسف!

قالها معتذرًا عما بدر منه في ذاك اليوم، فأومأت برأسها، ثم ابتسمت، وبعد هنيهة قالت:

- لقد أردتُ أن أقول إني لست مثلهم.. أنا أشعر بك.

ابتسم، ثم أومأ برأسه وهمَّ بالانصراف، ولكنها تمسَّكت بذراعه بلهفة:

- انتظر!

تعجَّب من ذلك، فتركت ذراعه عندما لاحظت ما فعلته، وقالت:

- هل تقبل دعوتي لك؟

- لا، أنا آسف..

- أرجوك اقبلها..

مطَّ شفتيه، وأخذهما الأتومobil إلى سرايا خشاب، وطفق سليم يتأملها من النافذة، بناؤها المشيد على طراز يجمع بين الروكوكو والطراز الإسلامي، ثم عبر بهم الأتوموبيل السور إلى حديقة غنَّاء غنية، تتخللها تماثيل مرمرية ونوافير جميلة. فتح لهما الخدم الأبواب. ودخلا. أمرت الخادمة بإحضار الشاي. وجلست معه في صالون مذهب من طراز لويس الرابع عشر.

جلسا صامتين، لم يعرفا ماذا يقولان، تردد لوهلة، وكان على وشك القيام للمغادرة، ولكن وصلت الخادمة، ووضعت الشاي وقطع الجاتوه، فجلس.

تنهَّدت ميتسي، ثم أمسكت برَّاد الشاي الخزفي، وبدأت تصبُّ له قدحه في لباقة، لاحظ ارتعاشها، كانت تمسكه بكلتا يديها لكنها ترتعش. فرغت، فنظرت له وابتسمت بعصبية.

أمسك فنجانه، وحاول أن يتأمل زخارف السرايا الكبيرة، فظلت ترشف من فنجانها بصمت، ثم قالت أخيرًا:

- البيت كبير، كبير للغاية. هناك بيانو أيضًا، انظر!

أشارت لبيانو أبنوسي ضخم، فأومأ برأسه بإيجاب، وهو لا

يدري بِمَ يجيب.

- عثمان يقول إنه يجب أن أتعلم العزف، هناك أستاذ إيطالي يعلمني، ولكني غبية..

ابتسم.

- لقد.. لقد وُلِدْتُ فقيرة، فقيرة للغاية، ولم أتعوَّد على حياة الأغنياء تلك، إن عثمان من يعلمني كل شيء. لقد كان خادمًا مخلصًا لنعوم، منذ سنوات طويلة، وهو يعرف كل البروتوكولات، يتكلم كل اللغات، ويختار ملابسي مع الكمريرات، صحيح أني أكره تلك الملابس، ولكني أحيانًا أكون مجبرة على ارتدائها.. هو أيضًا من يخبرني كيف أتعامل مع الباشوات والهوانم.. لا أعرف كيف أتصرف في تلك التجمعات.. إنها تقلقني بشكل كبير..

كانت تتحدث باندفاع شديد وهي تمسك فنجان الشاي بكلتا يديها، ولكن سليم، رغم ما به من ألم كان قد أصبح هادئًا، يراقبها أثناء هذا الحديث غير المُجْدي.

وجهها شديد الشحوب، وجسدها نحيل، ككومة عظم، ولها أنف صغير، لكنه معقوف بعض الشيء، لم تكن قبيحة كما وصفها مرعي، كانت جميلة، جميلة جمالًا مميزًا. ربما لم يفهمه.

- أنا.. أنا لست مثلهم يا أفندي. هم لديهم كل شيء.

ابتسم في سخرية:

- أنت أيضًا لديك كل شيء!

- لا أنا وحيدة.

قالتها كأنما تُلقيها كحجرة، تدحرجها، قالتها كأنما لم تكن تريد أن تقولها، قالتها مبتورةً بلا أي تعقيب.

نظر لها في عدم فهم، فاستطردت:

- أسمع أن الذوات يقضون لياليهم في السهرات، والحفلات، والتياترو، وأحيانًا في القراءة أمام المدافئ، أو ربما يتبادلون الحب، لكني لا أستطيع أن أفعل كل هذا، إن ليلي طويل، طويل للغاية يا أفندي..

ابتسمت ساخرةً من نفسها، ثم قالت:

- يقولون إنه يجب أن أكون مشهورةً كي يتقرب الناس مني، أو يقبلوني وسطهم، إنهم لا يحبونني؛ لأني لست منهم، ولأني حشرة؛ لا أعرف كيف يأكلون، أو يتحدثون بالفرنسية، لا أعرف عن ماذا يتكلمون، وكيف يشربون الشمبانيا.. لقد كنتُ فقيرة في إنجلترا.. فقيرة للغاية..

كانت تتحدث غير قادرة على ترتيب أفكارها، وكان متعجبًا من اندفاعها الغريب من حكاية أدقِّ تفاصيل حكايتها، كانت كشخص مُنِعَ طول عمره من الحديث، ثم أتيح له ذلك مرة

واحدة، كانت كإنسان اكتشف الكلام!

- تُسابقين بالخيل مثلهم على الأقل.

- إنها مجرد عادة صحبتني من إنجلترا، لقد كنت أراهن على الخيل هناك. منذ مرض ديفيز، لكني لم أفُزْ مرة واحدة فقط!

- مَن ديفيز؟

- ابني.

أومأ برأسه ولم يعقِّب، فقالت بانكسار وهي تنظر للأرض:

- لقد مات الآن.

جذبت كلمة الموت انتباهه، حفَّزت حواسه، صمتت لوهلة، ثم ابتلعت لعابها، وقالت:

- أنا أخاف أن أموت وحيدة في هذا البيت الكبير، تعرف يا أفندي.. كثيرًا ما أحلم بهذه الأيام البعيدة، تلك الصباحات الباردة، حين كنت أنتظر في طابور طويل أمام بوابات المصنع في يوركشاير، بينما يداي تتجمدان من الصقيع، وأصابع قدمي تتشنج داخل حذائي الممزق. ثم استيقظ، مفزوعةً، ثم أهدأ، عندما أعرف أني في حجرة دافئة، مغطاة بالملاءات الثمينة، ثم بغتة أشعر بهذا الفزع ذاته الذي استيقظت به، عندما أدرك أني سأموت هنا، وحيدة، وسط تلك الملاءات الثمينة، وفوق هذا السرير الباهظ.

- كيف مات ابنك؟

لم يكن يسمع منها شيئًا بعد كلمة موت الطفل، وقف عند تلك اللحظة، نظرت له، وقد اغرورقت عيناها بالدمع، ثم قالت:

- إنها قصة حزينة.

- لكني أريد أن أسمعها..

- حقًّا تريد أن تسمع؟

كانت متعجبةً، وكأنه أول إنسان يهتم بأن يستمع لألمها، لقد عاشت شهورًا طويلة تكتم الحكاية، ما أشدَّ ألمه ذلك الإنسان الذي لا يجد من يخبره كم هو يتألم، إن نصف الألم يزول بالحديث عنه والشكوى منه.

- سأكون مسرورةً لو مرَّ حديثنا الأول بلا أحزان. ربما سأقص عليك تلك القصة مرة أخرى، إذا أردتَ أن يكون هناك مرات أخرى.

لم يقتنع بما قالته، لم يهتم بأن يكون هناك مرات أخرى من الأساس، سألها:

- كيف مات؟

ابتسمت ونظرت ليديها المنعقدتين في حِجْرها، وقالت:

- ما أستطيع أن أخبرك به أني كنت فقيرةً للغاية، ووالده ذهب للحرب، وهو كان مريضًا، يموت، وكنت أحاول أن أدفع للأطباء، فعملتُ في مصانع السلاح، وكان هو يعشق الخيول، كان يحب أن يرسمها، ويراها، كان يجبرني أن أصطحبه فوق الكرسي من أجل أن يشاهدها، وكنت أراهن عليها لأجله، وأخسر، خسرت كثيرًا، إن آخر ذكرى عالقة في ذهني هي عندما منعتُه من الذهاب إلى هناك؛ لتوفير ثمن الدواء. قال لي إنه لا يحتاج الدواء؛ لأنه سيموت على كل حال، ولكنه يريد أن يفوز. لم يفز مرة واحدة حتى.

وابتسمت بألم:

- وأنا أيضًا لم أفُزْ.. ولا مرة..

قالتها وهي ترفع عينين دامعتين، وعلى شفتيها بسمة متألمة..

- مات ديفيز، منذ عام، لكني ما زلت عالقةً هناك، ما زلت أراهن على الخيول، وفي كل يوم أحلم أني أنقذه. كي يعود لي مرة أخرى.

مسحت أنفها ودموع عينيها بكمها، وهي لا تزال تنظر للأرض، وقد بدأ جسدها بالارتعاش..

- لا تظنني مجنونة، أعرف أن ابني لن يعود، ولكني ما زلت أدعو الله لأجل هذا، يقولون إن المسيح كان يُحْيِي الأموات، أنا أعرف أن زمن المعجزات انتهى، ولكن جثة الأمل بداخلي تتعفن، وما زلت لا أستطيع أن أدفنها.

ابتسمت بعصبية، ثم قالت والدموع في عينيها:

- أنا لست مجنونة.. أو ربما أصبحت كذلك.. ولكنك ستفهم هذا إن فقدت شخصًا تحبه!

كان سليم حقي عاجزًا عن الحديث، تلجَّم لسانه، لم يعرف كيف أيقظت مخاوفه بكلامها، لقد كانت هذه المرأة تعيش الكابوس الذي يخاف منه! لقد سبقته بخطوة في مشوار الفقد.

بدأ الخدم في إشعال الأضواء مع هبوط الليل، وبدت أجواء السرايا أكثر كآبة من ذي قبل.

تقول كلماتها وهي تبتسم وتبكي في الوقت نفسه.

نظر لها، وشعر بما يعتمل في صدرها، هكذا سيكون عندما يحكي عن عايدة إذا وجد من يحكي له عنها، سيكون متألمًا وسعيدًا ربما. سيكون خائفًا أن ينتهي الحديث. لم يغلق الحوار. ظلت تتحدث معه طويلًا، حكت قصصًا عن تلك المدينة البعيدة التي عاشت فيها، عن يوركشاير، عن مصنع الذخيرة رقم ٩ الذي عملت فيه أثناء الحرب. عن طفلها، ولعبه مع الكلاب، والأعشاب التي تنمو وسط الحجارة في

حارات لم يسمع عنها من قبل، عن الحرب، عن رائحة الفحم وعمال المداخن، عن قصة تعرفها عن نعوم خشاب في أحد سباقات الخيول في إنجلترا، تحدثت وتحدثت، حتى كادت تنام في مقعدها، وكان هو يستمع، كان بداخله ألم شديد، لكنه كان يشعر بألمها، بحاجتها للحديث، للكلام عن كل ما فقدته في هذه الحياة؛ لأنه كان يدرك أنه سيكون في محلها ذات يوم!

عندما دقت الساعة التاسعة غادر، ولم تكن بعدُ قد عرفت اسمه. قالت له على الباب:

- أرجوك تعالَ ثانية.

ابتسم ولم يتحدث!

* * * *

عاد إلى بيته في الخليفة، عَبَر المدخل المظلم لمنزله، فوجد ذلك الشبح واقفًا في بئر السلم. وسمع الصوت.

- إنت فين يا سليم أفندي! إنت مفكر إنك كده حطيت راسنا في الجراب!

أشعل الغريب عود ثقاب، وأشعل به سيجارة، فظهرت ملامحه جلية لوهلة على نارها، وعرفه، شهدي، واحد من رجال الخواجة آشود.

لم يكد يراه حتى شعر بآخَرَ خلفه، فالتفت وعرفه، سانتي الإيطالي، وبيده شومة طويلة. حاصراه في بئر السلم، ففهم ماذا يريدان.

كان قد استنفد وقته لتسديد مال آشود، تذكَّر ذلك الآن، لكنه قال بغضب وهو ينظر للأعلى ليتأكد أن لا أحد من أهل بيته رآهما:

- إنت جاي لحد هنا ليه؟

تقدَّم شهدي منه، ونفث دخان سيجارته الخانق في وجهه، ووضع كفه على كتفه:

- لا يا حضرت، متبقاش عاصي ومزبلح، أنا أطبّ في أي وقت، شهدي عامل زي القضا المستعجل. وإنت عليك فلوس.

أمسك سليم بيده، وأزاحها ونظر لأعلى، فتأكد من أن لا أحد يراه من البيت:

- طيب امشي من هنا وأنا هجيبهم لك على الجزمة في دكان الخواجة.

- لا هندِزْ كلامك، أنا مش همشي من هنا إلا ومعايا العشرة أهيف.

نظر لأعلى، ثم قال بغضب وهو يدفعه:

- أنا بقولك غور!

- شكلك كده عاوز تروح لبرسوم(35)؟

قالها وأشار إلى سانتي، الذي هوى بالعصا فوق ظهر سليم فقسمه! سقط سليم على ركبتيه، ولكنه اندفع نحو شهدي فسقط به فوق الأرض، ولكن سانتي هوى على ظهره بالعصا مرة أخرى، قام شهدي وركله فتكالبا عليه، حتى همد، ثم أخذا يفتشان في جيبه عن أوراق مالية، فلم يجدا إلا تذاكر الرهان الخاسرة!

ألقاهم شهدي في غضب، عندما رنَّت صرخة ملتاعة من الأعلى، نظرا لأعلى ورأيا نبوية تصك صدرها، وصرخاتها تتردد عبر السلم، فتراجعا واندفعا هاربين نحو الشارع!

سمعت عايدة الصراخ من الداخل، قامت من فوق السرير، ترتعش، توكأت على الجدار، حتى وصلت إلى السلم، رأت فوزان واقفًا ينظر إلى بئر السلم. خرجت فرأت سليم يتكئ على مرفقه، وهو يسعل بقوة، ثم تسنّد على الدرابزين، نزل فوزان له، أمسك بذراعه، سنده حتى يصعد. كان خيط من الدم يتدفق من طرف شفتيه!

رفع سليم رأسه عند الباب، فوجد نبوية ووراءها عايدة تبكي، وترتعش، وسمع صوتها المكلوم:

- سليم! إيه بيحصل يا سليم؟! إيه بيحصل؟ قول لي..

حاول أن يبتسم كي يهدئها، ثم أخذ رأسها بين كفيه:

- مفيش حاجة يا عايدة.. مفيش حاجة.. متخافيش!

كانت عيناها ملتاعتين فيهما من الروع الكثير، ويداها ترتعشان.

- متخافيش يا عايدة.

لم يعرف ماذا يقول لها.

جلس فوزان الطحاوي القرفصاء يراقب ما يجري مثل مُذنب، اختفى سليم حقي، لم يعرف أين ذهب، وعايدة جلست على سريرها تبكي.

كانت تفكر في كل شيء، تخالطها مشاعر بين الخوف والحزن، لا تعرف ماذا تفعل، لا تفهم لماذا يحدث كل هذا.

كانت تعرف أن سليم حقي انتهى، وأن حياتها معه قد انتهت، انتهت منذ هذا اليوم الذي وضع فيه أبوه طلاقها مقابل أبوَّته. لم تنجب منه، فشلت كل المحاولات، ولكنه لم يُطلقها، تمسَّك بها، كانت تتلمس كل سبل العلاج، الأمنيات الكبيرة دفعتها للتعلُّق بكل قشة من أجل أن تنقذها من الغرق، دعت الله في الليالي الباردة. وحيدة في صلاتها، بكت وتذللت، وترجَّت، ولكن بقيت أمنياتها متحجرة في قلبها، مترسبة، مثل الصخور في قاع نهر.

قالت لها نبوية:

- نروح جامع أولاد عدنان!

رفضت في البداية، كانت متعلمة، ثقافتها فرنسية، تقرأ يوميًّا كتب بول بورجيه، ما كانت في ظروف أخرى تلجأ لخرافات نبوية، ولكن «الدق على الودن أمر من السحر»، أخذتها متخفِّيَة في حبرة وسبلة مثل نساء البلد، وصلت بين زحمة النسوة الواصلات على ظهور العربات الكارو، رأتهن يتمسحن بجدران المقام، كاد يغشى عليها، عادت للمنزل وبكت، وقد فقدت كل أمل لها أن تحمل.

لم يمسها سليم حقي بكلمة، ولكنها كانت تعلم أنه يتألم من داخله، يذبل يومًا بعد يوم، ثم جاء رفتُه من الحكومة، ثم مرضت. ولكنها ظلت بجواره، ما كانت تريد أن تعود لأبيها البك، كانت تريد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بجانبه، لكن في ذلك اليوم تأكدت من أنه حتى ذلك المخطط الذي رسمته في عقلها لموتها لن يتم!

* * * *

ذهب سليم إلى آشود في العتبة، هدده بأنه إذا اقترب رجاله من بيته سيقتله، كان تهديدًا أجوف، فارغًا بلا معنى، قاله فقط ليثبت أنه لا يزال قويًا، ثم طلب مهلة، أسبوع آخر. مقابل زيادة جنيه. ثم تركه وغادر، وهو لا يعلم كيف سيسدد دينه.

دخل عليها عندما عاد، وجدها صامتة، نظرت له بألم، فجلس بجانبها.

قالت:

- أنا ممكن أطلب المساعدة من بابا.

نظر لها مليًّا وهو يشعر بالجزع، ثم قال بصوت متحشرج:

- إنتي غرضك يكسر مناخيري يا عايدة؟!

هزت رأسها أن «لا» وصمتت، ظل ينظر لها، ابتلع ريقه، وقاوم الدموع في عينيه، بعد أن نكأت جراحه القديمة، إن عناده ومكابرته سبب كل هذا العذاب، ضمَّت عايدة يديها في حجرها، وظلت تتأملهما، ثم رفعت رأسها، وقالت من بين دموعها:

- لو هي حرب فأنت زيه! ولو على كسر المناخير فأنت كمان كاسر مناخيره.

كانت تقصد أنها عاقر لا تُنجب، وأنه لم يطلقها إلى الآن، وأن البك نفسه ما عاد يسأل عنها منذ علم، ومنذ أشاع شيخ البلد الخبر. فهم مقصدها، فاختلجت ملامح وجهه، ورأى دموعها. قال بشفقة مترددًا:

- أنا غرضي أقول....

أجهشت في البكاء، ثم قالت من بين دموعها:

- دول آخر يومين ليا، سيبني أرتاح..

انتفض في عصبية، وهبَّ في مكانه رافضًا ما تقوله:

- مين قال إنهم آخر يومين؟ إنتي مش هتموتي، فاهمة..

قالها كمن يطلق حكمًا، وكأنه يملك مقاليد القدر، قالها بحزم، وصرامة، وضعف داخلي، وغصة في حلقه، وألم ثقيل في قلبه، ربما قالها كمن يلومها على موتها!

كانت أنفاسها تتهدج أمامه، وهي غير قادرة على رفع رأسها له، وكأنها تتحاشى النظر في عينيه، لقد اكتفت، تعبت بقدر كبير من كل هذا، ما عادت تريد غير الراحة.. للجميع.

قال لها بحروف مختنقة:

- عاوزة ترجعي المنصورة؟

قالت من وسط نحيبها وكأنها فقدت الأمل:

- مش عاوزة حاجة.. عاوزة أرتاح بس.

لم يشعر من قبل أنه يكره نفسه إلى هذا الحد، لم يشعر بدناءته إلى تلك الدرجة، لم يفهم مشاعره، وإن كان عليه أن يحتضنها، أم يتركها، أن يتماسك أم يبكي، أن يصمت بصبر أم يلعن القدر. ابتلع لعابه، ثم قام، وانصرف.

* * * *

انكمشت عايدة في سريرها، وانهارت في البكاء بعد أن غادرها سليم. كانت ترتعش، بخوف وانفعال، لا تعرف لمن تشكو، أو تصرخ، أو تهرب!

فكرت في الموت، لم تكن تريده رغم أنه ظهر أمامها كأنه مُخلِّص، مسيح قد ينقذها، ويأخذ بيدها، ولكنها كانت لا تزال تخافه. لا تريد أن تموت. لا تريد أن تتماهى في العدم، فيصبح لا دليل على أنها وُجِدَت ذات يوم إلا صورة فوتوغرافية.

فتحت عينيها من بين دموعها فرأته، واقفًا عند الباب، بوجه آسف، حزين؛ فوزان الطحاوي.

لا تعرف إلى الآن ماذا يفعل هذا الولد في بيتها. لكن ربما هو نعمة من الله، ربما هو ملاك قد أرسله لها؛ ليعوضها عن الكثير من الأشياء السيئة. عن كل تلك القسوة، وكل هذا الألم.

تقدم فوزان منها بخجل، ولكنها كانت تحثه بعينيها على التقدم، أشارت له برأسها ألا يخاف. أنها تحتاجه. تريده أن

يقترب منها. اقترب، فجلس على طرف السرير. رفع يده ليربت على كتفها، لكنه توقف. تعلقت يده في الهواء لا تعرف ماذا تفعل. كانت عيناها تنظران له. جميلتان، عسليتان. لم يرَ أجمل من تَيْنَك العينين من قبل في حياته؛ يختلط فيهما الدمع. ربت بكفه على كتفها، وطبطب فوقها. وكانت كأنما تنتظر ذلك؛ فانفطر قلبها بكاءً!

* * * *

---

(35)المعلم برسوم المجبراتي: أشهر معالج متخصص في تجبير الكسور في مصر في ذلك الوقت، عالج الكثير من كبار رجال الدولة والأدباء؛ مثل مي زيادة، والسلطان حسين كامل، والخديوي عباس حلمي، وكانت عيادته في الفجالة مكتوب عليها «مجبراتي جلالة الملك».

(٢)

في اليوم التالي كان مرعي المصري بعد خسارة الفرس للمرة الثانية قد بدأ يدرك عبيثة ما قام به، فهم عدم مقدرته على دفع الباقي من مال برجس. فقرر أن ينهي تلك (المرسحية)، وأن يخبر ميتسي خشاب بكل شيء. لقد سُرِقَ مالُ الرجل، وهي لا تزال مدينة بـ٢٠٠ جنيه لصاحب الفرس.

أخذ الطريق مشيًا إلى حيث السرايا، سأل عنها فلم يجدها، أخبروه أنها في الكنيسة. أخذ الطريق مشيًا إلى هناك، عابرًا طريق الأهرام إلى ميدان الملكة إليزابيث حيث كنيسة البازيليك.

عندما دخل الكنيسة كانت فارغة تمامًا، مظلمةً إلا من بصيص ضوء يتسلل عبر التعشيقات المرتفعة المحفورة في الجدران المصممة على الطراز البيزنطي القديم.

صفوف المقاعد شاغرة. رآها هناك جالسة على ركبتيها أمام المذبح، تُصلي بمواجهة تمثال لمريم العذراء، ورأسها مطأطأ في خشوع.

تردد مرعي المصري لوهلة في التقدم داخل المبنى الفخم المهيب. وتجمَّد في مكانه، ثم أخذ يتأمل الصلبان المنقوشة فوق الجدران والأورغن الخشبي المميز والقبة

كتفيها، وهي تضمُّ يدها أمام صدرها بمسبحة يتدلى منها صليب.

لم يعرف مرعي المصري ماذا يفعل، رقَّ قلبه لها عندما رآها على هذا الوضع، فتنحنح حتى يُخرجها من تلك الحالة التي دخلت بها، فانتبهت ولكنها لم تلتفت، تمالكت نفسها ومسحت دموعها في عجالة، ودارت له.

- مرعي أفندي!

لم يعرف ماذا يقول. كاد يقول لها شكرًا على ما قلتِه أمام خليل بك في ذلك اليوم، أو ربما كاد يقول شيئًا عن فقده المال، أو كان سيعترف بأنه اتفق مع ضابط سابق في السواري أن يقسم معه الرهان على الفرس. وربما كان سيعترف بأنه يعمل (مرمطونًا) لمجلس إدارة نادي هليوبوليس. كاد يقول أشياء كثيرة، لكنه فَضَّل الصمت.

- تعرف! لا يوجد أجراس في هذه الكنسية. يقولون إن البارون يحب الهدوء، لهذا رفض أن توضع أبراج للأجراس..

لم يفهم لماذا قالت ذلك في هذه اللحظة، قالتها وكأنها لا تتألم، ثم ابتسمت من بين دموعها وقالت:

- الفرس خسرت مرة أخرى!

قالتها كأنها تخبره بالخبر، وكأنه لم يكن يعلم، أومأ برأسه إيجابًا، وهو يبتسم لها بمرارة، فقالت:

- لم أفقد الأمل بعدُ.

وأردفت وكأنها تذكرت شيئًا ما:

- أنا هنا لأطلب من الرب أن يعيد شخصًا ميتًا للحياة، هل تظن أنه من الممكن أن يستمع لدعائي؟ أنا لا أملك غير

الأمل.

لم يعرف مرعي ماذا يقول، لم يفهم ما تقصده، فاستطردت:

- أنا أقول دائمًا إن الأمنيات مثل خيول السباق، يمكن أن يعيش الإنسان طوال عمره يراهن عليها، وهو يعلم أنه سيخسر، لكنه لا يملك مع شوقه للفوز إلا أن يفعل ذلك، دون أن يفقد الأمل، إنها أمنيات كاذبة، أمنيات خطرة يا مرعي أفندي.. تعلم يا مرعي أفندي! لو كانت الأمنيات خيولًا كنت اشتريتها..

وابتسمت بحزن:

- ولكنها ليست كذلك!

نظر في عينيها طويلًا، رأى ألمًا، رأى حزنًا ثقيلًا، قالت وهي تهم بالمغادرة:

- أتمنى أن تفوز الفرس في المرة القادمة، أنا أثق بك..

كاد يقول لها أن هذا أصبح مستحيلًا، وأن مجلس الإدارة لن يسمح بفوز الفرس مرة أخرى. كاد أن يعترف لها بأنهم اختاروا فرسًا أخرى ستفوز غير فرسها، ولكنه صمت، لم يزد عن:

- لكني لست أهلًا للثقة.

لم يعرف لماذا قال لها هذا. ربما شعر بأنه بحاجة للتطهُّر، أو خاف أن يكذب في هذا المكان المهيب المقدس.

- لا، أنت رجل أمين يا مرعي أفندي، الرب لم يخلق شيئًا شريرًا بذاته، لكنه يمكن أن يُستخدم في خدمة الشر..

كانت كلماتها على بساطتها نافذة إلى قلبه، أفسح لها الطريق لتمرَّ نحو الخارج، فتركته ورحلت، لم يقل لها شيئًا مما كان يريد أن يخبرها به. حزنها أقوى منه، كانت تشبه قديسة في هذه اللحظة الغريبة، كيف يُكسب الحزن الثقيل أصحابه تلك الهالة من الهيبة! لم يفهم.

وقف متجمدًا مكانه في الكنيسة الشاغرة، ثم التفت إلى تمثال السيدة العذراء، وأخذ ينظر لها وكأنه يستنطقها الحقيقة، التفت باتجاه الباب، وسار بخطوات بطيئة نحو الخارج، ولكن قبل أن يبلغه سمع الصوت.

- أنت خايف على الحرمة مرات الأفندي ولا بدّك النقدية؟

التفت لها فرآها جالسةً على الأرض في ركن بجوار الباب الكبير، خلف المقاعد، ببقعة مظلمة لا يظهر منها إلا عيناها.

- زينب!

- فكرك إنك رايح تزيح عنه؟

دمعت عيناه، ثم قال:

- ليه لا يا زينب! هو إنتي لسّاكي فاكراني عِفِش معدوم من الإنسانية؟

قالت بذات اللهجة:

- أمال إنت إيه يا مرعي؟

نظر نحو باب الكنيسة في كآبة، ثم قال:

- لا يا زينب! لا.

قالها بصوت متهدج مرتعش، ونظر نحو الأرض متفاديًا النظر إليها، وخرج.

* * * *

(٣)

ما عادت عايدة تجالس غير ذلك الولد البدوي، يجلس بجوارها على قطعة الكليم طوال النهار ويتحدث، حتى تتعب، وتنام، وتستيقظ فيتحدث.

تجنَّبت سليم زوجها.

وكان فوزان الطحاوي لا يدرك حقيقة مشاعره نحوها، هل كان يشفق عليها أم إنه كان يحبها حقًّا. كانت أجمل امرأة رآها في حياته، وصاحبة أكثر بسمة عذبة في الدنيا. كان يشعر بشعور جميل عندما يستطيع إضحاكها. كانت تضحك ثم تسعل ويظهر عليها الألم. ولكن تظل على شفتيها الذابلتين كوردتين بسمةٌ خفيفة ممتنة، وكانت حقًّا ممتنةً له.

إن الله لم يكن قاسيًا عليها إلى تلك الدرجة التي كانت تظنها، لم يكن ينتقم منها على ذنب لم ترتكبه كما كانت تتخيل.

كانت تتجنَّب سليم حقي، وكان هذا الهجر بالنسبة له ظلامًا، أصبح عصبيًا كئيبًا، على وشك الانهيار، بُعدها عنه جعله يفقد الشعور بالأمان. حتى عرض ميتسي خشاب بالعمل معها على الفرس ما كان ذا قيمة بهجر عايدة! هي من تمنح الموجودات وجودها.

كان قد دبَّر ثلاثة جنيهات أخرى من رجل غير آشود، واشترى تذاكر رهان باسم الحصان سقراط؛ حصان الخواجة جيالوني، كما أخبره مرعي، ولكن الآن لا يشعر حتى بالرغبة في الفوز.

نزل وجلس على المقهى في ذلك اليوم، رأى بعض العيال

يُعلقون الزينة والأعلام الحمراء. سأل صبي المقهى وهو يجلس:

- إيه لزومها الأعلام دي؟

انبرى الصبي في حماس:

- إنت معندكش علم! السلطان فؤاد خلّف ولد(36).. ضربوا له ٢١ طلقة، وبيوزعوا عيش ولحمة على الغلابة في الحسين.. عقبال عندك يا سليم أفندي..

كانت كلمة (عقبال عندك) مثل نكء جرح قديم، شعر بألمه في صدره، فابتسم ابتسامة شاحبة. أخذ يتأمل مدخل بيته في آخر الحارة صامتًا.

رغم كل شيء أضناه هجرها، لم يكن ضعيفًا ذات يوم إلا أمامها، ما الحب يا سليم إلا حزن ثقيل مستقر في قاع القلب! قام من مكانه وصعد لها، دخل عليها الغرفة، فحاولت أن تتحاشى النظر له. كانت معترضة منذ البداية على ما يفعله، على رهان الخيل، على أخذ المال بالفوايظ، على كل تلك الديون. الحل في نظرها أسهل بكثير.

كانت جالسة في سكوت وشحوب، وجهها كأنما امتصّ الروحَ منه كائنٌ مخيفٌ، تحاشت النظر له. فقط رأى أنفاسها تتسارع في صدرها، جلس بجوار السرير على المقعد الوحيد مثل المذنب، نظر للأرض، أمسك أحد كفيه بالآخر، وهمس بصوت متحشرج:

- أنا عملت كده علشان بحبك يا عايدة..

نظرت له نظرة حزينة مؤنبة، ثم قالت:

- لا، أنت محبتنيش يا سليم.. أنت نص حبك لي إحساس بالذنب.

لم يدْرِ ماذا يقول، وكيف يدافع عن نفسه، هل هو كذلك حقًّا، أناني إلى تلك الدرجة؟ هل فعل كل ما فعل حقًّا لأنه يحبها أم لأنه يخاف على صورته أمامها؟ هل لينقذها أم ليثبت لنفسه أنه يستطيع إنقاذها؟ وأنه كان جديرًا بها منذ البداية؟ الحقيقة أنه كان يمسك برقبتها كي لا يتركها تسقط، وهو لا يدري أنه بالفعل يشنقها!

نبوية الخادمة توغر صدرها تجاهه كل يوم، يسمع همساتها مثل شيطان يوسوس لها، لا همَّ لها غير الحديث عن مفارقته والسفر لأبيها:

- هوّ اشترانا وسجّل حُجّتنا؟! كل إنسان حُرّ نفسه! هي كانت جوازة نصارى؟!!

فكَّر في أنها ربما تكون على حق، إن الخادمة ليست شيطانة كما يعتقد، ربما هو ذلك الشيطان وليس هي، لماذا يصر على أن يحارب؟ لِمَ لا يستسلم فقط!

- أنا....

لم يستطع أن يكمل العبارة، مدَّ يده إلى جيبه، أخرج تذاكر سباق الخيل، تأملها ثم قال لها:

- أنا رايح أبيع التذاكر دي، ومش رايح ألعب على الخيل تاني..

ظلت صامتة لم تتحدث، قال بصوت مرتعش:

- أنا.. عرفت مقاول هيشغلني مستخدم في شركة الملح والصودا في بورسعيد، أنقل ملح.. يوميتي عشرة صاغ، هصرف منها قرش ولا اتنين، وأشيع لك الباقي كل شهر تتصححي بيهم.

حاولت أن تُمسك دموعها في جزع، كانت تعلم أنها لن تطيق سفره وفراقه، عندما رأى دموعها مطَّ شفتيه، وخفض رأسه، ثم تركها في صمت وخرج، بينما قلبها يذوب في صدرها، ولم تكد تتأكد من أنه غادر حتى انفجرت باكية!

* * * *

---

(36)الملك فاروق الأول فيما بعد.

(٤)

وقف مرعي المصري يتأمل السجادة المُعلقة على حائط مكتب خليل بك آقبيق، والنقش المنسوج فوقها يجسِّد مشهدًا لسباق العربات الحربية من العصر الروماني.

تنهَّد وهو يراقب تفاصيل اللوحة، بينما خليل بك يتعمَّد تجاهله أطول فترة ممكنة بحُجة قراءة الجريدة؛ ليحرق أعصابه.

لقد علم أنه يعمل لصالح ميتسي خشاب، كُشِف أمامه، ولكنه لم يتحدث معه عن الأمر حتى الآن، تجاوزه بمكر ثعلب، تركه كي يأكل بعضه مثل النار في الحطب.

- عاجباك اللوحة؟

طوى خليل بك الجريدة، وقال:

- القمار يا مرعي، القمار! عارف إن الرومان كانوا بيراهنوا على حريمهم وعيالهم، كانوا بيراهنوا حتى على أنفسهم، والخسارة بتخليهم عبيد.

ابتسم مرعي ابتسامة عصبية، فاستطرد خليل بهدوء وهو يشعل سيجارًا كوبيًّا، وجلس يدخنه في هدوء:

- الخسارة بتخلي الناس عبيد لحد النهارده.

وقف يتأمل مرعي بعد تلك الكلمة متلاعبًا بأعصابه، ثم تنهد وقال:

- نهايته، الحكومة زي ما أنت عارف يا مرعي كانت منزِّلة الأرمن الهربانين من الشام في خيام جوا حلبة السبق، ولما الموسم بدأ نقلوهم ورا الإسطبلات ناحية الصحراء.

- معلوم.

- فيه شوية عيال من هناك عاملين لي قلق ورا الإسطبل، وخايف يسرقوا خيل من هناك، هتبقى مصيبة، أكيد شفت الخيام، ولا معسكرات الإنجليز، عاوزك تشوف لي مسألة العيال دي مع كام سايس من الإسطبل.

- أنا خدامك يا بك وأنت عارف.

قالها مرعي، فنظر له خليل بنظرة فاحصة متشككة، ثم أومأ برأسه أن «نعم» وصمت.

كان من المفترض أن ينصرف مرعي، ولكنه لم يفعل، ظل واقفًا في تردُّد، ففهم خليل أنه يريد أن يقول شيئًا، نظر له باستفهام.

- أنا بقول جنابك لو نعطي الفرس بتاعة الهانم الإنجليزية دي فرصة تانية في السبق الجاي.

صمت خليل لوهلة، ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى، وظل يرمق مرعي لدقيقة قبل أن يتراجع في مقعده، ونفث دخان تبغه وقد استهوته اللعبة:

- أنت إيه حكايتك يا مرعي؟ أنت بتشتغل من ورايا؟

قال لخليل دون أن يفكر:

- لا يا خليل بك.

- أمال إيه؟

حاول أن يجعل كلامه منطقيًا، قال شيئًا عن أن الفرس غير معروفة للأونرات والمراهنين، وأن لا أحد سيراهن عليها،

قال إن خسارتها دليل أكبر أن لا أحد سيثق بها، تكلم عن الخيول الأخرى، عن خيل إسبر نجاي والبشلاوي بك، تكلم عن الجرائد التي تكتب، والمراهنين الذين يُصدِّقون، تحدث عن الحصان سقراط الذي قرروا فوزه، ومن سيراهنون عليه، حاول أن يتحدث بالمنطق والحساب ولكنه فشل، وظل خليل آقبيق ينظر له النظرة ذاتها، تلك التي تخترق عظامه، وتنفذ إلى داخل نفسه.

في النهاية قال له آقبيق وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

- وأنت من إمتى بتتدخل في مين يفوز ومين يخسر يا مرعي؟ ما أنت طول عمرك أطوع من «كوبر»..

كان يقصد كلبه؛ كلب راعٍ ألماني ضخم، يعرفه مرعي، ورآه مرات عديدة في السرايا التي يسكنها خليل في هليوبوليس.

كانت الكلمة مُهينة له بشكل كبير، كطعنة نفذت لكبده، فرفع ذقنه لأعلى وأنفاسه تتسارع، وشعر بالغضب يملأ عروقه، وتابع خليل:

- هتديلك كام؟

- المسألة مش فلوس.. المسألة مسألة إنسانية..

لم يعرف لِمَ قال ذلك، لقد اهتزَّ من داخله وهو يقولها، شعر بنفسه يرتعش، نظر له خليل محدقًا وكأنه فوجئ بالكلمة، ثم لم تمر وهلة حتى انفجر ضاحكًا، وردد ساخرًا من بين قهقهته:

- إنسانية!!

وقف مرعي ينظر له بصمت ومخه يغلي في رأسه، وقد تجمَّدت المرارة في حلقه، حتى إذا ما انتهى مسح خليل

عينيه من أثر دموع الضحك، ثم قال:

- إنت صدقت نفسك يا مرعي؟ بطّل الكلام الفارغ دا..

وقف مرعي أمام الرجل جامدًا مثل صنم، لم يعرف ماذا يقول، لقد كان مُحقًّا في كل كلمة قالها، لقد باع ذمته منذ زمن له ولأمثاله، وكان على استعداد أن يبيع نفسه ذاتها لهم مقابل تلك الملاليم التي يرمونها له، لقد كانت كل كلمة نطق بها خليل آقبيق كلمة صحيحة، لم يعرف ماذا يقول، ووجد نفسه يطأطئ رأسه ويومئ بالإيجاب مُذْعِنًا.

- امشي..

قالها له وهو يتلهى ببعض الأوراق أمامه، فدار على عقبيه قاصدًا الباب، كانت خطواته ثقيلة، لقد سلبه خليل آقبيق كل شيء، عرَّاه أمام نفسه، كشف عوراته، لقد كانت زينب محقة..

«أمال إنت إيه يا مرعي!».

كانت أنفاسه تتردد في صدره كما المِرْجَل، دافقة سريعة ساخنة غاضبة، لم يستطع أن يتحرك، وقف في مكانه أمام الباب جامدًا، وهمس:

- كلب!

كان كأنه يهمس بها لنفسه، ولكن خليل سمع همسه، فرفع بصره له، فرأى ظهر مرعي ورأسه المطأطئ، وسأله:

- بتقول إيه؟

التفت له مرعي وهو يرتعش، ثم ردد ما همس به بصوت أعلى وأعضاؤه ترتجف:

- إنت اللي كلب!

لم يصدق خليل ما سمعه، احمرَّت عيناه، ونفرت عروق رقبته، لم يعِ ما قاله كلبه المطيع، هل عضَّ تلك اليد التي مُدَّت له، هل أعلن مرعي المصري الثورة عليه؟ هل جرؤ على ذلك حقًّا!

قال وهو يقوم من مقعده:

- إنت بتقول إيه يا هلفوت يا ابن الصرمة إنت؟

لم يستطع مرعي أن يتمالك نفسه، كان في وسط الحرب تمامًا، لا عودة للوراء، فصرخ:

- إنت اللي كلب إنت والخواجات اللي معاك..

لقد كان يعلم أن كل شيء انتهى، كان يرتعش والدموع متحجِّرة في عينيه، كان يقف في ثبات رجل يهدم حياته بنفسه راضيًا عن نهايته، لقد عاش سنوات وشهورًا في ذلك الجسد الذي لم يكن جسده، وتحدث بتلك الأحاديث التي لم تكن أحاديثه، وهو الآن يرفض كل ذلك.

وقف خليل ينظر له بعينين جاحظتين، ولم يتمالك نفسه، فانتشل علبة التبغ الخشبية من فوق مكتبه، وألقاها باتجاه مرعي صارخًا:

- اخرج!

لم تُصِب العلبة مرعي، ولكن سقطت أسفل قدميه، وتبعثرت على السجاد الفاخر، فنظر لها مرعي، ثم رفع عينيه لخليل الذي كان يلهث وقد تناثرت خصلات شعره مع انفعاله الشديد، ورفع رأسه ورمقه في عينيه بتحدٍّ.

* * * *

خرج مرعي المصري لا يعلم إلى أين يذهب؟ أو لماذا فعل ذلك؟ ما الذي أشعل بداخله جذوة الكرامة والإنسانية؟ هل قصة سليم حقي؟ هل زوجته التي تموت؟ أم إنها ميتسي خشاب من فعلت ذلك، قالت له: أنا أثق بك يا مرعي أفندي.. قالت له: إن الله لم يخلق شيئًا شريرًا. قالت: إنك رجل أمين. لم يقل أحد لمرعي المصري تلك الكلمات من قبل. لم يرَ نفسه بتلك الصورة سابقًا. ما كان وصف خليل بك له بالكلب ليكون مؤلمًا لو لم تقل له هذا.. لو نعته بها منذ شهرين لما فتح فمه، الحقيقة أنه نعته بأقذع من هذا وما حرَّك فيه شعرة.

عندما خرج من مكتب خليل بك كان يشعر بأنه نظيف، أنه إنسان آخر. كان هناك لذة ما لا يعرف مصدرها، إن هناك لذة تكمن في انهيار كل شيء، ربما أمل للبداية من جديد. كانت نبضات قلبه مرتفعة، ويشعر بأنه أخف. سار بخطوات أسرع، ثم لم يشعر إلا وقد جرى، أخذ يجري في الشوارع مثل المجنون، عندما وصل إلى شارع توفيق شعر بأنه تعب، فجلس على الرصيف يلهث. رفع رأسه وأخذ يتأمل الطريق. كانت هذه هي أول مرة يدرك فيها مرعي المصري أنه وحيد. بلا ونيس في الحياة، لم يجد من يخبره بما جرى له. لم يجد أدنى حقوقه في أهم لحظة في حياته؛ أن يتكلم، ويحكي، ويُعبِّر عن ما يعتمل بصدره.

جلس يتأمل الطريق مثل المشردين، ويفكر في حياته. لقد عاش طوال سنوات مثل حيوان ضال، وحيد في عين داخل أحد البيوت في درب الجماميز لا يسأل عن أحد ولا يسأل عنه أحد. لم يعرف علاقة وحيدة صحيحة، لا أهل ولا أصدقاء، حتى الحب ما عاد مرعي المصري يعرفه. لقد فقد الأمل منذ زمن طويل في أن يعطي تلك المشاعر أو أن يأخذها، لكنه اليوم تغيَّر، يريد فقط أن يمنح، أن يضحي حتى بنفسه. لقد كان يسكِّن دائمًا حاجته للحب بقرص أفيون، عندما تقوده قدماه كالبهائم لدرب طياب، فينام فوق غانية من الغواني -لا يعرف حتى اسمها- لمطلع الفجر، ثم يعود كالحيوان

ليتكوم في الزريبة التي يسكنها بعد أن يكون نسي شكلها ورائحتها، وتنتهي الحكاية. لكنه اليوم يريد من تحيا روحه. من يخبرها أنه أصبح رجلًا آخر. أنه ليس معدوم الإنسانية كما قالت له زينب!

بقي جالسًا في مكانه على الرصيف حتى المغيب، عندما حل الليل غادر مصر الجديدة، وذهب إلى خمارة نغازي، ما كان يريد العودة لهناك حتى، ولكنه كذلك ما كان يريد العودة لبيته. شرب الكثير من الخمر، وأخذ يفكر في ميتسي خشاب. تذكر بكاءها في الكنيسة في ذلك اليوم، كانت مثل قديسة حقيقية، كانت النقيض الكامل لقذارته.

بدأت الخمر تلعب برأسه، فأخذ يدخن شاردًا حزينًا، فكر فيما لو أنه أخذ الطريق الآن إلى هليوبوليس، وأخبرها بما جرى له مع خليل بك، ماذا لو قال لها إنه صار إنسانًا جيدًا محترمًا؟ ثم مط شفتيه عندما فكر في سذاجة ما يريد فعله، ما الذي سيهمها في أمره من الأصل؟ إنها لا تراه، لن تراه إلا إذا فازت الفرس.. نعم، ربما وقتها ترى مرعي المصري الحقيقي، لن يفوز خليل بك عليه، ستفوز هذه الفرس التي جاء بها من جزيرة سعود، ومن ثم سيأخذ ماله من الضابط، وبعدها يسدد مال برجس الطحاوي، ثم سيصارحها بكل شيء. سيقول لها إنه يحبها، إنه تغير من أجلها. صحيح أنه صعلوك، ولكنه من الممكن أن يتعلم أي شيء، أن يلبس جيدًا، قد يشبه البهوات، لديه جاكتة من صنع ريبو خياط البهوات والناس المعتبرين حقها ١٢٠ صاغًا، ربما لبس طربوشًا، أو قبعةً، كما تريد! يعرف الإنجليزية، تعلمها من العساكر والمقاولين في ميناء البصل في الإسكندرية، ويمكن أن يرطن بالـ٧ ألسن. ربما كذلك اشترى من سليم حقي الأتوموبيل الذي يريد بيعه كي تكتمل القيافة. المظهر سهل، ولكنها لن تجد أبدًا من هو في (جدعنة) مرعي المصري. لقد أصبح إنسانًا الآن.

لكن أولًا يجب أن تفوز الفرس بنت الحرام تلك، لم تخيّب

فرس ظنه من قبل، كان دائمًا ذا عين نافذة وبصيرة حادة مع الخيل، لقد تربى تحتها منذ أن كان طفلًا صغيرًا، كان والده قومندان السياس في إسطبلات شريف باشا الشهير. يعرف الخيل أكثر مما يعرف البشر، ولكن كيف خذلته تلك الفرس.

أشعل سيجارة أخرى والخمر تلعب برأسه وتأخذه من فكرة إلى أخرى، إن البدو يقولون (المرة من راجلها، والخيل من خيالها)، وهو لم يقتنع يومًا (ببصلة) بهذا الجوكي الإجريجي، إن الفرس تحتاج إلى جوكي جديد، جوكي يفهمها. أفراس الطحاوية لا تُضرب بهذا الشكل، لم تعتدْ ذلك، طرحته أرضًا في المرة الأولى، وفي المرة الثانية خسرت، جاء في عقله ساعتها الولد فوزان، في يوم الميز الذي جرى في جزيرة سعود يوم زفاف ابن العمدة، لقد فاز ابن الحرام على جميع فرسان الطحاوية الذين لا يُشق لهم غبار! فاز بغير سرج ولا رشمة ولا سوط في يده. هكذا تفوز الخيول، عندما يفهمها فرسانها وتفهمهم. الولد حجمه (عصافيري) ولن يكون هناك استشكال في الميزان، وزنه لا يتجاوز خمسين كيلوجرامًا، هم لا يقبلون بوزن للجوكي أكثر من ستين، يستطيع بمعارفه أن ينهي أوراقه الخاصة في الجوكي كلوب(37) في وقت قصير.

كان ينفث دخان سيجارته وهو يحترق مع عقبها، ولم يفق إلا عندما لسعته وهي تنتهي، فأطفأها، ثم خرج محاولًا السيطرة على اتزانه.

لسعته نسمة الهواء الباردة، وجعلته يشعر بنشوة داخلية، تقدم بهدوء وهو يمسح وجهه محاولًا استعادة تركيزه، عندما رآها أمامه؛ زينب!

كانت تتقدم منه بملاءتها اللفّ، ولكن هذه المرة حافية القدمين، وقفت تنظر له، ثم قالت له بتأنيب:

- قلبك مال ليها يا سي مرعي؟!

شعر بغُصَّة في حلقه، وأحس بالاختناق، فقال مقاومًا بكاءه بلسان معوّج:

- لا والله يا زينب! ورحمة....

كاد يقسم ولكنه صمت، فاقتربت منه أكثر:

- العشق بيبان في العيون، وإنت عينيك عشقانة..

أشار مرعي بسبابته منكرًا، وهو يحاول التركيز، ثم قال وهو يزدرد لعابه:

- لا يا زينب! وحياة غلاوتك متظلمينيش، أخزّقهم لو شافوا غيرك! أنا قلبي ممالش غير ليكي، ولا يوم مال عنك.

- إنت بتكدب عليا ولا على نفسك؟

لم يعرف حقًّا إن كان يكذب عليها أم على نفسه. دمعت عيناه، فظلت تتأملهما بصمت، ثم مدت كفها إلى خده، ومسحت بإبهامها في حنان دمعه، فأطرق، واستسلم لكفِّها وترك لها روحه، ولم يفق إلا وهي تسحب يدها، وعندما فتح عينيه لم يجدها أمامه!

* * * *

عثر على مرعي المصري في خمارة كوستيه، كان جالسًا مثل شبح، صار أكثر نحولًا! يسند جبينه لباطن كف يده التي تحمل سيجارة مشتعلة تأكل نفسها، تقدم وجلس أمامه بهدوء، فرفع مرعي له عينين هادئتين، وكأنه لم يتفاجأ بوجوده.

ازدرد سليم لعابه، ثم أخرج تذاكر الرهان من جيبه،

ووضعهم أمام مرعي على الطاولة، فنظر له مرعي نظرة متسائلة..

- طالب منك خدمة أخيرة يا مرعي! اتصرف لي في التذاكر دي، مش عاوزهم، بيعهم.

ابتسم مرعي ابتسامة هادئة، تراجع في مقعده، ثم نظر للأوراق:

- أنا هتصرف لك فيهم، بس مش هرجع لك بيهم فلوس، هبدلهم لك بتذاكر رهان على الفرس بتاعة الست الإنجليزية.

- أنا خلاص يا مرعي، مش رايح ألعب تاني على خيل.

تحوَّلت ملامح مرعي للغضب، وضرب بيده الطاولة بعصبية قبل أن يتم سليم عبارته:

- اسمع.. الفرس رايحة تفوز السبق الجاي، والواد العرباوي بتاع الطحاوية هو اللي هيسابق بيها، مش الركيب بتاعها، ارمي على الفرس ومش هتخسر، الفرس والركيب حتة واحدة، إنت ما شفته يوم الميز!

مطَّ سليم شفتيه بضيق، كان يشعر بعدم جدوى ما يفعله، لن يخاطر بمال مرة أخرى، ما كان يريد ذلك من البداية، جاء هنا ليعلن ثورته على كل غبائه، والآن هذا الشيطان يواجهه بكل تلك المخططات المجنونة.

- أنا مش حمل خسارة يا مرعي، مراتي تعـ.....

قاطعه مرعي بانفعال:

- ما علشان حرمتك، الورق الفندقي عزيز، ميجيش بالساهل، إنت سيد العارفين، بلا قافية إنت مش مستخدم في الحكومة علشان تقبض ماهيتك آخر الشهر بالصاغ

الميري. اللعب على الخيل زي الموج، مرة فوق ومرة تحت، ميبقاش عضمك طري متخليش الخسارة تتلف أملك.. مفيش حاجة ببلاش إلا العمى والطراش يا أفندي.. نصيبي المرادي في المِية النص..

فكر سليم في عايدة، كان مرتبكًا لا يعرف ما الصواب وما الخطأ، قد يكون ما يقوله مرعي المصري هو الحل؟ كيف سيسدد أموال آشود؟ من سيوفرها له؟ لن تكفي ماهية ميتسي خشاب له. لن يغير ذلك إلا ضربة الحظ التي ستعيد كل مقلوب لاتزانه.

كان مرعي المصري لا يزال يتحدث:

- بكرة تجيب لي الواد العرباوي التلفان دا عند المطار في هليوبوليس، وأنا هيكون معايا الفرس..

قالها وهو يطفئ سيجارته في المنفضة، وينظر لسليم بهدوء، لم يتكلم الأخير، كان صمته إذعانًا، لم يرفض، كذب على نفسه كما يفعل كل الملعونين بالأمل الكاذب، كذب على نفسه بأمنية أخرى واحتمال جديد ومبالغة ثانية في الرجاء.. فربما.. لو فاز في هذا السبق استيقظ ذات يوم ووجد الماضي قد عاد إلى مثل ما كان عليه، قبل أن يتهاوى كل شيء!

* * * *

في اليوم التالي أوقف سليم حقي الأتوموبيل في المكان الذي استقر عليه مع مرعي المصري، وجدوه هناك واقفًا يمسك برَسَن الفرس البيضاء في الصحراء يتأمل الصحراء الخاوية على أطراف الضاحية. على بُعد أمتار لمح الأسلاك الشائكة للمطار.

عندما نزل مع فوزان رأى الطائرات الشراعية في الهواء، منذ عامين فقط كان سلاح الجو البريطاني يستخدم هذا

المطار في طلعاته الجوية إبان الحرب وما بعدها. لم يكن فوزان الطحاوي قد رأى طائرة من قبل، ظل مبهورًا بما يراه، لم ينتبه حتى لما كان مرعي المصري يقوله. كان يقول شيئًا عن الفرس وركوبها في السباق، لكنه لم يكن مهتمًا؛ كان يتابع الطائرات أمّ أجنحة التي تُحلّق مثل النسور في الجو!

- سمعتني!!

لم يفق إلا على صيحته الغاضبة، التفت له وكأنه يستكشف وجوده من الأصل، فوجد سليم حقي يقف وراءه، بينما مرعي المصري ينظر له بضيق، قال:

- تشتغل بحق قعدتك وأكلتك ونومتك، بدل ما يجيبوا لك ركيب خواجة لاسم النبي حارسها «شمعة»، تسابق بها إنت، جحا أولى بلحم ثوره!

استوعب في تلك اللحظة أنه يطلب منه أن يسابق بالفرس في السباق، شعر بشيء يقبض قلبه، لن يفعل ذلك، إن السباق مخيف، مئات البشر يترصدون في المدرجات، أناس من كل أصقاع الأرض، همُّهُم المال، حتى الفرسان ليسوا كالفرسان، إنهم أشبه بالعساكر، إن السبق هنا ليس كالسبق في جزيرة سعود بين أهله وأقاربه. إنها مطحنة، وهو سيكون بين رحاها!

- لا يا أفندي..

ثم التفت إلى سليم:

- ميته برجع جزيرة سعود يا سليم أفندي؟

كان كأنه يهرب، وهو ما أثار غضب مرعي المصري الذي صاح بغضب وهو يترك رسن الفرس:

- يعني إيه «لأ»!

اندفع نحوه وأمسكه من خناقه، وقد تحول إلى مارد غاضب:

- إن ما كنت تطاوعني على فكري، رايح أقول للبوليس إن معاك طبنجة مسروقة من واحد من عساكر الإنجليز، وإنك اللي قتلته، وسرقت الفرد منه..

اتسعت عينا فوزان في رعب:

- لا يا أفندي أنا ما قتلت..

صرخ سليم حقي صرخة هادرة:

- مرعي! اتجننت..

لكن الأخير لم يهتم:

- وأنت فاكرهم رايحين يصدقوك؟ دي حكومة، والطبنجة عليها نقش الجيش الإنجليزي، ولا ليها رخصة ولا دياولو.. ملكش دية.. اصطفي بقى مع بهوات الميري.

قالها ودفعه فسقط فوق الأرض في الوقت ذاته الذي دفع فيه سليم حقي مرعي في صدره، فتراجع، ثم قال وهو ينظر لفوزان على الأرض:

- إنت عارف بيعملوا إيه في القتلة والمجرمين اللي زي حالاتك؟ بيعدموهم في قراميدان، قدام الخلق، ويعلقوا في رقابيهم ورقة باللي عملوه، علشان يكونوا عبرة يستعبر بيها اللي يسوى واللي ميسواش، والناس تتفرج عليهم في الرايحة والجاية.

صمت لحظة يرى أثر الهلع على وجه الصبي، ثم أخرج علبة

سجائره من جيبه، ووقف يتأمل سليم حقي والصبي الذي يبكي، وقال وهو يضع العقب في فمه:

- إنت صغير على الموت، صعبان عليا، وأنا شايفك متعلق كده من رقبتك زي العجول في الحسينية، إخص على دي ختمة، وعلشان إيه؟

كان فوزان يجهش في البكاء، في انهيار تام، صمت، ووضع رأسه بين ركبتيه، متحاشيًا النظر إلى مرعي، الذي مط شفتيه في ضيق، بينما سليم يرمقه بنظرة غضب.

لم يعرف مرعي المصري ذاته لِمَ فعل ذلك، لقد ضبط كل شيء في عقله، والآن يفسد عليه الأمر أحقر ترس في الماكينة كلها، كان يشعر بالثورة ولا يدري ماذا يفعل، مكسبه هذه المرة كبير، ٥٠٪ من سليم حقي، وتعويض حقيقي عن الغباء الذي ارتكبه يومها في مكتب خليل بك. ولكن من قال إن الفرس ستفوز من الأصل. لقد أعماه الغضب عن الحقيقة كاملة.. حتى عندما أراد أن يفعل خيرًا شوَّهه بحماقته!

- امشي يا مرعي.

قالها سليم حقي بحزم، وهو يرمقه بنظرة نارية.

- أنا همشي بمزاجي.. وسَّع.

أزاحه من وجهه، ثم تقدم يسحب الفرس، لكنه توقف والتفت له:

- خليك فاكر. أنا بعمل كده علشان الحرمة بتاعتك..

والتفت لفوزان:

- عقّله..

* * * *

جلس سليم حقي صامتًا أمام عجلة القيادة، ونهنهات الولد فوزان على المقعد المجاور، ما عاد يهتم بمشهد الطائرات التي تُحلِّق في الهواء كالنسور، ما عاد يهتم بالأتوموبيلات، ولا الأفندية أو الخواجات ولا الخيول، صار يشعر برغبة حقيقية في أن يحتضن أمه زاهية، ويبتعد عن كل هؤلاء الوحوش. إن هذا العالم أقسى مما يبدو شكله اللامع. لم يقل شيئًا، ولكن سليم حقي قال بصوت متحشرج وهو خافض رأسه:

- متخافش، هرجعك بلدك.

كان يشعر بما يعتمل في صدره. التفت له فوزان، فوجده حزينًا مكلومًا. ينظر للأرض.

في المساء ذهب سليم حقي لمرعي المصري في خمارة كوستيه، وجده جالسًا مهمومًا يشرب وحيدًا. سأله:

- فين فلوس الواد علشان يسافر لعمه؟

رفع مرعي المصري له عينين لامباليتين، نفث دخان سيجاره:

- مفيش فلوس.. الفلوس اتسرقت.. عشان كده كان بدّي يسابق بالرهَوان.. عشان ياخد فلوسه ويغور. بس إنت قلبك حنين، يصحّ الجماعة الخواجات يشغلوك معاهم في الصليب الأحمر.

صمت سليم حقي وجلس، لم يملك القدرة على أن يرد، لام نفسه على ما فعله منذ البداية، على الأمل الذي أخذ يقوده من درب إلى درب حتى اصطدم في جدار. كان من الأسهل أن تذهب عايدة لأبيها في المنصورة، وتنتهي تلك

السلسلة الطويلة من المعاناة. ينتهي طريق الألم الذي اختار أن يسير فيه باسم الحب.

هذا ليس حبًّا يا سليم يا حقي.

شرب كثيرًا في هذه الليلة، شرب أكثر من مرعي المصري الذي تعجَّب عندما رآه يشرب لأول مرة. رأى الدموع في عينيه متجمدة، وفمه مفتوح كمن يتألم ولا يقدر على أن يتأوه.

بعد منتصف الليل تركه ورحل.

* * * *

قاد أتوموبيله في الليل نحو هليوبوليس، كشبح، أضواء الطريق تنعكس على وجهه، وعن يساره خيام معسكر الإنجليز، ألف ألف خيمة.

طفر الدمع من عينيه وهو يترنح مع اهتزاز السيارة اهتزازًا يكاد يجبره على النوم، ولكنه لا ينام، هو لا ينام منذ شهور، تراوده الكوابيس، يحلم كثيرًا بالديوك!

كان عاجزًا عن التصرف والتفكير. وكانت صورة المرأة الإنجليزية حاضرة أمامه. قبل الفجر بساعة كان قد وصل إلى سرايا خشاب. أضواء مصابيح أتوموبيله أعمت بواب السرايا. قال له إنه يريد أن يقابل الهانم، البواب سمح له بالدخول، واستقبله عثمان الذي قال له ببرود:

- الوقت متأخر يا أفندي.

كان مخمورًا، غير قادر على إدراك أشياء كثيرة، قال له:

- قولها أني عاوز أقابلها.

- لا يصحّ.

شعر بالغضب، ثم صرخ بصوت مرتفع:

- يا مسز ميتسي! يا ست ميتسي..

حاول عثمان أن يكفَّه، لكنه صار يصرخ بصوت أعلى، مع صراخه أخذ يبكي. خرج نداؤه مشروخًا بكل الألم في عز الليل. استيقظ الخدم، ونبحت كلاب. وأضيئت أنوار من شبابيك السرايا، ثم انفتح الباب، ورآها بروب «دي شامب»، وعلى ملامحها أثر النوم.

كان واقفًا أمامها مهترءًا، متألمًا، بلا طربوش فوق رأسه، أزرار قميصه محلولة، وفي عينيه أثر دموع. رفعت حاجبيها عندما رأته على تلك الخلقة، أمرت عثمان أن يتركه، أخذته من يده إلى الداخل، وجلست أمامه. ظل ينظر لها بألم.

كان صمت يغلف المكان، لا يضيء الردهة إلا أضواء شموع خافتة، ولا يُسمع فيها غير صوت ساعة دقاقة، تُنبئ عن تأخر الوقت. رأت دموعه مثل الزجاج في عينيه، فقالت بحنان:

- اهدأ.

اقتربت منها خادمة تسألها إن كانت تحتاج لشيء، لكنها صرفتها بهدوء، ثم التفتت له، فقال لها والدموع تطفر من عينيه:

- ما هو أول ما تشعرين به عند فقد شخص تحبينه؟؟

كان مؤمنًا أنها هي الوحيدة التي تملك الإجابة، كانت حقًّا تملكها، صمتت، ثم أمسكت بيده.

ظلت لحظة تقاوم الانفعال، ثم مطَّت شفتيها، وقالت بصوت حنون رخيم:

- في البداية لن تصدق. ستنكر هذا.

دمعت عيناها في تلك اللحظة، فمسحت دموعها ثم استطردت:

- .. عندما يقولون لك إنه مات، لن تتألم مباشرة؛ لأنك ستُكذِّب نفسك. ثم ستسأل: لماذا؟ وستغضب، وعندما لن تأتيك الإجابة ستصمت، ثم ستساوم. سيظهر الأمل الكاذب. سيقول لك إنه من الممكن أن يعود كل شيء كما كان.. ثم... ثم سيأتي الحزن لينقذك، سيترسب عميقًا في قلبك مثل مرساة، ولن يفارقك، لكنك ستعيش.

قالت الكلمة الأخيرة وهي تبتسم في مرارة، فقال والدموع تعمي ناظريه:

- أنا خائف.

جلست بجانبه، ثم قالت له مطمئنةً:

- لا تخَفْ.

ضمَّت رأسه لصدرها فبكى، انهار بالكلية في نُواحٍ عظيم، كانت الخمر تعزز مشاعره، تُفقده السيطرة على نفسه، فلم يَعِ إلا وهو في دفء حضنها، الخادم عثمان رآهما ومط شفتيه بضيق. لكنها لم تهتم، جعلت تُهدِّئ من روعه. ربتت فوق ظهره حتى سكن، أخذ ينشج، ثم أفاق مما هو فيه، فاعتدل، نظر لها كأنه يكتشف وجودها من الأصل، كأنه أدرك حماقة ما فعله، فقام مسرعًا وهو يقول:

- أنا آسف!

ابتلعت لعابها مترددة، ثم قالت:

- لا عليك.. لا تقلق.

أومأ لها برأسه بحركة عسكرية ميكانيكية فيها بعض الحزم، ثم غادر، وكأنه يهرب منها، بعينين ذابلتين من البكاء.

اختفى بالخارج، وسمعت صوت محرك أتوموبيله يدور، ثم رأت أضواءه تخترق الشبابيك عبر الستائر، ثم سمعته يبتعد، ونظرت لعثمان خادمها، وابتسمت في رفق مُهّوِنة!

* * * *

عندما دخل بيته عند الفجر، كانت أنوار الصباح البيضاء تتسلل عبر المشربية، أضاءت الردهة ليرى فوزان جالسًا على الأرض يضم ركبتيه إلى صدره، كان كأنه قاوم النوم ليلة كاملة. عندما رآه فوزان رفع له عينين مرهقتين، قال له:

- يا أفندي! أنا موافق أسابق. علشان الست عايدة. أنا موافق!

ابتسم سليم حقي والدموع في عينيه!

* * * *

---

(37)الهيئة المنظمة لسباقات الخيل، والقائمة على وضع قواعد اللعبة، وكانت السباقات في مصر تخضع لقواعد ورقابة الجوكي كلوب في إنجلترا.

الخيل وخيَّالها

(١)

استطاع مرعي المصري أن يقنعها بالتخلي عن الجوكي اليوناني، أخبرها أنه يتحمَّل المسؤولية كاملة من الآن. تحوَّل الأمر بداخله إلى ثأر شخصي ضد خليل بك. وافقته وهي تبتسم، لم تعوِّل كثيرًا على مكسب أو خسارة.

هل كان ثأرًا أم رغبةً في إنقاذ المركب التي تغرق، لم يعرف مرعي ما الذي كان يُحركه في هذه الأيام، حقيقة إحساسه ظل أمرًا مجهولًا بالنسبة له.

قبل البدء في أي شيء أخذوا الغلام بالأتومobيل إلى محل شملا بشارع فؤاد، لشراء أردية مناسبة، لا يصلح أن يكون

الجوكي الخاص بميتسي هانم على تلك الخلقة الرثة، ظل طوال الطريق يتأمل الناس، والوجوه، وعربات الترامواي، وعساكر الإنجليز في الشوارع، عندما وصلوا للمحل نزل، وقف على الباب، وأخذ يحملق في الملابس خلف الفتارين اللامعة وعيناه متسعتان.

مرعي قال ساخرًا:

- واقف مِبلِّم كده ليه؟ أمال لما نشتري لك الكسوة.

ابتسم سليم بهدوء، وأخذه من كتفه، اشتروا له يومها جاكت بـ١٥٠ صاغًا، وحذاء (إزاز) بإبزيم نحاسي لامع، وطربوشًا بـ٣٠ قرشًا. لم يفته أن يضع ذلك على حساب ميتسي هانم خشاب، ويرسل العاملين بالفاتورة على هناك.

عندما رآه مرعي بهيئته الكاملة بالطربوش والسروال

القصير والشراب والحذاء الأسود اللامع قال له:

- بقيت آخر آلاجة، ولا تلاميذ المدارس!

ابتسم فوزان الطحاوي رغمًا عنه، رأى نفسه ولدًا آخر في المرآة، كانت تلك اللحظة البسيطة بالنسبة لسليم حقي ومرعي المصري هي أهم لحظة في حياة فوزان الطحاوي. تمنى وهو في هذه اللحظة أمام المرآة والخواجة أمامه أن تراه أمه، بهذه الخلقة المحترمة البهية اللامعة، إنه مثل الأفندية وأولاد الذوات المحترمين ذوي الحيثية. لم يوجد رجل في جزيرة سعود بأكملها ارتدى هذا الطربوش، لم يوجد رجل منهم ارتدى مثل هذه الجزمة! العمدة نفسه لم يفعلها. الآن هو يفعلها. صحيح أن الحذاء ضيق، يُقيد أصابع قدمه ويعتصرها، وصحيح أن ياقة القميص المنشّاة حادة تخنق عنقه، وصحيح أن الطربوش مكبوس فوق رأسه مثل سلطانية الحساء بزرٍّ أسود أنيق، ولكن كل ذلك ما كان يهمه. كانت لحظة كالحلم. كان يضحك رغمًا عنه مثل أبله، ينظر لسليم حقي ومرعي المصري بنظرات تملؤها السعادة، كان يريد أن يقفز في مكانه، أن يصرخ، ولكن ما كان يمكن أن يحدث هذا وسط المحل.

سيظل فوزان الطحاوي يحتفظ بهذا الزي والطربوش طوال عمره.

في تلك الليلة التي سيموت فيها سيعثر خدم غالب الطحاوي عليهم في صندوق، سيكون الطربوش مضغوطًا غير منفوخ، لكنه سيكون لا يزال محتفظًا بلونه القاني الجميل، وستكون الجزمة ذات الإبزيم فوقه، وتحتهما الجاكتة والسروال القصير، وفوقهم سجادة صلاة، وُضِعَت بقصد إخفاء هذا الكنز الثمين المنسي.

سيحتفظ بهم فوزان الطحاوي طوال عمره رغم كبر جسده، وعدم لياقتها به. ستظل ذكرى حتى يموت، سيتعجب خدم

غالب الذين لم يروا فوزان الطحاوي في حياتهم إلا يرتدي العمة والجلباب الكستور، وفوقه جاكت كاكي بجيوب كثيرة كان اشتراه من أحد العسكر ذات يوم بعد الحرب العالمية الثانية.

لن يروه إلا على تلك الخلقة حتى يوم مماته في جزيرة سعود.

لكن في ذلك اليوم سيرون هذه الملابس، سيبعثرونها، ويفتشونها بحثًا عن تلك العقود المزعومة، وسيتركونها فوق الأرض. ولن يقفوا كثيرًا عندها!

* * * *

حذره سليم حقي من أن يخبر عايدة بشيء عن أمر السباق؛ وعدها ألا يعود مرة أخرى. أومأ فوزان الطحاوي موافقًا وهو يشعر بثقل فوق صدره!

بدأت التدريبات مباشرة، في الإسطبل، ألبسوه مثل الجوكية؛ قميص من الحرير الأحمر بأكمام بيضاء، وكاسكيت، وسراويل ضيقة محكمة على فخذيه، وحذاء جلدي برقبة مرتفعة، ووضعوا في يده سوطًا!

مرعي كان يشرف على كل ذلك، وكان الولد مرتعشًا، مشاعره مختلطة بين خوف وفضول.

فوزان كان قلقًا، فصحيح أنه صار مرة أخرى بجوار الفرس التي يحبها، ولكنه في الوقت نفسه ما كان معتادًا على تلك القيود التي فرضوها عليه منذ اليوم الأول، علّمه مرعي طريقة ركوب خاصة بوضعية «القرفصاء». وضعية تتيح للجوكية في السباقات أن يطفوا بأجسامهم على ظهر الفرس، فيوفروا طاقة حَمْلها لهم، ويظهرون أثناء الجري كأنهم وقوف على الركاب.

كان كل شيء مختلفًا عن تلك الطريقة التي كان يسابق بها هناك في جزيرة سعود، حتى الأزياء، لقد صار يُشبه ملاعيب القراقوزات التي كان يراها في بلدتهم!

كان التدريب يبدأ من بعد الفجر وحتى العصر، بخطوات المسار ثم الخبب، ثم تبدأ الفرس بالترحيل، ثم تفتح بأقصى سرعتها عبر المضمار لربع ساعة، وتعود مرة أخرى لتكرر ما كانت تفعله بعد الاستراحة. كل ذلك ومرعي المصري يمسك بساعة بكاتينة، يراقب عقاربها وسرعة الفرس عليها.

في اليوم الثاني زارتهم ميتسي بنفسها مع خادمها، توقف أتوموبيلها الأزرق الفخم داخل المضمار، وهبطت منه هادئة بسيطة كعادتها.

حيَّت سليم حقي بابتسامة خفيفة، فنظر للأرض وحيَّاها، لم يكن بعدُ قد نسي تلك الفوضى التي صنعها يوم زارها مساءً، التفتت لمرعي:

- كيف حالك يا أفندي؟

عندما نظرت نحو الفرس وجدت فوزان فوقه في كامل عدته، لم تعرف لِمَ رقَّ قلبها في تلك اللحظة، لم تفهم لِمَ شعرت بأنها غير قادرة على التنفس، قالت لمرعي بعين دامعة بالإنجليزية كي لا يفهمها الولد:

- إنه صغير!

ضحك مرعي بصوت مرتفع، وقال بالعربية دون أن ينتبه متقدمًا وهو يربت على رقبة الفرس:

- بس ابن جنّية! متخافيش يا ست هانم.

لم تكن تقصد أنه قليل الخبرة، كانت تقصد أنه في مثل عمر ابنها ديفيز. لو كان حيًّا الآن لكان بنفس جسده

وهيئته، سليم حقي فهم ما قصدته. رأى الدموع المتجمدة في عينيها، وارتعاشة أطرافها!

تقدمت نحو الفرس، ثم توقفت أمام فوزان المتعجب، ظل ينظر لها من فوق الركاب غير فاهم. نظرت له طويلًا وصمتت. رأى الدموع في محجريها. مسحت عينها قبل أن تفرَّ الدمعة، ثم مدت يدها لأعلى مصافِحةً، وهي تقول:

- Welcome little master!

تردد فوزان لوهلة، ثم نظر لمرعي، وكأنه يتأكد من إن كان مسموح له بمصافحتها، ثم مدَّ يده لها، صافحته، وهي تكتم دموعها!

أخذت مكانها في المدرجات تراقب الفرس والجوكي الجديد عليها. وكان سليم يسترق لها النظرات من آن لآخر.

* * * *

في الأيام التالية لم تنقطع ميتسي عن الحضور، حتى أصبح حضورها مألوفًا لهم كل صباح، وكان مرعي المصري سعيدًا بهذا الحضور، كان يتحدث معها دائمًا، يضحك، وتضحك، ويضحك فوزان.

لكن سليم حقي كان دومًا بعيدًا. اختار عزلته تلك، وكان ينظر لهم كلما ضحكوا، ويمثل انشغاله بتدوين شيء ما أو تفقُّد الفرس. لم يكن في نظره يستحق ضحكة، إنه بقايا إنسان يجب أن تعمل من أجل أن تنقذ روحًا؛ روحًا يحبها وتتألم، ماذا يفعل هنا؟! إنه غير مفيد بالمرة، لا شيء سوى ملاحظات كان يكتبها في قصاصة ورق عن أداء الفرس، ملاحظات قد لا تنفع من الأصل. أخبر بها مرعي قبل السباق بيومين:

- الفرس جرَّاية، بس أقصابها ضعيفة..

قال مرعي بقلق:

- الخيل اللي هتسابقها عفيّة، هيعدموها العافية بالتزانيق الهباب.. والبهوات اللي فوق مش هيسيبوها لحالها..

- بهوات مين؟

تنبَّه مرعي في هذه اللحظة لما قاله، فارتبك لوهلة، كاد يقع بلسانه، لم يكن لديه القدرة على إخباره بكل ما يجري وراء الستار، فقال وكأنه يسأله:

- والحل؟

حار سليم جوابًا، فقال مرعي وهو ينظر للفرس محاولًا تشتيت انتباهه:

- الأمل الوحيد في جريها، هتعوَّق في الأول، بس لازم لما يطلبها تسد..

- يعني؟

- يعني توفر عافيتها لآخر السبق، هتتأخر لحد آخر ثلاثين قصبة، بعدها هيسوقها على آخر ستيم لحد آخر الخط، لما تكون باقي الخيل طلع روحها، ويا تسبق يا متسبقش.. الله يكسّب!

- وقدر إنها مجرتش؟

مطَّ مرعي شفتيه وصمت، فلما رآه سليم شعر بالقلق في صدره من جديد.

* * * *

في ليلة السباق تأخروا في المضمار، كانت مصابيح الأتوموبيل تضيء لهم. لم يكن يسمع في وسط الليل غير طربقة حوافر الفرس، وهي تدور حول المضمار وفوزان فوقها، ومرعي يراقبه.

التفتت ميتسي لسليم، وسألته:

- على مَن تخاف من الموت؟

التفت لها، تردد، ثم عاد ينظر للفرس، سألته:

- امرأة؟

تحشرج صوته:

- نعم!

- تحبها؟

اغرورقت عيناه، ثم نظر للسماء محاولًا البحث عن القمر، وشعر بغُصَّة في حلقه.

- تعرف يا أفندي، لقد عشتُ طوال عمري أركض وراء أشياء لا أصِل إليها، حتى وإن وصلتُ فإنها لا تكون مثلما تخيلتها، السعادة في أحلامنا فقط، إن كل أمنية يصبو لها الإنسان ويصل لها تصبح منقوصة. لا تطابق أحلامه، لن تكون الصورة أبدًا كاملة، إن من تتطابق أمانيهم مع واقعهم هم الأنبياء فقط، أما نحن فإن أقصى ما يمكن أن نصِل له في هذه الدنيا هو أن نقف على عتبات أحلامنا.. ولذلك أنا خائفة من أن أفوز غدًا بالسباق.

تعجَّب سليم، والتفت وسألها:

- خائفة؟

ابتسمت:

- خائفة من أن أفقد الأمل، بالوصول له، أحيانًا تكون أمنياتنا غير المحققة هي ذريعتنا للاستمرار.

كان يفهم ماذا تقصد، التفت لها وابتسم.

* * * *

عندما أعادوا الفرس إلى الإسطبل، جلس فوزان يستريح، ظهره لحائط المربط المدهون بالجير تحت كلوب الغاز، يلقي نظرة على الكشك المخصوص الذي فيه فرسته البيضاء، يصفر لها فتتحرك وتطل برأسها منه، وتنظر له بعينيها المكتحلتين في فضول، وتراقبه وهلة وكأنها تتأكد من وجوده ثم تغيب بالداخل، فيعود يصفر لها من جديد، فتظهر ثانية وتطل.

- تعي! تعي!

كانت تشبه طفلة صغيرة شقية حُرة، وكانت حريتها تلك تعطيه بعض الراحة، وكأنه ما زال في الصحراء التي يفتقدها.

إن كل شيء في هذا الإسطبل أكثر ألفة؛ رائحة التبن والعلف والروث وعرق الخيل، كلها أشياء تجعله يشعر بالألفة القديمة.

- أنت من الطحاوية، مش كدي؟ لسانك بيقول كدي..

سمع الصوت من خلفه، فالتفت له ورفع بصره، فإذا به الحاج ونيس؛ أكبر سياس الإسطبل، رجل سوداني كهل قارب الثمانين، أسود البشرة، يرتدي جلابية وعمة بيضاء، وله لحية كنُدَف القطن، رآه فوزان يجلس أغلب يومه على الأرض

فاردًا ساقيه أمامه، يراقب عمل السُّيَّاس في عملهم بين الخيل وهو يهش الذباب عن قدميه الحافيتين لا أكثر ولا أقل!

لم ينتظر الرجل الإجابة من الغلام، ولكنه قال في وهن:

- الطحاوية ديل كانوا سماسرة الحاج عباس، كان يرسلهم لي آخر الدنيا يجيبو ليهو بالخيول الأصيلة دي.

ابتسم فوزان في خجل، وتابع الرجل وهو يشير إلى الخيول في المربط:

- أنت بتحب الخيل، الخيول ديل اللي بيحبها بيظهر في عيونو، وعمك كبير كدي يعرف يقرا عيون شافع صغير زيك أكيد، وأنت يا زول قليبك إتجمع في عيونك..

شعر بألفة غريبة تجاه الرجل فور أن رآه، تلاقت روحاهما في ذلك المكان، علم في الأيام التالية أنه الوحيد المخول له من السياس أن يبيت في الإسطبل، يبيت في حجرة مجاورة لغرفة تخزين الدريس.

رآه يوم ضربه الجوكي اليوناني، ولكنه لم يستطع أن يتحرك، أحبه منذ ذلك اليوم، قال له الرجل:

- الخيل مغرورة في وشها العز، ما بتحب إلا اللي بكرمها، والخواجات ما بعرفوا كيف يكرموها، ما بفهموها، الخيول أصيلة يا ولدي، ما بتعيش إلا في الصحرا، طلعت من الرمل، وما بتعيش إلا فيه، الخيل دا محلها ما هنا؛ في الإسطبل دا، ولا عشان تتسابق، الخيل ما خلقوها للسباق.

سأله فوزان:

- أمال ليه خلقوها يا عم؟

- أأي!! خلقوها للجَمال، شوف جَمالها! لكن الناس ديل بيسابقوا عشان القروش.. الناس ديل بيقتلوا الخيل في السباقات ساكت علشان حبة قروش، الخواجات ديل ما يعرفوا إلا كلام الشرتيت، ما بعرفوا إلا ينهبوا الناس، الخيل حرة، تعشق الحرية، أنت قايل الخيل دي مبسوط هنا؟

ألقى فوزان نظرة على فرسته «شمعة» الحبيسة بينما تابع الرجل:

- بيأكلوها أحسن أكل، جايبين لها حكيمباشي خبرة من بره يطمن عليها يومي على الله، بعد ده كله أنت قايلها مبسوط ومرتاح؟! لا.. ما في حاجة في الدنيا بتشبه الحرية.

كان في عيني الرجل حزن قديم يدفع فوزان إلى الحديث معه بفضول، وجد أخيرًا إنسانًا في تلك البلد القاسية يفهم ما يفهمه عن الخيل، ويشعر بما يشعر به تجاهها.

عرف أن الحاج ونيس كان طفلًا صغيرًا عندما جلبوه من دنقلة كعبد منذ أكثر من سبعين عامًا، وساقوه لمرابط عباس باشا، حكى له عن العمل في ذلك المربط، وعن المزاد الذي قاموا به لبيع خيول عباس الأصيلة بعد موته، وكيف تهافت عليها الأجانب الكفار.

تحدث الرجل كثيرًا، ثم صمت في أسى والدموع تتجمد في عينيه، قال له:

- البلد دي ما بقى فيها خيل أصيلة، ومرابط الحاج عباس بقت كلها معسكرات للعسكر الإنجليز، الخواجات شالوا الخيل كلها، لكن الجماعة ديل ما فاهمين، الخيل دي لمن يشيلوها من أرضها ما بتكون هي، بتروح روحها، أنت يا ولدي هتروح منك نفسك بعد سنين من العيشة في البلد دي.. زي ما راحت روحي تمام!

نظر فوزان للأرض وتابع ونيس:

- أنت هنا في دنيا القروش والجشع، دنيا السبق، أي شي هنا بيسعروه، حتى شرف الرجال، الناس هنا عبيد والمال سيدها!

تحدث ونيس ثم صمت لمَّا لم يجد ردًّا من الولد البدوي، رفع رأسه ونظر للفرس البيضاء التي يلمع جلدها أسفل ضوء الكلوبات في الليل، وابتسم ثم قال بأسى:

- يا أخي أنا شفقان على الفرس الجميل دي، لي زمن طويل ما شفت فرس زيها، بتشبه الغزلان!

شعر فوزان بغصة في حلقه عندما توجه الحديث إلى الفرس، وتأملها في صمت، العجوز يثير الفزع في نفسه، وفي الليلة نفسها رأى نفسه في المنام كهلًا في آخر العمر بجوار فرس ميتة، بطنها منفوخ، وعلى وجهها ملامح الفزع، فقام من نومه في هلع!

قام وسط الليل، فسمع صوت النشيج الصامت.

استيقظ من النوم متعرقًا وهو يشعر بذلك الانقباض الشديد في قلبه، لِمَ هو في ذلك المكان الغريب، وسط كل هؤلاء الغرباء! افتقد أمه في هذه الليلة، وتمنى أن يعود، ألا تُسلب روحه وتموت الحياة في عينيه ويشيخ مثل ونيس العجوز.

هل تفعل الحياة كل ذلك بالإنسان؟ تلقيه إلى هذا المصير بعد معركته الطويلة معها، عجوزًا، واهنًا، مهملًا، ملقى على هامشها، مجردًا من الأماني، منسيًا في إسطبل خيل يتحدث عن ماضيه أكثر من حاضره بكل هذا الأسى؟

لقد شعر بهذا الكم الغريب من الحزن في حديث ونيس، في أنفاسه الثقيلة ومشيته البطيئة المُتعَبة، وفكر في أنه رجل قتلته الحياة.

* * * *

(٢)

في اليوم التالي أخذه مرعي لمبنى الموازين وراء المضمار، بزي الجوكية، حمل في يده السرج الذي سوف يوضع على ظهر الفرس، وزنوه به مع الجوكية الآخرين على الطورناط مثلما توزن الخراف!

كان يسمع الضجيج بالخارج، أصوات الجماهير المليئة بالحماس تجعله يرتعش، يشعر برغبة في الهروب، لكنه لن يهرب. كانت ضربات قلبه مرتفعة ترجُّ جسده الصغير.

مرعي لم يتوقف عن إعطائه التعليمات:

- الفرس عزيزة، متضربهاش بالكرباج إلا آخر السبق، لما تشوف اليافطة الحمراء أم عَلَم..

- متزاحمش، الفرس أقصابها ضعفانة والخيل تقيلة حواليها..

مُكبِّر الصوت الداخلي يعلن أسماء الخيول وأرقامها، حصلت «شمعة» على الرقم «٦».

وصل سليم وقلبه يدق، في رأسه صورة واحدة، عايدة! يشعر بتلك المرارة في قلبه، وكلما هاجمته صورة هزيمته نفض عن رأسه شكل النهاية التي ينتظرها.

مرعي كذلك كان قلقًا، ورغم أنه أحرق أكثر من عشر لفافات تبغ حتى أصبحت رائحته كمصنع طوب إلا أن القلق لم يفارقه، ولكن كأسين من الخمر كانا قد ساعداه على الثبات بعض الشيء. ركب فوزان الفرس، وسحبه مرعي إلى حيث المضمار والمدرجات في الجهة الأخرى.

التفت نحو المدرجات، فرأى خليل بك جالسًا في الصف الأول وسط الذوات والباشوات، بكامل قيافته، وقد ارتدى نظارةً بعدسات زرقاء، وقفازات من الجلد الفاخر، أكملت مظهره الفارِه؛ بجواره زوجته الأمريكية، وعدد من النساء الأخريات ذوات الهندام الشديد.

كان ينظر له، لم يستطع تحديد نوع تلك النظرة إن كانت نظرة تحدٍّ أم وعيد من خلف النظارة الداكنة، ولكنه كان يعلم جيدًا أنه لا يريد أن يتمادى في خلافه معه أكثر، لو أراد ذلك كان من السهل أن يمنعه من دخول المضمار من الأصل، ولكنه يخشاه، يخشى الفضيحة، وحديثه إلى الجورنالجية في الجرائد وفضح كل تلك الملاعيب التي يلعبها.

التفت إلى الفرس التي كانت في ساحة الإحماء، ولم يجد بُدًّا من ممارسة ألاعيبه القديمة، فتقدَّم منها، وهو يتلفت حوله ليتأكد من أن لا أحد يراه، قبل أن يميل على الفرس متظاهرًا بربط القشاط على بطنها، لكنه أخرج الزمزمية -التي يفرغ فيها من زجاجات الخمر- من جيبه وصبَّ منها في كفه، قبل أن يدهن بها بطن الفرس التي انتفضت مع برودة الكحول على جلدها وصاح فوزان:

- وش تعمل؟

فقال مرعي وهو ينظر حوله:

- شش! خليك في حالك.

كان الكحول قد ترك أثرًا باردًا على الفرس وإحساسًا بالانتعاش، فصارت أكثر نشاطًا، تتحرك بقوة فوق الأرض، لكن فوزان سيطر عليها بصعوبة.

عندما انتهى مرعي شرب رشفة من الزمزمية، ومسح فمه بكمِّه، وأعادها ثانية إلى جيبه!

* * * *

رُفعت الحبال بغتةً، وانطلقت الخيول في اللحظة ذاتها انطلاقة واحدة، ضربت حوافرها بالأرض بقوة، فمزقت طبقة العشب أسفلها.

وقف الجماهير على أرجلهم باللحظة ذاتها، ولكن الفرس «شمعة» ترددت لوهلة بخوف أمام المشهد، ولم تتحرك، وفي أقل من ثانية هزَّ فوزان نفسه بقوة فوقها، وهو يلكزها بقدمه على جانبها فانتفضت الفرس، وألقت بنفسها للأمام بسرعة كاد معها الصبي أن يُطرح أرضًا!

مطَّ سليم شفتيه في ضيق، ونظر لمرعي الذي كان لا يزال يراقب ما يجري، بينما كانت ميتسي بالأعلى تشاهد كل شيء بمنظارها المكبر.

ارتفع صوت المذياع الداخلي بالفرنسية:

- الحصان سقراط في المقدمة في ذيله نمرة ٣ الحصان مارش، يليهم موسى نمرة ٩، المسافة المُتبقية ٧ فورلونج..

كانت الفرس تركض بأقصى سرعة لها، تدفعها قَدَما فوزان في جانبيها، وتحثانها على المواصلة، لكن سرعتها أمام الجميع لم تكن تضاهي سرعة الجياد الباقية، حتى ظهرت في مؤخرة الرتل!

صرخ مرعي في غيظ:

- يلا!!

وكان الدم يصعد لرأس سليم، وهو يضغط على أسنانه في غضب شديد.

اقتربت «شمعة» من آخر فرس، ولكن عندما توازت معه على خط واحد فوجئ فوزان بالجوكي الذي فوقها يدفعه بقدمه بقوة، كانت ضربة عنيفة بالحذاء ذي النعل المعدني، فصرخ الصبي على إثرها، وكاد يختل توازنه، لكنه تمسك باللجام بقوة، مما أعطى الفرس إشارة بأنه يوقفها، فكادت تتوقف، لكنه لكزها مرة أخرى فاندفعت من جديد، وما كادت تعبر الفرس الأخير من يسارها حتى التحم من اليمين بفارس آخر دفع فرسه للجهة الأخرى، ورآه بوجهه الأشقر الغاضب وهو يرفع السوط الذي في يده لأعلى، وبدلًا من أن يهوي به على كفل فرسه هوى به على ظهر فوزان!

كان السباق وكأنه معركة حقيقية، وبقية الجوكية، وكأنهم تكالبوا عليه؛ كي يدفعوه للتأخر عنهم..

ميتسي رأت المشهد بنظارتها المكبرة، رأت الفرس كأنها كرة تقاذفتها فَرَسان، فمطت شفتيها بأسف، وتركت النظارة، ثم نظرت لمرعي الذي كان واقفًا على خط الحلبة، وتمتمت:

- لا فائدة!

ولكنها لم تكد تفعل حتى سمعت صوت فتاة فرنسية تصيح بحماس من المدرج:

- آليه! آليه!

رفعت عينيها ثم عقد جبينها الضيق، ورفعت منظارها لعينيها مرة أخرى، لتشاهد أغرب مشهد رأته حلبة سباق هليوبوليس منذ إنشائه!

* * * *

رأى مرعي ما حدث، في البداية ظنَّ أن السوط سقط من فوزان، لكنه تأكد أن الصبي البدوي هو من ألقاه عن عمد،

بل في غضب، رأى الكاسكيت فوق رأسه يسقط، وعندما بدأت الجياد بالدوران رأى فوزان ابن مجلي يُخرج قدميه من الركاب على جانبي الفرس، ويتركهما حُرَّتَيْن تلتفان على بطن فرسه، وبدلًا من أن يشد عليها اللجام تركه، وأمسك بشعر مَعْرفتها!

تبادل مرعي وسليم النظرات في لحظة اندهاش، فالتقت عيونهم وارتدَّت للمضمار!

لم يسمعوا صرخة فوزان البدوية في هذه اللحظة، تلك الصرخة التي فهمتها الفرس عندما مال على أذنها، ولكنهم رأوا الفرس أخف!

الجماهير الغفيرة في المدرجات سوف يُقسمون إن الفرس البيضاء طارت من فوق الأرض وحلّقت!

فوزان الطحاوي صرخ بقوة وهو يزفر كل الألم في صدره، كل الخوف والرعب المتجمِّد كقطعة حجر استقرَّت فوق قلبه، صرخ وكأنه يتحرر.. والمهرة كانت تركض أسفله، في لحظة حُرية واحدة خلقها لنفسه وسط كل تلك القيود والأربطة واللجم والشكائم!

كانت الفرس كأنما ألقي عليها تعويذة سحرية، طارت تسبق، واندفعت من الخلف للأمام، وكأنها نشاب مرميّ بقوس.

الجوكية الآخرون لم يستوعبوا ما جرى، فقط رأوا هذا الطيف الأبيض يشقُّ المضمار، وينطلق بجوارهم، وانطلق صياح المذيع عبر مكبرات الصوت كالمجنون:

- «شمعة» تتقدم! «شمعة»! «شمعة»!

سليم حقي أمسك بجبينه وهو يرى الفرس تندفع، حتى لم يعد ينافسها سوى الحصان الأول، مرعي المصري لم

يتمالك نفسه.. قفز من فوق السياج ووقف في وسط المضمار ذاته، وقلبه ينتفض تلك الانتفاضة الغريبة التي ترجُّ جسده، وميتسي من المدرج تركت المناظر مُكذِّبة العدسة، وبحلقت في الميدان بعينيها المجردتين اللتين تثق بهما، أما خليل آقبيق فقد وقف على قدميه، وعلى وجهه أمارات الغضب والدم يحتقن في أوردته!

كان فوزان يقترب من الحصان الأسود في المقدمة، واللجام الذي بلا فائدة يتدلى يطيح يمينًا وشمالًا، وكأنه يعلن استغناءهما عنه!

جوكي الفرس الأسود نظر للوراء في هلع، وعاود بنظره للأمام والفرس البيضاء تقترب منه، وانهال على كفل حصانه بالسوط بلا رحمة، ليحثه على الركض، ولكن سرعته في هذه اللحظة ما كانت لتقارن بسرعة الفرس الحرة التي كانت كأنما تركض فوق أديم الصحراء التي تعرفها..

صرخ فوزان صرخته القوية، فاستجابت له الفرس، ودفعت بجسدها للأمام منقضَّة، وقد بدا خط النهاية أمام عينيه تحت أشعة الشمس الذهبية التي تعمي عينيه كخط النجاة، فأغمضهما لوهلة، وفتحهما فلم يرَ الفرس الأخرى أمامه، لم يرَ غير رأس فرسه، وقتها شعر أن قلبه يهوي إلى بطنه!

رأت ميتسي الفرس تندفع، تعبر الخط، كأنها لن تتوقف، كأنها ستركض للأبد..

ارتفع صراخ الحماس، واندفع البعض عبر السياج الذي يفصل المدرج وما أسفله عن المضمار، ركضوا في الميدان..

سليم حقي لم يُصدِّق عينيه اللتين طفرت منهما الدموع، دار حول نفسه وهو يمسك برأسه وهو يقاوم رغبة غريبة بالصراخ، برغبة في روحه من الخروج من جسده، والتحليق كعصفور حتى السماء السابعة.

ميتسي وقفت متجمدة، وهي تقاوم الدموع التي تحجَّرت في عينيها، أرادت لو أنها استطاعت أن تحضن أحدهم، أن تصرخ، كانت تبتلع ريقها، ويدها ترتعش..

في ذات اللحظة كان فوزان بن مجلي الطحاوي في لحظة ضياع.

اندفع المتفرجون نحو الفرس ووسطهم عشرات الصحفيين ومندوبو الصحف الأجنبية والوطنية، ومعهم آلات التصوير الفوتوغرافية.. كانت الفرسة خائفة، وفارسها يلهث، يتصبَّب بالعرق من كل شبر من جسده، يرتجف من الانفعال، العشرات من الأيدي تتخطف لجام فرسه، والمئات من الوجوه الغريبة التي لا يعرفها..

أحدهم اندفع ووضع إكليلًا من الزهور الحمراء والبيضاء على عنق الفرس، وسمع صفيرًا مرتفعًا يأتي من حوله، ولم يفهم ما عليه فعله، لكنه رأى مرعي يتقدم نحوه ركضًا، يشق طريقه من بين المناكب.

ندت من فوزان تمتمة:

- أفندي..

ولكنها ضاعت في الزحام، وفي تلك البرهة القصيرة التي شعر فيها بالألفة وبعض الطمأنينة نظر إلى السماء وتنهد، ثم ابتسم!

* * * *

هربت ميتسي، نزلت من المدرج، وسارت عكس اتجاه المندفعين، كانت تهرب من مكسبها، مشاعر غير مفهومة كانت تعتمل في صدرها، بحثت بعينيها عن عثمان، لكنها لم تجده، كان قريبًا منها، لم تعرف أين أوقف الأتوموبيل، كانت غير قادرة على أخذ نَفَسِها، ارتطم بها أحدهم، كادت

تسقط، اعتذرت له مسرعة..

- أنا آسفة!

اعتذر لها، شعرت بالاختناق وأن قلبها مثل طائر يعلن ثورةً ما على أقفاص صدرها. يرفرف بقوة وينثر ريشه في كل مكان، لم تدرِ أين تذهب، رأت أعلامًا، وإعلانات، وخيولًا، وبشرًا، دارت حول المدرجات، رأت ممرًّا خاويًا من الناس خلفها. دخلت إلى هناك، واستندت إلى الجدار، ثم انفجرت في البكاء!

بكت وكأنها لم تَبْكِ من قبل، انفجر سدُّ دموعها، وهي ترتعش، وضعت يدها على صدرها كي لا يتركها ويهرب، يطير، كانت المرة الأولى التي تفوز فيها مذ بدأت تراهن على الخيل في إنجلترا، مذ كانت تراهن على دواء ابنها. كانت المرة الأولى التي تعرف فيها ذلك الطعم، وقد جاء متأخرًا.. متأخرًا كثيرًا!

شعرت باللمسة على كتفها، فانتفضت والتفتت، فرأته واقفًا أمامها بهدوئه المعتاد، ونظرة عينيه الحزينتين؛ سليم حقي.

قال لها:

- يسألون عن مالكة الفرس! عنكِ.

ابتسم لها، فابتسمت من بين دموعها.

التقطوا الصورة لميتسي والفرس، أصرَّت هي أن يظهر سليم حقي في الصورة، كان فوزان معلقًا فوق السرج، والجورنالجية حول الفرس على رؤوسهم القبعات والطرابيش يحيطون بهم. مرعي المصري أصرَّ أن يتصور والسيجارة في فمه، ويداه في وسطه كنوع من (العياقة). قال للمصوراتي الأرميني:

- طلعني حلو يا خواجة. أحسن أنا معجباني بس التصاوير مبتحبنيش.

ستبقى تلك الصورة طويلًا، ستبقى للأبد، سيراها أناس آخرون في زمن آخر، وهم يقلبون أوراقًا صفراء أكل العث أطرافها، وهم يفتشون في أوراق فوزان الطحاوي الذي مات بينهم شيخًا عجوزًا! سيرون الفرس تُمسك بلجامها امرأة خواجاية، وتنظر بهدوء للعدسة، سيكتب تحتها اسم (الست ميتسي الإنكليزية) وعلى جانبيها رجلان، الأول سيُكتب تحت اسمه (سليم أفندي حقي)، بشارب مشذب وصديري، عابس، والآخر بقبعة مسطحة فوق رأسه وبفمه سيجارة ويضع يده في وسطه؛ لأنه (معجباني!) وسيُكتب تحت اسمه (مرعي أفندي المصري). ستُجمِّد الصورة اللحظة لتبقى حتى بعد فناء كل شيء، بعد انتهاء الألم والأمل.

لكنها لن تصور سليم حقي وهو يتركهم، وهو يسير مهرولًا باتجاه شبابيك التذاكر ليصرف الأوراق التي معه.

- الريال جاب ٥ جنيه، مبارك عليك يا أفندي!

أمسك في يده ثمانين جنيهًا، انطلق خارجًا يرتطم بكل من يواجهه من باعة وأفندية وخواجات، كأنه طفل لاهٍ غير عابئ بالدنيا. كان يجاهد ليمنع الدموع، يكاد يصرخ من الفرحة، لا يرى غير عايدة، كانت صورتها تملأ قلبه، تشمله، تحيطه، تضمه، وتقول له: «أنتظرك!».

كان يرتعش وهو يقود أتومobileه عابرًا الطريق من هليوبوليس للقاهرة، عندما التفت عن يمينه ورأى العَلَم الإنجليزي بألوانه الثلاثة يرفرف فوق معسكر الإنجليز لم يهتم، كان يفكر فيها فقط، يبتسم مثل مخبول، ويشعر في قلبه بتلك السعادة التي لم يشعر بها منذ زمن طويل، بتلك اللحظة الزاهية وسط آلاف اللحظات الباهتة. شربة الماء الباردة وسط ألف رشفة آسنة!

عندما وصل إلى الخليفة، كان يفكر في أنه يريد أن يحتضنها، يحملها كطفلة صغيرة، ويصرخ، وهو يركض بها..

حاول أن يبطئ من حركة قدميه وركضه، فصار مشيه أشبه بالهرولة وهو يدخل الشارع، ثم لم يتمالك نفسه وتحولت هرولته إلى ركض، ركض سريع لفت أنظار كل من في الشارع، فوقفوا يشاهدونه على قهوة ملاح، حتى اختفى في بئر سلم منزله، صعد وهو يتمسك بالدرابزين بقوة، حتى دخل البيت وصرخ في سعادة الدنيا، وهو يركض نحو غرفتها كطفل صغير سعيد بنتيجة اختباره:

- يا عايدة!

* * * *

لم تفهم عايدة ما حدث، تحوَّل أمامها لإنسان آخر، عيناه كانتا تلمعان كألف شمس، كان قلبه هو من يُحدثها وليس هو، طلب منها أن تلبس أجمل ما لديها، سيأخذها إلى السيما! مثلما كانا يفعلان قديمًا، كما اعتادا كل جمعة. حينما يدخلان السيما المجهزة في فندق هليوبوليس هاوس، ذلك الفندق الصغير المجاور لبالاس.

بعد المغيب ارتدت أجمل ما بقي من ثيابها القديمة؛ حذاء مارون دوريه، وجورب من النايلون، وحقيبة ذهبية، ووضعت على وجهها برقعًا أبيض شفافًا يشفُّ عن ملامح وجهها الجذاب، وقفازات من الدانتيل، وضعت لها نبوية الكحل فوق عينيها، فبدت فاتنة رغم التعب.

رأت نبوية سعادتها في نظراتها، وهي تساعدها في ارتداء ملابسها، كانت مبتسمة بين سعالها، وكانت نبوية تبادلها الابتسام، ثم جعلت تسير وراءها وهي تنزل السلم مستندةً بألم إلى الدرابزين، بقدمين مرتعشتين، تقف حينًا ثم تكمل نزولها حينًا آخر، حتى وصلت بئر السلم فرأته واقفًا

أمام الأتومبيل. يبتسم لها.

لمَّع أتومبيله، وغسله، حتى صار براقًا، ووقف ينتظرها أمامه في كامل هندامه، وقد ارتدى طربوشًا، وجاكيت بصديري، لم تكن قد رأته في هذه (القيافة) منذ زمن طويل، ابتسمت بخجل، فأمسك بيدها، ثم انحنى وقبَّلها، قبل أن يساعدها على الصعود للأتومبيل، ودار ليجلس بجوارها، وسمع صوت نبوية:

- مع السلامة يا ست عايدة!

قاد الأتومبيل وهو ينظر لها بين الحين والآخر، حتى ضمتهما القاعة داخل هليوبوليس هاوس.

كان فيلمًا أمريكيًّا صامتًا بعنوان The Saphead من بطولة باستر كيتون، وكان الجموع متراصين أفندية وخواجات رجالًا ونساءً في القاعة المظلمة، وآلة العرض وراءهم تنعكس على قطعة القماش البيضاء أمامهم، بينما في أحد أركان الغرفة عازف بيانو يعزف لحنًا يتماشى مع أحداث الفيلم وحركات ممثليه السريعة.

كانت عايدة سعيدة، تراقب الشاشة وأضواؤها تنعكس على عينيها المتلألئتين، لم تلحظ أن سليم لم يكن يشاهد الفيلم، كان يراقبها وهي تضحك، كان يفكر في حبه لها، ووَدَّ لو أنه احتضنها، امتدَّت يده فأمسك يدها بقوة. لم تشعر به، ولكنها أخذت تضحك، فابتسم.

عندما انتهى الفيلم خرجا مع الجمهور، وبينما كان كل شخص يركب أتومبيل أو ينادي إلى تاكسي، قرر هو أن يتمشى معها، ويشتري لها الترمس من بائع متجول، ويسيرا في شوارع الضاحية تحت ضوء القمر.

كانت متعَبة، ولكنها فضَّلت عدم العودة للبيت؛ فهي المرة الأولى منذ شهور تفارقه، شعرت بالهواء البارد يتخلل

صدرها، ظلت تستند إليه، وكان هو يسير على مهل بقدر خطواتها المتعَبة، وقد زحزحت برقعها لأسفل ذقنها لتأكل الترمس.

سألها:

- مبسوطة؟

أومأت برأسها وهي تبتسم.

سألته:

- جبت النقدية منين؟

وقع السؤال عليه كمصيبة، لم يكن قد جهَّز إجابة حقيقية لذلك، وعدها ألا يرمي ماله على رهانات الخيل، لكنه كذب، صحيح أنها كانت ضربة ناجحة ولكنها كاذبة، فضَّل ألا يُفسد سهرتهما الحلوة، فتردد وكذب:

- بعتها لي أبويا الحاج في حوالة بالبريد..

لم يعرف لماذا قال ذلك، ظن أنه ربما قد يُفرحها، قبولها لدى والده هو صك غفرانها المتخيل الذي سيحصلان عليه؛ رضاه.. والحقيقة أن هذا ما حدث، فقد رفعت حاجبيها بدهشة لوهلة، وتوقفت عن المسير بغتة، وشعرت بقلبها يرتعش وضرباته تتسارع، ورأى الدموع في عينيها السعيدتين، فازدرد لعابه، ومدَّ إبهامه فمسحها، وحاول أن يداري كذبته بعبارة بلا معنى:

- بيقولوا الأسبوع الجاي فيه فيلم جاي من أمريكا تاني.. أحلى من دا. للممثلة اللي بتحبيها دي اللي اسمها.. مش عارف اسمها إيه!! هي والتاني اللي بيلبس الجزمة بالمقلوب..

- أدنا بيرفيانس..

- أنا عارف بقى! أنتي اللي بتعرفي أسماء العالم الخواجات دول.

ضحكت برقَّة وهي تستند برأسها عليه، ثم تحولت ضحكتها لابتسامة شاحبة، وصمتت. هل حقًّا يمكن أن تبقى قادرة على ذلك للأسبوع القادم؟ لا تدري. تساءلت: هل سيتذكرها بعد أن ترحل؟ بعد أن تترك كل هذا العالم الصاخب، بما فيه من سعادة وأمل، بعد أن تتلاشى من الوجود وكأنها لم تكن في يوم من الأيام؟ هل سيتذكرها؟

صمتت طويلًا وشردت، فصمت بدوره، ثم بقلق سألها:

- إنتي تعبانة يا عايدة؟

ابتسمت وهي تداري دموعها وألم قلبها، وقالت:

- لا أنا بخير، بخير خالص.

ثم أمسكت بذراعه لتحثَّه على مواصلة السير اليائس كمستقبلهما معًا، وقالت وهي تشعر بالاختناق:

- هتجيبني بردة نشوف الفيلم دا الأسبوع الجاي.

شعر بألمها ينفذ لقلبه، ودَّ لو أنه يحتضنها، يجعلها تذوب في لحمه، مثل شمعة عطرية. أن يخبِّئها بجسده عن الموت، أن يضلل مَلَكَه، ويخدع القدر، ويمحو المكتوب.

أومأ برأسه وهو يتماسك، فاستندت برأسها على كتفه، وسارا كأنهما عاشقان جديدان!

* * * *

في اليوم التالي للسباق تلقى مرعي وفوزان دعوةً من ميتسي؛ لزيارة مدينة الملاهي «لونا بارك» كاحتفال خاص بهما.

كان الأمر مثار استغراب مرعي نفسه، الذي لم يدخل مرة واحدة مدينة ملاهٍ، ولم يكن هذا لجهل منه؛ فقد كانت لونا بارك بالفعل هي أول مدينة ملاهٍ في أفريقيا والشرق بشكل عام، وقد بناها البارون إمبان كوسيلة جذب لتشجيع المالكين والمستثمرين على القدوم إلى مدينته الجديدة التي أراد بناءها في وسط الصحراء.

وعندما سأله فوزان:

- وش اللونا بارك دي يا أفندي؟

لوَّح مرعي بيده قائلًا:

- فكرك لو عارف أخبي عنك.

الحقيقة أن ما أرادته ميتسي خشاب كان في هذه اللحظة هو قضاء يوم مع فوزان الذي كانت ترى فيه ابنها ديفيز، ودَّت لو أنها تعطيه كل تلك المشاعر التي لو كان ابنها حيًّا لأعطتها له، لو كان معها كل هذا المال لمنحته إياه كله.

قضى ثلاثتهم اليوم بأكمله في مدينة الألعاب.

وشعر الاثنان عندما دخلا وكأنهما يدخلان عالمًا مختلفًا، فكانت مدينة الألعاب مصممة كوادٍ كبير مزين بكل ألوان الزينة، وكان أول ما سمعاه هو الصراخ والضحك وأصوات الماء، وعربات الحديد، وكلما مضيا يتفرجان بعيون منفرجة من التعجب رأوا الأعجب والأعجب.

ونسي فوزان أنه يسير مع المرأة الخواجاية ومرعي، وصار يمشي ويتفرج على الألعاب وحيدًا مذهولًا، وهو يرى الناس

ينتشرون زرافات وفرادى ينتقلون بين لعبة ولعبة وتسلية وتسلية.

ركبوا قطارات ترتفع بهم وتهبط وهم يصرخون بداخلها في فزع وفرحة، ورأوا أنفسهم في مرايا مشوهة، تُظهرهم قصار القامة كالأقزام ثم طوالا كالعمالقة، ثم تطيل أوساطهم إلى رؤوسهم وتقصرهم من سيقانهم تارة، والعكس تارة، وبعدها ركبوا قاربًا انحدر بهم من فوق دكة مرتفعة انحدارًا عظيمًا وكأنه سوف يهوي متحطمًا بهم نازلًا إلى بركة ماء اصطناعية، فصرخ فوزان صرخةً عظيمةً من الخوف سدَّت أذُني مرعي، وتمسكت به ميتسي بذراعه بقوة، وهي تنادي باسمه:

- يا مرعي!

فصاح من الرعب:

- يا سيدي يا متولي!!

بعدما انتهوا جذبته ميتسي من ذراعه وكأنه طفلة صغيرة، صاحت:

- تعالَ نلعب في سكيتنج رتك.

لم يفهم ماذا تقصد، حتى جرَّته إلى المزلق الواسع العظيم، فلبسوا في أرجلهم أحذية التزلج، وكان مرعي يصيح وهو متمسك بالقائم الخشبي للساحة:

- يا ست هانم اعفيني.

ولكنها كانت تجذبه مثل الطفل الصغير، وتصيح:

- يلا يا مرعي! يلا..

ما كاد مرعي يمس الأرض الزلقة حتى انطرح على وجهه، فضحك الجميع، وضحكت ميتسي، فاعتدل وعلى وجهه ابتسامة، فلما رأى فوزان لا يزال عند الحاجز يضحك عليه من أثر سقوطه، زحف على يديه وركبتيه حتى جذبه إلى الداخل، فانزلق الولد، وسار ثانية، ثم سقط هو الآخر على ظهره، وكانت ميتسي الواقفة بكل ثقة تضحك من قلبها عليهما.

كانت حقًّا تضحك، وهي تجذبه من يديه، دون تكلفة بينه وبينها، ورآها مرعي في هذه اللحظة كما يرى الرجل العاشق أنثاه، طفلة ضاحكة لاهية، ووَدَّ لو أنه يحتضنها، أو يأنس بقربها أو ملامستها، وشعر بشعور غريب في هذه الساعة، من أن الصبي فوزان هو ابنه، وليس ولدًا غريبًا عنه، وأحس بالضيق من هذا الإحساس والخدر في الوقت نفسه، ونفض رأسه، طاردًا هذه الخيالات الغريبة.

بعد ساعتين من المرح جلس مرعي وميتسي في أحد المقاهي داخل مدينة الألعاب، بينما كان الصبي يلعب لعبة يسمونها «الصيد العجيب»، وهو يمسك بصنارة تلتقط أسماكًا مرقمة بأرقام، وأصوات الجماهير المتضاحكين والمتصايحين تصل له.

قال مرعي وهو ينظر له من بعيد، وأمامه على الطاولة المثلجات الباردة:

- مَهْيَصْجِي، يحب اللعب، أنا برده كنت وأنا مسخوط مَهْلَسْجِي زيه، مفيش في نافوخي غير اللعب، بس أبويا الله يرحمه كان عنده كرباج عامله عدم اللامؤاخذة من ذيل ثور، لو اتأخرت عن شغلي، ولا عوَّقت بره الإسطبل، كان يخلي السيّاس يمسكوني ويربطوني في الطوالة، وينشّني بيه ولا العبيد، لحد ما يعدمني العافية!

لم تفهم ميتسي نصف كلامه، ولكنها فهمت مغزاه فضحكت.

سألته عن أمنياته، لم يتخيل مرعي المصري أن يُسأل هذا السؤال، اغتمَّ عندما فكر في ذلك، كان شخصًا بلا مستقبل، رجلًا بلا أمنيات، لقد كان مرعي المصري مثقلًا بالماضي أكثر مما كان مهمومًا بالغد.

قال لها وهو يشعر بقلبه منقبضًا:

- قد تكون أقصى أماني الإنسان هي أن ينسى ماضيه.

كان صادقًا فيما يقوله، لم يشعر سوى بأنه في حاجة لينسى ما مرَّ في حياته، وأن يبدأ من جديد، أن يخلع جلده، ويلبس جلدًا آخر!

رفعت حاجبيها، ثم ابتسمت.

كان فوزان قد أنهى لعبته، والتقطت صنارته سمكة فناداه مرعي بحماس، فأتى مسرعًا وعلى وجهه ابتسامة بلهاء، ووقتها عرف أنه فاز، ولكن عندما عرف أنه فاز بصابونة، وضعها في يده، وقال له بتهكم:

- ياما جاب الغراب لأمه.. تعالَ كُل جلاس.

جلس فوزان يأكل المثلجات في نهم، وهو يتابع الألعاب حوله، ولما رأى مرعي ساقَي الصبي تهتزان في لهو أسفل الكرسي، نظر له نظرة أخرى، وعرف أنه مجرد غلام صغير، تستهويه كل الأشياء الجديدة، وتجددت نحوه تلك العاطفة الغريبة.

ثم ذهب فكره إليها، إلى عينيها البريئتين الزرقاوين كأمواج البحر، لقد أخذته في يوم لن ينساه طوال حياته.

تمنى ألا ينتهي هذا اليوم أبدًا، لكنه انتهى، فالأوقات السعيدة لا تدوم طويلًا، لكن تبقى ذكراها للأبد.

* * * *

عادت ميتسي لقصرها، ثم أمرت السائق أن يوصلهما بالأتوموبيل، ودَّعتهما بابتسامة هادئة، ثم دخلت.

هبط مرعي من الأتوموبيل، وانتظرها حتى اختفت بالداخل، كان على وجهه ابتسامة سعيدة.

كان قلبه يتحرك، ينبض، لأول مرة منذ زمن طويل. لا يتذكر آخر مرة شعر بمثل هذا الشعور. عندما تركته دار حول الأتوموبيل وركبه، ثم نظر لفوزان الذي كان شبه نائم في المقعد الخلفي وابتسم، وأشار للسائق أن ينطلق.

صعدت هي إلى غرفتها، ثم ألقت حقيبة يدها فوق السرير، وأخذت صورة طفلها المؤطرة في برواز مستدير من فوق الكومود، كانت الصورة الوحيدة التي بقيت له، يظهر فيها طفلًا صغيرًا يبتسم وهي تقف بجواره، وتضع يدها على رأسه في ملابس فقيرة، وجوربين ممزقين، لم تكن تشبهها الآن!

أخذت تتأمل الصورة، وهي تشعر بحزن ثقيل، لم يُغيِّر فوزها في السباق شيئًا، لم تُنقذ طفلها، بل إنها قد نسيته في لحظة فرحة ليس لها معنى، خانت حزنها عليه، أبدلته بطفل آخر من العرب. عندما وصلت لتلك المرحلة شعرت برغبة شديدة في البكاء، نزلت الدموع على عينيها فخدَّيْها، ثم بكت طويلًا، بكت بقية الليل حتى الفجر.

في الصباح عندما دخل عليها خدمها وجدوها جالسة بجوار السرير فوق الأرض تحتضن صورة ولدها، بكامل ملابسها، وعلى وجهها آثار بكاء، وقد أسندت رأسها للسرير!

* * * *

(٣)

عدّ مرعي المصري أوراق البنكنوت بسرعة وبيده الخبيرة؛ أربعون جنيهًا بالتمام والكمال، نصيبه من الرهان السابق، ثم طواهم ودسهم في جيبه، ورفع عينيه لسليم حقي:

- مِن يد ما نعدمها!

كان على وجه سليم حقي شبح ابتسامة مستهزئة، كان قد سدَّد مال الخواجة آشود بالكامل، وبقي معه ثلاثون جنيهًا في جيبه. ظل مرعي يرمقه وهو يمد يده في جيبه الآخر، ويُخرج النشرة التي طبعها كلوب هليوبوليس بأسماء الخيول المشاركة في السباق التالي.

- اللي هيسابق الأسبوع الجاي ١٥ حصان، واحد منهم لزينهم البشلاوي، والثاني للبارونة اللي اسمها بلانت، عندها حصان اسمه شور، كان حصان اللورد كيتشنر وباعه لها قبل ما يغور، والتالت لإسطبلات الرمل.. والبارون إمبان بالحصان اللي اسمه جينكيز.

كان يدرس موقف الفرس.

- مين دول بسلامتهم؟

- صلِّ على اللي عمرك ما هتشوفه، البشلاوي دا غني حرب، كان تاجر حدايد صعيدي، مكانش حيلته غير ٤ آلاف طونيلاطة حديد كمر بتوع الأسقف، لما الحرب قامت طلب الجماعة الإنجليز الحديد علشان المعسكرات، راح بايع لهم الطونيلاطة الواحدة أم ٧ أهيف بـ١٨، وكسب ييجي ٤٠ ألف جنيه!

- وبلانت دي(38)؟

- لا دي وليّة غاوية خيل أصيلة من جدود جدودها، مَرَة جهنمية تقدر على الكبيرة، والبارون إمبان راجل عاشق للخيل، زي ما أنت عارف حمارته ماشية وحصانه مبيخسرش، يعني هنتستف تستيفة طيبة.

أومأ سليم حقي برأسه وهو يمط شفتيه، وصمت، أخذ يتأمل رواد مقهى الكولوزيوم، وهم يتناقشون على السباق.

- بقولك إيه؟ تبيع التومبيل؟

ابتسم سليم ابتسامة ذات مغزى، ثم قال:

- أبيع.

- السبق الجاي لو الفرس فازت هشتريه منك بـ١٠٠ جنيه، قلت إيه؟

- موافق.

أربكته ابتسامة سليم، فتصنَّع الاهتمام بإشعال سيجارة.

* * * *

---

(38)الليدي جوديث بلنت، مُربِّية خيول شهيرة، ابنة آن بلنت الرحالة ومربية الخيول العربية.

الحقيقة

(١)

«أيها السيدات والسادة، بعد قليل وفي تمام الساعة ١:٤٥ يبدأ الشوط الخامس، سباق رقم ٢١ بجائزة قيمتها ١٠٠ جنيه مصري، للجياد العربية، مسافة ٧ فورولونج».

بدأت الخيل في الإحماء قبل خط البداية، وكان فوزان فوق الفرس ومرعي يسحبه، ويعطيه تعليماته الأخيرة، التفت إلى ميتسي خشاب، فوجدها جالسةً على كبوت أتوموبيل سليم أفندي الرابض خلف المضمار، وهو واقف بجوارها يتابعه. أشار له بيده!

«يشارك في السباق، صالح بك جرجس بحصان نمرة ٣، وجبرائيل بك عباس بالحصان نمرة ١٠، وأحمد باشا كامل بالفرس نمرة ٧، واصطبلات الرمل بحصان رقم...».

مرعي قال لفوزان وهو يشد القشاط على بطن الفرس:

- المسافة طويلة، ركِّز.

«مدام هندالي الحصان نمرة ٩، محمود سكر الحصان نمرة ١١، الليدي جوديث بلنت الفرس نمرة ٥، ميتسي هانم خشاب الحصان نمرة ١٣».

التفت إلى سليم حقي، الواقف بجوار ميتسي ثم مطَّ شفتيه بضيق، وربت على رقبة الحصان.

* * * *

اندفعت «شمعة» بعصبية على خط البداية، ولم تكد تفعل حتى مال عليها حصانان من الجانبين، ولكي لا تتأذى جذب

فوزان لجامها برفق، فخففت سرعتها فتأخرت.

كانت حناجر الجماهير تلتهب بالصراخ، والحماس على أشده في المدرجات، كل مشجع يصرخ باسم الجوكي الذي وضع عليه الرهان، فيسمعه الذي بجواره فيرفع عقيرته بنداء أعلى، وكأن المنافسة يحسمها الصوت والصراخ!

وانطلقت الفرس مستعيدةً توازنها من جديد، ولم تفعل حتى ارتطم بها حصان رمادي اللون، فتعلق فوزان بشعر معرفة الفرس، ودفعها مرة أخرى للأمام، فبدأت بالاشتباك مع الخيول الأخرى، فأدرك فوزان أنها معركة، لا قِبَل لفرسه الصغيرة بها.

كانت كتل الطين تتقاذفها حوافر الجياد في صدر فرسه، وتضايقها، فصاح مشجعًا وهو يتمسك بها أكثر، فزادت من سرعتها، فوجد نفسه في وسط الخيول حيث تدور الحرب الحقيقية..

الجوكية يتلاحمون بالخيول، أحدهم التفت له بملامح غاضبة وشتمه بلغة لا يفهمها، وتلقى ضربة سوط أخرى على فخذه لا يعلم من أين، ولكن الفرس انطلقت؛ إذ لكزها بقوة في بطنها، فامتثلت، بل ضاعفت سرعتها، وشقّت الصف الذي أمامها، وخرجت إلى أطراف المضمار بعيدًا عن معركة الخيول المتصادمة..

عندما رأى ذلك مرعي تمتم بغضب:

- إنت بتعمل إيه؟!!

كان قد ابتعد عن الرتل المتنافس، وبذلك ابتعد عن محور دوران الحلبة البيضاوية، وهو ما يجعل المسافة التي تقطعها الفرس في النهاية أطول، ولكنه كان ينطلق بسرعة كبيرة.

كانت الفرس تطلق شخيرًا عظيمًا من صدرها العميق، والخيول جميعها عن يسارها، وصارت تركض موازية لهم بعيدة عنهم، وفوزان فوقها يصرخ من الألم، وهو يتشبث بالسرج بساقيه، ويشعر أن رئتيه ستنفجران من أثر الضغط عليهما، والهواء يضرب صدره يريد أن ينتزعه من فوق صهوة فرسه!

أخذت الفرس دوران الحلبة من أقصى اتساع لها ثم انطلقت، وكانت بتلك السرعة المُبهرة تتقدم، وفي ذات اللحظة التي استقام فيها المضمار من جديد جذب فوزان بيده اللجام إلى اليسار، فاندفعت الفرس وسط الخيول وكأنها تنقضُّ عليهم بجسدها الضئيل الرشيق، ولكن هذه المرة كانت قد سبقت اثني عشر فرسًا، ولم يكن يتقدم عليها سوى فرسين!

وهنا تمتم مرعي غير مصدق، وقد تهلل وجهه:

- آه يا ابن الجِنِّية!

وفغرت ميتسي فاهها مغمغةً:

- يا إلهي!

كان الحصان الثاني هو جينكيز حصان البارون نفسه، ويقود الخيول الحصان المسمى شور بهيئته المخيفة، ولكن الفرس «شمعة» اندفعت بينهما، فشقت صفهما وتجاوزت روضة وجانبت شور وانطلقا معًا متجاورين، وفوزان يحاول إبعاد فرسه الرقيقة عن الفحل الضخم الذي إن صدمها فستسقط لا محالة.

كان الجوكي الآخر يعرف هذا، فمال بحصانه القوي بتجاه فوزان، ودفعه بكتفه ليبعده، ولكن هذا لم يزده إلا غضبًا، وانطلق مرعي من على طرف المضمار يشتم الحصان وصاحبه.

- أنتم واكلين يا أولاد الكلب، مدورينها برتيتة!

كان خط النهاية يقترب، وبدا أن الفرسين متجاوران بشكل كبير، وكانت أنفاس فوزان لاهثة متطابقة مع شخير فرسه، ثم أطلق الولد صرخة محفزة شديدة، وهو يلكز بطن الفرس بقوة، فدفعت بجسدها بأقصى سرعتها، ولم يكن أقل من ثانية عندما مرقت من خط النهاية، بفارق لا يتجاوز أنفًا عن الحصان شور!

* * * *

(٢)

تلقت ميتسي خشاب دعوة رسمية من البارون إمبان لحضور حفل يقيمه في قصره الهندي، بعد فوزها الثمين في ثاني سباقاتها، لم تُصدِّق نفسها عندما جاءتها تلك الدعوة، وأصرت على أن يحضروا الثلاثة معها الحفل. ولم يستطع سليم أمام إصرارها إلا أن يحضر، والحقيقة أنه فكَّر في أنها ربما تكون فرصة ثانية من أجل أن يرى أحدهم؛ ليتوسط له من أجل إعادته لصفوف البوليس مرة أخرى.

وصل الثلاثة إلى القصر الفخم المهيب بأتوموبيل سليم حقي. كان القصر وسط بقعة صحراوية بعيدًا عن عمران المدينة، وكأن البارون اختاره على تلك التبة للهدوء فقط. وكانت الأتوموبيلات متوقفة في فناء القصر، نزل سليم من الأتوموبيل أمام البوابة، متأنقًا على قدر استطاعته، ومعه كل من مرعي المصري وفوزان الذي ارتدى ملابسه الرسمية الجديدة.

كانت المرة الأولى التي يشاهد فيها فوزان الطحاوي قصر البارون الهندي المهيب. وقف يومها يراقب من بعيد القصر الكبير والتماثيل الغريبة المنحوتة على جدرانه، تماثيل لألهة وفتيات هنديات، وربات، وحراس بخناجر. وقف يراقب البرج المهيب المنحوت الذي يرتفع بشموخ!

كان مرعي المصري منبهرًا هو الآخر، وأصوات الحفل الهادئ من الداخل تصل لآذانهم، بعد أن سمح لهم البواب بالعبور، وكانت ميتسي قد أعطته خبرًا بوصولهم.

قال لهما مرعي وهو يعبر الحديقة المزروعة بأفخم النباتات التي جاءت من حول العالم:

- أهو بيقولك البارون بنى كل دا علشان واحدة ست!

- كيف؟!

سأله فوزان.

- حب واحدة حرمة اسمها إيفيت بغدادلي، راح باني ليها مصر الجديدة دي كلها، عرفت تجيبه، حطت راسه في الجراب. وبعدين هوب، راحت سايباه ومشيت.

سأله سليم وهو يبتسم بهدوء:

- ليه ست ممكن تسيب راجل بيحبها؟

- حكمة ربنا، أصل الحب دا يا سيدنا الأفندي مش بالمزاج، والقلب يدق وقت ما يعوز. ومفيش حاجة تجيب للراجل منا الأوى غير المخفي الحب دا اللي بيغني له العالم المتسيِّطة.

وصلوا للشرفة الأولى، فصعدوا بعض الدرجات، فوقف فوزان يتأمل تمثالًا لإله الدمار شيفا، متباعد الساقين وتحيط به الثعابين ذات رؤوس التنانين، تُستخدم كمزاريب. ثم أخذ يتأمل النتوءات الزخرفية التي على شكل فيل جانيشا، وأخذ سليم يتأمل تمثال بوذا في وضع التأمل فوق بوابة الدخول الفخمة، وأسفله تنينان ضخمان منحوتان بصورة فائقة الدقة يحرسان المدخل المهيب.

بدا كأنهم دخلوا إلى عالم ألف ليلة وليلة، خاصةً عندما عبروا بوابة القصر. كان هناك جمع ضخم من الحضور، وكانت الثريات الضخمة تضيء المكان، فتلمع أسفله التفاصيل. لم تكن هناك قطعة أثاث واحدة غير مشغولة بذوق رفيع، وكان الضوء الذهبي الباهر ينعكس على كل شيء، على الزخارف المذهبة، والجدران والأسقف والمرايا الباهرة المعلقة تحيط بكل الأركان، على حُلِيِّ النساء، والكؤوس الكريستالية الفاخرة البراقة!

لم يكن أي منهم قد رأى ذلك من قبل، خاصةً فوزان الطحاوي الذي سيظل يتذكر تلك الليلة طويلًا بعد ذلك. عندما سيعود لجزيرة سعود سيُخبرهم أنه دخل سرايا كلها ذهب في ذهب. سيسألونه: أكبر من سرايا العمدة؟! سيضحك ولن يجيب!

كؤوس الشمبانيا والويسكي وماء السلستر الفوار يدور بين الجمع الذي تفوح منه رائحة العطور الباريسية والتبغ الكوبي الفاخر. في الجوار كانت فرقة وترية رباعية من عازفين متأنقين تعزف.

رآها مرعي عندما جلسا حول مائدة. ميتسي خشاب، بثياب جميلة، بهيجة، للمرة الأولى وشعرها مرفوع لأعلى قمة رأسها بتسريحة ماركيز، ومربوط بشريط من الدانتيل. تأملها وهي تتحدث مع أحدهم، كانت كأنها طفلة صغيرة محبوبة عابثة، وسط جمع كبير اهتمَّ بغتةً بها، وقد كانت ترسم على وجهها ابتسامة براقة، وراودته فكرة مغرورة أنه سبب كل ذلك.

لم تفقد جمالها رغم سنها، هناك عطر يظل يفوح من المرأة كلما تقدمت بها السنوات، حتى وإن بدأت أوراق زهرتها بالذبول، يظل هذا الأريج يضوع منها، شيء ما في العينين واللفتات، وهي رغمًا من هذا التعب البادي عليها، كان يرى بداخلها أنثى أخرى جميلة، ببشرتها البيضاء التي تمسُّها التجاعيد برقَّة واستحياء، وتظهر جليةً محفورةً عندما تضحك بجوار عينيها.

إن هناك حياة كاملة بداخل هذه المرأة لم تعِشْها بعدُ، لديها كثير من عسل الأنوثة الرائق الذي لم يتجرع منه بشرٌ بعدُ.

عندما جاءت تُحيِّيهم، جلست بجوارهم، وابتسمت، كانت تلبس فوق كتفها قطعة من فراء السمور، وقلادة طويلة

لمنتصف بطنها، وفستان أسود مزين بالدانتيل والشرائط، بينما يتدلى قرطان من الألماس من أذنيها الصغيرتين.

حاول أن يداري إعجابه بها، وهو يصبُّ من زجاجة الهوك الأبيض، وتعمَّد تجاهلها مثلما يفعل كل عاشق عندما يكون على وشك انكشاف أمره، لكن في غمرة أفكاره اقترب نحوها أحدهم؛ جنتلمان يرتدي وشاحًا ونجمة الجارتر، انحنى لها ولثم يدها، فوقفت مرتبكة، فأخذ بكفها وابتعد عنهما.

قال لسليم حقي بعصبية:

- إزاي ياخدها ويمشي كده؟

رفع سليم حاجبيه مستهينًا:

- وإيه المشكلة؟ ما هي خواجاية وهما خواجات!

كان عصبيًّا متوترًا، عندما بدأت فقرة راقصة، ورآها بيدي هذا الإنجليزي، ضئيلة، جميلة ترقص بغير معرفة بالرقص، ولكنه يقودها كفراشة، فيأخذها من يدها، ويجعلها تدور، وتتحرك وفقًا لإرادته المدروسة، وفكر مرعي أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك. حتى لو كان يعرف. هل كانت تقبل به ليرقص معها، أو كانت لتشعر بالخجل من الرقص مع (دلّال) خيل كما سماه خليل بك! إيش تكون بين الناس غير سَبَقْجِي يا مرعي؟

خليل بك هنا أيضًا، رمقه بنظره ازدراء عندما رآه أول مرة. هي لن تعبأ بمثله، كيف ستراه وسط كل هؤلاء البشر اللامعين، لكن لا، صحيح أنه مجرد سمسار خيل يخالط تجارها وسُيَّاسها وكلّافِيها، ولكنها هي أيضًا مثله، لم تولد بنت ذوات، إنها مثله، كانت فقيرة معدمة، تعمل غسالة.

صبَّ مزيدًا من الخمر وشربه على جرعة واحدة، ثم قال بغضب ظاهر:

- دي قلة حياء، خواجات مش خواجات، دي قلة حياء، هما مفكرين اللي بيعملوه دا عياقة وشلبنة؟ دا مفيش خشا.

تجاهله سليم حقي الذي كان يشعر بغيرته، وتأمل فوزان الذي كان ينظر منبهرًا إلى كل شيء حوله وكأنه غير مصدق ما يحدث. كان البارون إمبان بذاته موجودًا يتجاذب الحديث مع آخرين، رأى سليم الكولونيل شابو بجواره، ورأى بكوات وأمراء.

انتظر مرعي المصري حتى فرغت ميتسي، وجاءت لتجلس بجوارهما مرة أخرى، فقام من مكانه، وقد لعبت الخمر برأسه، وقال بعصبية مثل طفل:

- أنا ماشي!

قالها بضيق وكأنه يعلن غضبه أمامها، لم تفهم، ونظرت له بتساؤل، ثم نظرت لسليم حقي، فلم يُعلِّق. رحل مرعي المصري بغضب وكأنه عاصفة.

- هل حدث شيء ما؟

سألت ميتسي متعجبةً، فأشار سليم برأسه أن لا، تابعت مرعي بعينيها وهو يخرج، ثم التفتت لفوزان وقالت بالإنجليزية:

- هل أنت سعيد؟

لم يفهم فوزان إنجليزيتها، فترجم له سليم حقي، فابتسم ثم أومأ برأسه إيجابًا. طلبت منه أن يرحلوا، فوافقها. تركت سيارتها، وفضَّلت أن تركب معه. لم يعرف السبب في ذلك، ولكن أذعن لها.

جلست بجواره، بينما جلس فوزان في المقعد الخلفي.

قاد الأتوموبيل عبر الطرقات الخاوية في المساء، لا يضيئها سوى أعمدة إنارة شحيحة وأضواء أتوموبيله. قالت له:

- لأول مرة أشعر أنهم يهتمون بي. لقد كان عثمان محقًا. حتى ونعوم بك على قيد الحياة لم يهتم بي أحد مثلما اهتموا بي الآن. هل رأيت؟

ابتسم سليم مجاملًا، ترددت لحظة، ثم سألته في قلق:

- هل تراني جميلة يا سليم أفندي؟

تعجب من السؤال، لم تراوده الفكرة، ولم يلاحظها، التفت لها، وألقى نظرة سريعة عليها، ثم قال:

- بالتأكيد يا هانم.

- كُفَّ عن قول هانم.. أنا أريد صديقًا حقيقيًا قريبًا من قلبي.

- سيكون لديك الكثير من الأصدقاء خلال الأيام المقبلة.

ضحكت في عصبية، ثم قالت:

- أنت تكره الإنجليز، صحيح، لهذا لن تراني جميلة أبدًا.

تردد سليم:

- لا أنت جميلة حقًّا.

ابتسمت مشاكسة:

- أنت تعشق المصريات، لكنك لا تحبنا نحن الإنجليز، قد لا أكون مصرية بالدم، ولكني مصرية بالقلب، إن حب بلادك تغلغل إلى قلبي، حتى وإن لم أكن سمراء شهية.

لم يعرف كيف يرد، كانت في ذلك اليوم جميلة حقًّا، وكانت كأنها أدركت هذا فجأة، كأنها صارت إنسانة أخرى.

- صحيح أن عمري قارب الأربعين، ولكن أعمارنا مع من نحبهم أقل، أقل بكثير من حقيقتها، أليس كذلك يا سليم أفندي؟!

أومأ سليم برأسه، لكن في تلك اللحظة تحديدًا مالت برأسها ووضعتها فوق كتفه، واستكانت! انقبض قلبه بغتة من ذلك الفعل. لم يعرف كيف يتصرف، نظر في المرآة، فوجد فوزان يغطُّ في نوم عميق في الخلف. ونظر إليها، فوجدها مغمضة العينين. كانت رائحتها العطرية تتسلل إلى أنفاسه. امتدَّت يدها فلمست ذراعه القوية، تمسكت أصابعها النحيلة بعضلاته، فاقشعرَّ بدنه، لم يستطع أن يُبعد يدها، قلبه كان ينبض وهو يقود سيارته إلى شارع مينيس حيث سرايا خشاب بك.

عندما وصلوا إلى هناك، أوقف الأتوموبيل ببطء أمام أبواب السرايا، فتأمله البواب، وألقى نظرة على سيدته النائمة على كتفه، ثم فتح لهما الباب، قاد سليم إلى الداخل حتى وصل للباب الرئيسي، فأوقف الأتوموبيل وأطفأ أنواره.

استفاقت وقتها فقط بهدوء، وهي تبتلع ريقها، كانت أنفاسها متسارعة هي الأخرى، تنظر للأرض، قالت بخجل:

- تريد أن تصعد معي؟!

تلعثم وهو يقاوم ضربات قلبه، قال بصوت متحشرج:

- تأخر الوقت.

ابتسمت برقَّة في تفهُّم، ثم نزلت، ارتبك سليم، وشعر

بقلبه يكاد يقفز من صدره، ونزل هو الآخر، رآها على ضوء القمر، جميلة، بجسد أقوى وملامح بديعة، وكأنها كانت امرأة أخرى في هذه الليلة. التفتت له، وتوقفت، بعد أن همَّت بالصعود، اقتربت منه للدرجة التي شعر بأنفاسها الحارة، فانفرج فمه لا إراديًا حتى يرتشفها شهية، فهمست:

- دائمًا يوجد أمل. حتى بعد ضياع كل شيء، دائمًا هو موجود.

قالتها بدلال شديد، ثم ابتعدت عنه ببطء، وهي تبتسم ابتسامة عذبة رقيقة، كملاك، قبل أن تقول بالعربية المكسرة على طريقة النسوة المصريات من بنات البلد:

- اقعد بالعافية!

قالتها وهي تلمس كفَّه بلمسة رقيقة، فارتعش، ثم دارت بغنج، تاركةً إياه!

* * * *

كان في حالة ارتباك وهو يقود أتوموبيله عابرًا الصحراء بين هليوبوليس والقاهرة في تلك الساعة المتأخرة، صورتها في خياله، جميلة وهادئة، وخجولة، وشهية أيضًا. أحيت فيه مشاعر كانت قد ماتت منذ فترة!

كان يشعر بحيرة وضياع، التبست كل الأفكار في عقله، فصار يشعر بتلك الحرب بداخله. كان فوزان الطحاوي نائمًا، ومشاعل معسكرات الإنجليز مضاءة عن يمينه تُذكِّره بفشله في الحياة، وألمه الحقيقي.

في البداية كان مخطوف الأنفاس، ولكن بعد دقائق، كان هذا الحزن قد تراكم في صدره، وشعر بدمعة ساخنة تطفر من عينه، دمعة دافئة طهَّرت قلبه، فصار خفيفًا مثل ريشة

داخل صدره. تركها تنزل على خده، لم يمسحها، تلذذ بشعور التطهر ذاك. وبكونه طافيًا كقطعة فلين فوق الماء بلا وزن.

عندما وصل لبيته في الخليفة، أيقظ الغلام، وعندما دخل غرفة عايدة، وجدها نائمة والسراج مشتعل يعكس ظلالها على الجدار، شاحبة ساكنة، أخذ يتأملها وفي حلقه غُصة، وعيناه دامعتان لامعتان كزجاجتين! جلس على ركبته بجوار سريرها فوق الأرض، ثم سحب يدها من أسفل الغطاء، كانت يدها نحيلة، شاحبة، عروقها الزرقاء بارزة، ليس فيها حياة. قبّلها بشوق، ثم لمسها بجبينه، ودون إرادة منه أخذ يبكي وهو يمسكها بلا صوت مخافة أن يوقظها. ظل يبكي طوال الليل، حتى تعب، ونام بجوار فراشها، على تلك الهيئة حتى الصباح!

* * * *

جلست ميتسي خشاب في الطابق السفلي من السرايا وحيدة مثل شبح، غارقة في أفكارها، كانت تشعر بهذا الألم يخترق قلبها وئيدًا، بمهل، يقبضه، يعيده إلى ذبوله الأول مرة أخرى، بعد الفوز في السباق الأول شعرت بأن هناك من روى زهرتها فأينعت، ولكن الآن أخذت تعود لحالتها الأولى.

الخادم عثمان رآها في تلك الجلسة، اقترب منها ووقف أمامها، فرفعت عينيها إليه، كأنما استيقظت من غفوة. كان يمسك طبقًا صغيرًا وفوقه شمعة ينظر لها بقلق، تظهر ملامحه السمراء جلية.

قالت له بابتسامة باهتة والدموع تغرورق في عينيها:

- لقد كانوا رائعين معي اليوم، لكني لم أهتم، كالعادة، عندما أصل لما أريده، يفقد معناه، يذبل، ويجف، ثم يتهشم بين يدي.

نظرت للأرض، ثم نظرت له مرة أخرى وكأنها تذكرت شيئًا ما:

- لقد فزتُ في السباق، ولكن ديفيز لم يعُدْ..

أجهشت في البكاء، وقالت:

- لم يعُدْ يا عثمان..

بدت علامات الأسف على وجه الأخير، ولم يعرف ماذا يقول، قالت من وسط بكائها:

- أنت تشعر بالضيق من الأفندي، أعرف، لكن لا تقلق، إنه لم يشعر بوحدتي.. هل أنت سعيد؟

ابتلعت لعابها وهي تحاول أن تسيطر على نفسها، ومسحت عينيها بظهر كفها، ثم قالت بمزيج من الغضب والتذمر:

- سأعيش بقية عمري وحيدة!

قالتها وقامت من مكانها، ثم صعدت لغرفتها!

* * * *

(٣)

بعد يومين باع سليم حقي الأتوموبيل لمرعي المصري، قبض ١٠٠ جنيه ثمنًا له وهو ما اعتبره مقابلًا عادلًا، وإن كان فيه خسارة كبيرة. لمعت عينا مرعي وهو يتفحصه، ويخبط فوق حديده، ويتأمل سقفه الجلدي، والإطارات الرفيعة، والمقود والمقاعد الجلدية. لم يكن يحلم، كان ذلك حقيقيًّا!

رفع عينين مشعّتين لسليم:

- يا سيدي يا متولي! أهو كده الواحد يبقى أفندي بحق وحقيق.

ابتسم سليم ولم يعلق.

* * * *

خبط الباب بشدة مثل زلزال، انتفض قلب عايدة في مكانه، وتفلَت نبوية في عبِّها، وهي ذاهبة لتفتح الباب، عندما فتحته رأت هذا العفريت أمامها؛ رجل بدوي بعباءة وصندل، وشاربين ضخمين يقف عليهما الصقر، بوجه عابس مُغبرّ، ويحمل على كتفه بندقية!

لم تفهم ماذا يريد، ولم يُعطِها الفرصة، لكنه دفعها، واقتحم المنزل وهي تصرخ.

صاح:

- وين فوزان؟ وين الأفندي ابن الكلاب؟

ظهر فوزان عند باب غرفته. تلجَّم لسانه، وفتح عينيه وتجمَّدت أطرافه، وهو يشاهد آخر رجل كان يتوقع وجوده في ذلك المكان في تلك اللحظة، برجس الطحاوي!

لم يشعر إلا وتلك الكلابة الحديدية تعتصر عنقه النحيل، فجحظت عيناه بشدة، وأراد أن يصرخ ولكنه عجز، لم يخرج حرف من فمه، خرج لسانه كمشنوق، وهو يقاوم الاختناق، وبعينين ملأهما الدمع أمام هذا الشيطان. وسمعه يهمس:

- لوين غادي!

صرخت نبوية وهي تحاول ضربه:

- سيب الواد يا ناقص يا ابن الكلب.

دفعها بيده الحرة فسقطت فوق الأرض، وحاول فوزان أن يمسك يد عمه القوية ليخفف من ضغطه على حنجرته:

- يا عم..

برجس زاد من ضغطه، وقال وعيناه تطقان شررًا:

- وين المالية؟ سرقتني يا كلب؟

قالها ودفعه بقوة فاختلَّ توازنه، وسقط متحررًا من قبضته فوق البلاط، وأخذ يسعل بقوة وهو يجاهد لدخول الهواء إلى حلقه، بينما وقف برجس على رأسه يتأمل هيئته الجديدة النظيفة:

- عامل أفندي بدهباتي يا معلون؟

- بالله ما سرقت يا عم...

مال وجذبه من فوق الأرض من خناقه، فصار يصيح:

- المالية.. المالية مش حداي، الأفندي هو... هو... ما عطاني الدهبات!

صاح برجس بغضب هادر:

- وينه الأفندي؟

في تلك اللحظة ظهرت عايدة ووجهها ممتقع تمسك صدرها وتقاوم دوارًا عنيفًا في رأسها، كانت الدنيا تدور بها وتدور، رأت وحشًا بدائيًّا يمسك بخناق فوزان، يثبته بالجدار من رقبته، رأت نبوية على الأرض تبكي، غير قادرة على التحرك، كان عليها أن تفعل شيئًا، توجهت نحوه وهي ترتعش، قلبها كان ينتفض من الهلع، لكن ما كان عليها إلا أن تنقذ الولد، مشاعرها كانت تطفو فوق السطح، لم تكن تفهم شيئًا مما يحدث، صاحت بصوت مرتعش باكٍ:

- سيبه!

دفعت برجس الطحاوي من كتفه وعيناها مليئتان بالدموع، لم تكن دفعة قوية، كانت عضلاتها بالكاد تستطيع التحرك، التفت لها مثل ذئب جائع، ثم طوَّح بفوزان، وبذات اليد هوى بها على وجهها، بصفعة رجَّت كيانها وأطاحت بها فوق الأرض. ارتطم جسدها بالبلاط، سمعت تلك الصافرة تطنُّ في أذنيها، ثم انعدم سمعها مرة واحدة، تكومت فوق الأرض من صفعته، وحاولت أن تنظر له، لم ترَ غير صندله المترب، ورجليه اللتين تشبهان رجلي جَمَل صحراوي، مدَّت يدها من أجل أن تقاومه، ولكن هاجمها ذلك الضباب الشديد، ثم تخلل السواد خلايا عقلها، ولم تشعر بشيء.. صرخت نبوية في لوعة:

- يا ست عايدة!

زحفت حتى أمسكت بها، ووضعتها على رِجْلها، وصارت تولول:

- يا ناس غيثونا!!

عندما رأى فوزان هذا غضب، نظر لعمه بكراهية الدنيا، لكن الرجل مد يده أسفل عباءته وأخرج من حياصته خنجرًا ماضيًا، رفعه في وجه الغلام:

- صابح إتكون المالية في يدي، بلغ الأفندي، إن ما كنش بذبحك كيف النعجة وبسوي من لحمك قديد..

ارتعش فوزان عندما رأى النصل، فوقف برجس على رأسه، وتأمله باحتقار قبل أن يقول مشمئزًا:

- حرامي كيف بوك، دحى الحدادي ما يجيب صقورة!

في هذه اللحظة لم يشعر فوزان الطحاوي إلا برغبة شديدة في الانتقام، نظر لعايدة ولم يعبأ بخنجر عمه، لم يعبأ بشيء، كان داخل صدره بركان من النار، تذكر في هذه اللحظة الجَمَل وهو يبرك في ساحة الجبل وأبوه فوقه، نظر إلى عايدة التي غابت عن الوعي مثل ملاك سقط خطًا من السماء أمام هذا الشيطان، رأى البيت الذي هو فيه، تذكَّر أمه. إنه هو الحرامي، اللص الحقيقي الذي قتل أباه وسرق ميراثه، وطمع في أمه وأهانها، من ضرب الست عايدة واقتحم بيت سليم أفندي، إنه الحرامي ابن الكلاب.

لم يدرِ فوزان الطحاوي كيف فعلها في هذه اللحظة، ولا من أين واتته الشجاعة ليفعلها، كل ما سيذكره بعد ذلك أنه قام من مكانه، وصرخ وعروقه تنتفض:

- بوي مش حرامي.. أنت الحرامي!

قالها واندفع نحو عمه بكل قوته، لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة ربما في تلك اللحظة، ولكنه كان قادرًا على أن يمسك بوسطه ويدفعه على الأرض، اختلَّ توازن الرجل، وسقط على الأرض وسط صراخ نبوية، بَرَك فوق صدر عمه وهو لا يزال يردد دون وعي وهو يرتعش:

- أنت الحرامي!

ضرب عمه ضربة تلو أخرى، صُدِمَ برجس الطحاوي، وانتزعه بسهولة من فوقه ورماه بعيدًا مثل حشرة علقت به، ثم قام وأخذ الخنجر الذي وقع من يده، جذب فوزان من فوق الأرض، صفعه صفعة قوية أطاحت به، ارتطم ثانية بالأرض، واعتدل، محاولًا الهجوم مرة أخرى، ولكن الرجل عاجله بركلة في صدره طوَّحته وأجهزت على ما بقي من قوته، فأخذ يرتجف بمزيج من الألم والثورة فوق الأرض. وهو ينظر له بحقد.

كان الموقف قد صار أكبر من برجس الذي قال وهو يلهث من أثر المجهود، متأملًا ما صنعته يداه في الثلاثة:

- ريتني قتلتك يومها، وذبحت أمك بنت الحبة السودا!

نظر له فوزان بكراهية وشعر بلسانه ثقيلًا، ثم تابعه وهو يغادر المنزل، غير قادر على التفوّه بكلمة، وتأمل نبوية التي تنوح فوق جسد عايدة!

* * * *

قاد مرعي المصري أتوموبيله الجديد على الطريق إلى هليوبوليس، الشمس تغرق في الأفق.

كان قد غيّر من هيئته بالكامل، خلع القُبَّعَة المسطحة وارتدى طربوشًا بزر محترم، ميَّل الطربوش على أحد جوانبه، وتأكد من أنه يبدو وسيمًا، حلق ذقنه ولمَّعَها بالكولونيا، حتى بدا خداه كمرآة، ثم شذب شاربه، ودهنه بمسحوق الكوزماتيك ودبب طرفيه، لبس جاكتة، ولمع حذاءه بأحد المناديل؛ جزمة جلد إنجليزي «ألاجة» اشتراها من شيكوريل مخصوص.

قلبه يدق، وعلى وجهه ابتسامة بلهاء، لم يعرف سببها،

كان يحدوه أمل كبير وهو متوجه إلى سرايا خشاب، أصبح صاحب أتوموبيل الآن، وقد اكتملت قيافته، اجتهد في غسله طوال النهار حتى جعله براقًا كقطعة ماس سوداء. تساءل في نفسه: كيف سترى هي ذلك التغيير؟!

عندما وصل لهناك، أوقف أتوموبيله أمام الباب، لكنه عرف من البواب أنها غير موجودة، فقرر أن ينتظرها، جلس على كبوت الأتوموبيل ينظر إلى الطريق المؤدي للسرايا في انتظار ظهور أتوموبيلها الأزرق.

كان كل دقيقة يتأمل نفسه في مرآة الأتوموبيل، يُعدِّل من وضع حواجبه، أو ياقة قميصه المنشّاة، أو طربوشه، أكمامه.. ثم يتابع الطريق.

بعد ساعة ظهر الأتوموبيل الذي كان ينتظره، ارتفعت ضربات قلبه عندما رآه، تحولت لطبل أفريقي بصدره، لم يتخيل أن اللحظة ستكون مرعبة إلى تلك الدرجة. لم يفهم لماذا خاف هكذا.

ظل يراقب الأتوموبيل وهو يقترب ووراءه عاصفة من الرمال، حتى توقف أمامه مباشرة، ونزل السائق وفتح لها الباب، كانت جميلة في ثوب أسود رقيق، وعلى رأسها حجاب خفيف من الدانتيل المخرم، يظهر من أسفله شعرها الأشقر الجميل. كانت هادئة كعادتها، مستكينة.

نادى عليها، فالتفتت وابتسمت بهدوء.

- ميتسي هانم.. أنا.

- تبدو مختلفًا!

توقف أمامها وابتسم في توتر:

- هل أعجبتك؟

- نعم.

التفت وأشار للأتوموبيل الأسود:

- أصبح لديَّ أتوموبيل أيضًا. فورد موديل تي.. ٢٠ حصان.

- أوه! رائع.

- ميتسي هانم أنا...

- !!

- أنا...

كانت تنظر له بتساؤل غير مستوعبة ما الذي يريد أن يقوله، وكان خائفًا مترددًا. مَن شاهد مرعي المصري في ميادين القتال خلال الحرب وراء خطوط الجيش البريطاني يواجه الموت بصراخ ضاحك مجنون، ما كان ليعرفه في هذه اللحظة وهو خائف أمامها!

قال وأنفاسه تتردد في صدره مقاومًا البكاء في عينيه:

- أنا وحيد..

ابتلع لعابه:

- أنا فقط أريد أن أكمل بقية عمري معك.

اتسعت عينا ميتسي في جزع، تلجَّمَت، وشعرت بقلبها يهوي بين ساقيها فوق الأرض، لم تتوقع ذلك، لم تفهم لماذا قال هذا من الأصل.

- مرعي أفندي.. أنا.. لا أعرف... لقد..

بقي ينظر إليها متجمِّدًا في انتظار ما تقوله، وروحه قد تبخرت، لم يفهم، ولكن تجمَّعت الدموع في عينيها، وجعله هذا يفهم بماذا تشعر، وكيف أحرجها، وأحرج نفسه، وعلم أن كل ما فعله لم يَكْفِ.

- هل من الممكن أن أذهب؟

لم يعرف ماذا يقول لها، كانت الدموع قد طفرت من مقلتيها. كان ينتظر أن تتحدث، أو على الأقل ترفض ما قال، أو ربما تنعته بالمجنون! كان ينتظر ردًّا أقوى، لكنها لم تفعل، لم تنتظر أن يرد عليها، بل انسحبت باتجاه بوابة السرايا، وكأنها تهرب منه.

وقف مرعي المصري جامدًا وروحه تتبخر، تركته واقفًا وحيدًا أمام باب سراياها، ونظره للأرض كطفل مُذنب. غابت. وكان عاجزًا حتى على أن يتحرك. تخدرت أوصاله بالكامل، فتجمَّد في مكانه كتمثال من الشمع، صمتت حتى دقات قلبه، حلَّ مكانها فجوة عميقة في منتصف صدره، فجوة خاوية مظلمة.

بعد ربع ساعة أو أكثر رفع رأسه وتأمل الطريق البعيد، كانت الشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يبقَ في الأفق غير لون أحمر كلون الدم.

قاوم دموعه، وشعر أنه وحيد، كم يكره الغروب، ابتلع لعابه ودار ليركب مستسلمًا، فوجدها جالسة على المقعد المجاور، قالت له وهي تبتسم ابتسامة متشفية:

- شكلك شَبَه الأراجوز!

نظر لها بألم، ودموع متجمدة في عينيه، لم يكن ذلك حتى كافيًا، نزلت من الأتوموبيل ووقفت أمامه، وسألته بذات النبرة المتشفية وعيناها تلمعان:

- موجوع؟

أومأ برأسه في ألم، ولكنه لم يبكِ، قال وهو يركب الأتومبيل:

- سيبيني في حالي يا زينب! سيبيني.

ابتسمت وقالت بهدوء:

- أنا معدش ليا غرض فيك.

كان ما قالته كفيلًا ليُفجِّر ثورة غضب عارمة فيه، ضرب المقود بيده بكل قوته وهو يصرخ في ثورة:

- يبقى اعتقيني .. حلي عن كتافي يا زينب!! اعتقيني..

كان ثائرًا، خلع الطربوش من فوق رأسه وألقاه في الدواسة، فوقفت ببرود تنظر له وعيناه محتقنتان بالدماء وهي لا تزال على هيئتها الهادئة التي بلا مشاعر وفوق شفتيها ابتسامة خفيفة، ثم بدون كلمة رحلت. لم ينظر لها وهي تمشي وتختفي وراء الأتومبيل، ظل جالسًا يلتقط أنفاسه.

على الطريق إلى القاهرة كان يقود أتومبيله والدموع تطفر من عينيه دون إرادة منه في صمت.

* * * *

عاد سليم حقي لمنزله، فوجد عايدة جالسة على السرير ونبوية بجوارها، والحكيم جران يلملم أغراضه وفي طريقه للرحيل، فوزان كان على الأرض متكومًا في إحدى الزوايا يبكي وهو ينظر لها، وعلى وجهه آثار ضرب. لم يفهم ماذا يحدث، تمتم بلهفة:

- عايدة!

لم تنظر له، سأل نبوية:

- إيه اللي حصل يا نبوية؟

لم تُجِبْه نبوية، نظرت له نظرةً مشوبةً بالاحتقار، ثم التفتت إلى سيدتها، التي كانت تتحاشى النظر له والدموع تخنق صدرها.

- فيه إيه؟

حاول أن يقترب منها، فقالت:

- ابعد عني!

قالتها وهي ترتعش، والدموع تلمع على رموشها، تنظر له نظرة قهر، كانت تتألم، تتعذب، هذا ما رآه في نظرة عينيها، نظر لها بوجل، وعدم فهم، التفت لفوزان عساه يجيبه. قال:

- عايدة أنا..

قاطعته بصوت يمزق نياط القلب من وسط بكائها:

- إنت كداب!

صدمته الكلمة، كانت مثل طعنة سكين تلقاها قلبه، نظر للخادمة غير مستوعب، وصوت بكائها يمزق قلبه. لم يرَها تبكي مثل هذا البكاء من قبل، بكاء شخص يموت، وقد فقد الثقة في كل شيء، حتى أقرب الناس له.

قال فوزان:

- عمي برجس جاء، وهجم علينا هجيمة، بدّه المالية؟

فهم ما جرى، وامتقع وجهه عندما سمع ذلك، فهم أنها فهمت كل شيء، وأنه كان لا يزال يراهن على الخيل، وأنه كذب عليها، وخدعها، هل خدعها حقًّا؟ ما كان يريد إيذاءها بهذا الخداع، لم يدرِ ماذا يفعل، إن الخطأ ليس خطأه، إنه خطأ القدر يا عايدة، خطأ الدنيا، النصيب، إنها القسمة غير العادلة، تلك القسمة التي وضعتهما في طريق بعضهما، وَرَمَتْهُ بلا عمل، وأمرضتها، إنها القسمة غير العادلة. قال لفوزان والخادمة:

- اخرجوا.

الخادمة رفضت، قالت:

- مش هسيب ستي عايدة.

قال بصوت متحشرج حازم:

- اخرجي.

مطَّت شفتيها، وتركت سيدتها وخرجت مع الولد، ظل ينظر لها، بينما هي تبكي، لم يدرِ ماذا يقول، شعر برغبة شديدة في ضمِّها إليه؛ ليطمئنها، ولكنه كان يعرف أن ذلك أصبح مستحيلًا. لقد أصبح هو مصدر الخوف وليس الأمان، في النهاية قال بصوت منخفض وكأنه يهمس لنفسه:

- أنا كنت عاوزك تتوكدي إنك كنتي صح لما وافقتي عليا.

شهقت واندفعت من بين دموعها:

- أنا كنت عاوزاك إنت حتى لو كنت غلط!

نظر لها بوجه متشنج، لقد ضاع كل شيء الآن، خسر

المعركة بأكملها، وأيقن في تلك اللحظة أن كل ما كان يفعله منذ البداية مجرد عبث، حالة خبال طويلة دخلها بلا أي هدف حقيقي، ضيَّع وقتًا طويلًا، من أجل نفسه، وليس من أجلها. لم يكن شيءٌ من أجلها من البداية!

لم ينبس ببنت شفة، كانت الدموع متجمدة في أطراف مآقيه، لكنها كانت تبكيها. خرج من الغرفة، فوجد نبوية تنظر له نظرة اشمئزاز، تركته ودخلت لسيدتها لتحتضنها، رأى فوزان منكمشًا وقد ضمَّ ركبتيه لصدره فوق الأرض، الولد نظر له وكأنه يستنطقه، قال سليم كمصدوم:

- أنا مش وِحش.

قالها كأنه يبرئ ذمته أمام شخص ما كان ليفهم من الأصل. فوزان الصغير كان ينظر له بشفقة. تركه سليم حقي واختفى!

* * * *

كان الليل في بدايته عندما أوقف مرعي المصري أتومبيله أمام خمارة كوستيه، وأطفأ مصابيحه، ثم نزل منه بوهن، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمع الصياح الغاضب:

- فلوس برجس فين يا مرعي!

التفت فوجد سليم حقي أمامه مثل الشيطان، أمسكه من خناقه، ودفعه نحو الأتومبيل فارتطم به، رآه يصرخ فيه بألم:

- ابن الكلب هجم على أهل بيتي، ضرب مراتي يا مرعي.

بدا مرعي غير مستوعب ما يقوله سليم، كان كل ذلك خطأه، بدلًا من أن يسدد مال برجس الطحاوي ذهب لشراء أتومبيل! كان سليم حقي يثبته من خناقه في السيارة،

وكان مرعي مستسلمًا له كمنوم. قال له:

- التوموبيل قدامك، خده إديهوله..

دفعه سليم فتطوح وسقط أرضًا:

- أنا غلطان إني مشيت ورا سَبقْجي زيك؟

سقط مرعي فوق الأرض، وظل على ركبتيه، ثم رفع عينيه بغضب وهو يقول:

- وإنت إيه؟ ياكش تكون فاكر نفسك ضابط بحق وحقيقي، ما إنت سبقْجي زيي.. كنت مستني إيه؟ احمد ربنا إن مراتك لسه مستحملاك لحد النهارده. إنت اللي زيك ميسواش في سوق الرجالة.. زيي تمام!

كان سليم حقي ثائرًا، نظر له بغضب، ثم أمسكه من خناقه وجذبه له:

- لا أنا مش زيك يا مرعي يا مصري.. أنا مش زيك..

ضحك مرعي المصري بعصبية، ثم دفع قبضة سليم وأبعدها، وقام يستند على الأتوموبيل ليقف أمامه. كان الطريق المؤدي للخمارة خاويًا، ولم يكن هناك غير رجل عجوز يشوي العصافير عند الباب يتابع ما يجري بينهما في لامبالاة مخمور.

مرعي قال ضاحكًا ضحكة عصبية مجنونة:

- تعرف يا أفندي... العرب لما مُهر صغير من أمهارهم بيعمل غلط، بيجازوه إزاي؟! بيمشوه لورا، جزاء ليه، المُهر الصغير تنه يمشي لورا وهو مرعوب، عارف ليه مرعوب؟ لأن عند الخيل مفيش ورا، عينيها مبتجبش، أهو إنت نفسك ترجع ورا، بس مفيش ورا يا أفندي، خاف بقى. علشان إنت

مش بتتعاقب، إنت حتى مش مسموح لك تتعاقب.

نظر له سليم باحتقار، فقال:

- علشان تعرف بس إنك كوروديا، أنا باخد منك خمسين في المِية حداقة، وفهلوة، مفيش آنون في الدنيا يحكم إن قومسيونجي الخيل ميلعبش على فرس، بس أنا مكنتش عاوز أرمي نقدية على الأرض، فلاعبتك أنت بيها، تخسر تخسر لوحدك، تكسب أكسب معاك.. بالأونطة!

كانت الشياطين تتقافز في وجه سليم في تلك اللحظة، ولم يدرِ أي غضب سيطر عليه، فصرخ:

- يا ابن الكلب.

ثم هوى على وجه مرعي بلكمة قوية، تقبلها الأخير كمطرقة حديدية في وجهه، فسقط أرضًا، لكنه قام متحاملًا على ذراعيه وكبوت الأتوموبيل، ومسح خيط الدم الذي سال من طرف شفته السفلى بكمه وهو يضحك، ثم التفت لسليم، وطوَّح بقبضته في وجهه هو الآخر، فهوت عليه كمطرقة فسقط سليم. أخذ يلهث على الأرض بغضب، وهو يشخر مثل حيوان متأهب، ويتنفس بقوة، وكأن مرجلًا من نار في صدره، وجاءه صوت مرعي ساخرًا:

- إخص على سعادة الضابط، بقى أونطجي نوَري لا أكتر ولا أقل يعمل فيك كده؟ إخيه..

كان قلب سليم هشيم تأكله النار، ومرعي لا يصمت، دار حول نفسه، ثم صرخ صرخة قتال، وهو يلقي بجسده فوق غريمه، فسقطا من أثر اندفاعه معًا، فقام فوقه وصار يكيل له اللكمات واحدة تلو الأخرى وهو يصرخ.

كان مرعي مستسلمًا له ولضرباته، حتى إذا ما شعر سليم بأنه ما عاد قادرًا على رفع ذراعه توقف يلهث، وهو ينظر

لوجه مرعي الذي كان مليئًا بالدم والدموع. قام من فوقه وهو لا يزال يشخر بين لهاثه، وتراجع، فقال مرعي وكأنما يحدث نفسه وهو مصلوب فوق الأرض بذراعين مفتوحين:

- أنا نصحتك بس إنت غبي، غيرك كان يتمنى لحظة مع اللي اتقندل وطب في حبها، غير إن الغبا هو اللي بيجيب للبني آدم الأوى..

تراجع سليم مستنفرًا بعد أن شعر ببعض النشوة عندما قضى على خصمه، وأخذ يلهث وهو يمسح لعابه الذي يسيل من فمه مثل نمر شرس، بينما تابع مرعي من وسط بكائه:

- إنت فاكر إن اللي راح ممكن يرجع؟ اللي راح مبيرجعش.. زينب مش رايحة ترجع.

لم يفهم سليم حقي، لم يعرف من هي زينب، تأمل مرعي المصري الذي انهار في نوبة بكاء، ثم صرخ كأنما يناديها:

- يا زينب!

ظل سليم يرمقه من الأعلى، وهو يشعر بالاختناق في حلقه، وحسد مرعي على قدرته على البكاء وهو يتابع:

- أنا ضيَّعتها يا أفندي.. وإنت ضيعت حرمتك إنت كمان، إنت مش أحسن مني في حاجة..

لم يستوعب سليم:

- إنت قلت إن الشوطة خدتها.

ضحك مرعي من وسط دموعه، ثم توكأ على يديه، وبصق بعض الدم فوق الأرض:

- أما كورديا! وإنت صدّقت؟

لم يتكلم سليم، رفع نظره للرجل الذي يشوي العصافير يتفرج عليهما بلامبالاة، ثم نظر لمرعي الذي ترك دموعه تنساب على وجنتيه والمخاط يسيل من أنفه:

- أنا اللي قتلتها! مكانش فيه حرمة في الدنيا كلها تقبل سبقجي زي مرعي المصري، الحريمات كانوا يهربوا من سيرتي زي الطاعون، عيل تلفان مفيش فيه رجا، بس هي حبّتني..

مسح دموعه مستطردًا ببسمة منكسرة:

- كانت فشر بنات باريز! مملكة، زي الورد البلدي لما تسقيه..

ثم قال ودموعه تعاود الانهمار:

- بس أنا خليتها دبلانة ومَوات..

لم يفهم سليم، وقف مضيقًا جبينه، استند للأتوموبيل كي يظل واقفًا على قدميه، لم يكن يفكر في شيء إلا عايدة وهي تبكي فوق سريرها وأثر الضرب على وجهها، قلبه كان يرتعش وأطرافه..

- شغّلْتها مِخدِّمة في البيوت بدل ما أستّتْها، وسرقت إيرادها، وجريت بيه على شبابيك الرهان أرميه تحت حوافر الخيل، ولما تعترض أشتمها وأهينها زي النسوان البطالة.. مكانش ليها أهل.. كانت تسكت.. لا تمشي ولا تطفش.

رفع عينيه لسليم:

- حبيتها زي ما بتحب حرمتك تمام، إنت مش أحسن مني، أنا زيك تمام، قليل الأصل برده، عارف تعرف الدون قليل

الأصل منين يا أفندي؟ من ندمه، زي ما أنت ندمان دلوقتي تمام، الراجل ميعرفش قيمة الحرمة اللي معاه إلا بعد ما تروح منه.

أغمض سليم عينيه كأنما لا يريد أن يرى حقيقته المجسدة في مرعي المصري، بقايا إنسان ملقى فوق الأرض، كان كأنما ينظر لنفسه في مرآة عاكسة.

- لما فاض بيها من كتر الذل صبّت على جتتها صفيحة جاز، ولعت في حالها.

ألجمت المفاجأة سليم، ففتح عينيه والتفت لمرعي الذي تابع كأنه يشاهد مشهدًا أمامه:

- لما رجعتْ، الناس كانت ملمومة، وشفتها مرمية بينهم، خلقتها مكانتش هي، صورتها مبتفارقش بالي يا سيدنا الأفندي..

قالها وهو ينوح، رفع ناظريه ورأى الشبح الواقف من آخر الزقاق المعتم ينظر إليه، امرأة بوجه متفحم وجلباب أسود ممزق أطرافه محترقة، ملوث بالشحم الذائب من جلدها والدم المُهدر، حافية شعرها منثور حولها أطرافه متفحمة!

صمت مرعي وأخذ يبكي، فيما نظر له سليم حقي من الأعلى بشفقة، كان نواحه يملأ الزقاق المؤدي للخمارة. ولم يكن إلا واحد يعبر من أمامهما يرمقهما بنظرة فضول ثم يختفي داخل الخمارة من أجل نشوة لحظية بلا معنى..

مرعي قال:

- علشان أهرب رحت اتطوعت في السلطة، قلت السلطة ياما كفنت ودفنت، بس ممتش، البمب كان يقع جنب مني يشيل اللي يشيله بس ميشلنيش، قلت له: ليه يا رب؟ بس زي ما تقول ربك كان بيقولي عيش.. عيش يا مرعي..

ورفع عينيه لسليم كأنما يستجديه أو كأنما تفاجأ بما وصل له حاله:

- بس أنا مش عارف أعيش يا أفندي..

كانت ساعة صعبة على كليهما، وكأن كلًّا منهما ما عاد باستطاعته التحمُّل أكثر من ذلك، قال سليم:

- أنا تعبت...

- ولسه هتتعب، محدش في الدنيا دي بينول مُناه يا أفندي، لسه هتتعب، إحنا جايين الدنيا دي عشان نتلوِّد وبس..

ظل سليم يرمقه بنظرة ميتة، ثم أدار منفلّة الأتوموبيل، زمجر المحرك بقوة، فركبه، أشعل المصابيح فأعمى ضوؤها مرعي المصري، فنظر للأرض، رآه سليم عبر الزجاج جالسًا فوق الأرض على ركبته برأس مطأطأ مثل كلب أجرب منبوذ، ابتلع سليم لعابه ومسح طرف عينيه بظهر كفه، كي يستطيع أن يرى، ثم دار بمقود الأتوموبيل وهو يحركه تاركًا مرعي وحيدًا!

* * * *

قاد حتى هليوبوليس، إلى سرايا خشاب بك في شارع مينيس، قرر أن يخبرها بكل شيء، بالفرس وسرقة مرعي، برهانه على فرسها؛ لأجل إنقاذ زوجته، سيطلب منها أن تعطيه ١٠٠ جنيه ليسدد ذلك المال، وربما سيترك لها الأتوموبيل كمقابل!

عندما وصل طلب أن يرى ميتسي، قال له الخادم إنها غير موجودة الآن، لكنه أشار لأتوموبيلها المتوقف. مطّ عثمان شفتيه في ضيق، ثم أمره بالانتظار. صعد وغاب،

ثم عاد وقال له إنها تنتظر في غرفتها، تعجَّب من ذلك. كانت ملامح الخادم غير منضبطة، على وجهه أمارات القلق والتردد.

صعد وراء الخادم، وعندما دخل الغرفة رآها ممددة على شيزلونج مفروش بأوشحة حرير ناعمة، تفرد ساقيها وتمسك بكأس يبرق من خمر الموزيل تحت أضواء الشموع التي تذوب في الشمعدانات بجوارها، على الأرض عشرات الصور الفوتوغرافية، وزجاجات شمبانيا شربتها طوال الليل، سريرها عليه الكثير من الأثواب، بعضها تم تمزيقه عن عمد. رأى المقص ملقى فوق السجادة. وطاولة مقلوبة رأسًا على عقب.

عندما رأته ابتسمت بعبث. سمع صوت إغلاق الباب من خلفه، فالتفت فإذا بعثمان قد خرج. قالت وهي لا تزال نائمة باستهتار وضحك رغم خطين من الكحل السائل من أثر الدموع على وجنتيها وشعرها المنثور بلا ترتيب:

- أشرب وحيدة كالكلاب!

اندهش عندما رآها على تلك الحالة، لم يرَها من قبل كذلك، كان ثوبها مفتوحًا بغير احتشام، تمد ساقيها باتجاهه، أصابع قدميها منمقة متراصة كأزرار بيانو، وكعباها مستديران في فتنة، وفخذها مكشوف، ينحسر عنه الثوب الواسع الذي يكشف عن صدرها الصغير المكور كصدر صبية لم تبلغ.

لم يعرف ماذا يقول، ابتلع لعابه، ثم قال بالإنجليزية:

- لقد أتيت من أجل الفرس.

عقدت حاجبيها ثم نظرت له بضيق، وكأنها لا تتذكر قبل أن تقول:

- آه! فرس السباق..

أومأ برأسه إيجابًا، ولكنها قالت:

- لم يعد ديفيز، لن أذهب للكنيسة مرة أخرى، الرب صُلِبَ منذ زمن.. مات هو الآخر، ما عاد يستطيع أن يسمع دعاءنا.

كان سليم حقي مرتبكًا، وافق ما قالته ما شعر به، لم تُستجب دعواته هو الآخر. لماذا علينا أن نقرأ المكتوب!

قالت:

- لقد انتهى كل شيء.

رفعت عينيها إليه، ثم قالت:

- تعال معي إلى لندن..

قالتها برجاء، بعينين فيهما الكثير من الاستعطاف، لم يفهم سليم قصدها، فظلَّ ينظر لها بغير فهم، لم يقل شيئًا، كانت هشة، ضعيفة، لا تعي ما تقوله ولا تفهمه، استطردت بعيون باكية:

- لم يبقَ لي أحد في هذه الدنيا.. تعالَ معي. أخاف أن أموت وحيدة مثل الكلاب!

اختلجت ملامحها وهي تقول ذلك بصوت متهدج مليء بالدموع، كان يشعر بأن قلبه منكسر هو الآخر، ودَّ لو أنه استطاع أن يزيل عنها كل هذا الألم. قالت جملتها وانهارت في بكاء شديد، نظر لها سليم بجزع، لم يدرك ما عليه فعله، لقد سقطت كل أقنعة كبريائها أمام ناظريه، زالت قشرة القوة، كانت كأنما تعرَّت بالكامل أمامه، فأظهرت له كل ما كانت تخفيه. قلبه كان يرتعش وهي تنشج:

- ديفيز رحل يا أفندي.. رحل.. أنا تزوجت نعوم كي أراهن على الخيل.. كي أفوز.. لقد فزت كي يعود ديفيز، لكنه لم يعد، إنه فوز بلا قيمة، إن الحياة كلها بلا قيمة، وكل أمانينا فيها بلا قيمة.. أنا سأموت وحدي.. لقد أصبحت كبيرة.. سأموت وحدي..

ظلت «ميتسي غلوب» تحمل هذا الهاجس طوال حياتها، لقد انتهت، انتهت وحيدة في هذه الدنيا، حتى الإنجاب ما عادت قادرة عليه وهي في سن الأربعين الآن، مات كل من هم لها في هذه الحياة، ستموت وحيدة بعد عام أو اثنين أو عشرين، كيف يمكن أن تبني حياة أخرى؟ والأهم لِمَ تفعل؟

قامت وتوجهت نحوه وهي منهارة في الدموع:

- تعالَ معي يا سليم أفندي! تعال، سوف تعيش مثل سلطان، أنا أصبح لديَّ كل شيء، معي الكثير من الأموال، والأطيان..

كان سليم ينظر لها في جزع ولسانه لا يتحرك.

- أنا امرأة تتسوَّل الحب هل يمكن أن تعطيني إياه؟

هاله ما قالته، وكاد ينطق بشيء ما، كاد يقول لها إنه لا يستطيع، ولكن لم يتمكَّن، كان هناك حجر ثقيل داخل حلقه لا يستطيع أن يحركه، اندفعت تقول في ارتباك، مشتتة:

- أنا امرأة كبيرة، أعرف هذا، أنت شاب جميل، ربما أكبرك بخمسة أعوام أو أكثر، ولكن.. ولكني امرأة.. ما زلت امرأة..

ثم باستجداء وهي تمسك قميصه بكلتا يديها، والدموع في عينيها:

- أحبَّني يا سليم..

قالتها ودفنت وجهها في صدره القوي، وأخذت في البكاء، كانت تريد منه أن يحتضنها، أن يحتويها، أن يُشعرها برجولته وأنوثتها، أن تشعر بحنانه في مقابل ضعفها، أراد أن يفعل هذا، رفع يده لوهلة كي يحتضنها، يضمها لصدره، يغمرها بكل إحسانه وعطفه، قلبه صار ينبض وكأنه سيتوقف، لكن قبل أن تمسد كفه ظهرها توقف، هز رأسه أن «لا» وأنفاسه تتلاحق، هذا لا يجب أن يكون، ولما لم تشعر منه بشيء، عندما شعرت بأنها تحتضن جدارًا، ابتعدت عنه بهدوء وكأنها أفاقت، وكأنها تتمالك نفسها وهي تمسح دموع عينيها، ثم لم تنظر له. تراجعت وهي تنظر للأرض.

قالت له بانكسار:

- اخرج!

هزته الكلمة كأنما فوجئ بها، فتح فمه وتمتم:

- أنا..

لكنها قالت بهدوء مباغت، وكأنها عادت لرشدها:

- أرجوك اخرج..

طأطأ رأسه، وخرج يجرُّ أذيال خيبته!

* * * *

لم يعد سليم إلى منزله إلا في صباح اليوم التالي، ظل هائمًا في الشوارع غير قادر على المواجهة، لقد انهدم المعبد على رؤوس الجميع، يعرف هذا الآن، عندما اقترب من المنزل وجد حنطورًا أسفله، وعربة كارو، وعددًا من الفلاحين نازلين من بيته يحملون حقائب يُحمِّلونها فوقها.

تعجَّب وصعد لأعلى، فوجد فوزان يبكي، في ركن الصالة، ووجد رجلًا قصيرًا خمسينيًا على رأسه طربوش أسفله منديل محلاوي يمتص عَرَقه؛ رجل كان يعرفه باسم حنا أفندي باخوم كاتب البك الكبير في التفتيش! عندما رآه الرجل قال له بصوت هادئ:

- سعيدة يا سليم أفندي؟ إن شالله تكون بخير..

كان متعجبًا ما الذي جاء به هنا، اندفع إلى غرفة عايدة، فوجدها تبكي وأمامها حقيبة سفر مجهزة، وقد ارتدت ملابسها، فهم ما تنوي فعله، فارتعش قلبه وشعر به يهوي، تقدم منها ببطء وهو تحاول ألا تلتقي أعينهما الدامعة، ابتلع لعابه بصعوبة، وخرجت الكلمات المرتعشة من حلقه:

- هو... هو مش عيش وملح يا عايدة؟

لكنها لم تُجِبْ، كانت كلماته قاسية عليها، فخافت أن تنظر في عينيه، فتثنيه نظراته التي طالما أحبتها عن قرارها، كان هناك بكاء لا تستطيع أن تبكيه، صراخ تستطيع أن تهز به أركان الدنيا وتزلزل به أعمدة السماء فيهوي العالم على إثره، ولكن ما كان يجب أن تصرخه. كانت تدعو الله أن يصمت، ألا يؤلمها أكثر، لكن سليم حقي لم يستطع أن يصمت، كان مثل المفجوع الخائف يتحدث بسرعة ورعب بعد أن فقد كل سيطرة على نفسه:

- أنا مش رايح أراهن تاني يا عايدة.. هجيب فلوس يا عايدة.. هم.. هم قالوا لي.. قالوا لي هيلاقوا حل يا عايدة.. قالوا لي هرجع الوظيفة تاني.. والاستشكال هيتقبل.. هيرجعوا ليا المعاش.. أنا.. أنا رايح أكلم أبويا الحاج علشان يعطيني نصيبي من الأرض.. أنا كدبت من خوفي عليكي يا عايدة.

كان يكرر اسمها دون أن يدري في حديثه، كأنما يتمسك بها كضائع، ظلت تنظر للحقيبة كي لا تنفجر في البكاء.

قالت:

- هو مش عاوزني.. كفاية..

قال بسرعة وكأنه لم يصدق أنها ردَّت عليه بكلمة:

- بس أنا رايدك يا عايدة، أنا مليش غيرك، متسيبينيش!

كان يرتعش عندما دخلت نبوية الخادمة الغرفة وهي تقول بصوت مرتفع:

- الجماعة جاهزين يا ست عايدة!

لم يتمالك نفسه في هذه اللحظة من وسط دموعه، ووجد نفسه يمسك بالقلة الفخارية المرتكنة فوق الكومود، ويلقي بها في الأرض نحوها بكل قوته مهشمًا إياها، فانفجرت وتناثر الفخار في كل مكان، أسفل قدميها وهو يصرخ بثورة:

- اخرجي بره يا بنت الكلب! اخرجي..

صرخت عايدة في رعب، وبُهِتَت نبوية، وارتعبت عندما رأت هذا الشيطان الذي تحول له، فاندفعت للخارج وهي تصرخ، والتفت هو لعايدة:

- يا عايدة.. أنا.. أنا هبقى عال.. أنا مليش غيرك.. هما قالوا لي فيه دكان أفوكاتو ورايح أشتغل فيه.. أو في الفاعل.. أو أسافر إسكندرية مع عمال البحر.. هبقى عال..

كان يقول كلامًا لا يعيه من الأصل، مسح دموعه وأردف بصوت مرتجف:

- أنا مليش غيرك!

كان كمن سُحِبَت منه روحه، شيء ما فقدته نفسه، ولم يكن يعرف ما هو، ربما قلبه، أو إيمانه، كانت الأصوات بالخارج وكأنها حكم بالإعدام عليه، أناس يتناقشون لا يعرف من هم، لِمَ أتوا إلى بيته؟ لماذا يريدون أن يقلبوا كل شيء؟ كانت عايدة ترتعش من الرعب والانفعال وتنظر له بخوف، إلى أي مدى صار غريبًا بالنسبة لها، شعر بنظراتها وكأنها إعلان نهاية لكل حياته، إنها تبكي خوفًا وفزعًا، تريد أن تهرب منه، ومن وجهه! لم تكن أبدًا تلك النظرة التي تنظر بها له، لم يكن فيهما تلك الفجيعة.

استسلم، رفع حاجبيه في شفقة، والدموع تسيل على وجنتيه، وقد تشنج فكُّه، وأيقن أنه ما عاد هناك مفر. انتهى كل شيء بالفعل.

تنحى جانبًا فانتهزتها فرصة، ووضعت البرقع على وجهها وهي ترتعد وخرجت، كمن يهرب. ظل واقفًا لوهلة، ثم خرج وراءها كالمنوَّم! وقف يتابعها وهي تخرج من بيته، كان فوزان يبكي، وهو ينظر لها، شقَّ عليه أنها نسيته في كل هذا، ناداها وهي على الباب من وسط دموعه:

- يا ست عايدة!

التفتت له، ونظرت له ثم بكت، جرى ناحيتها، وألقى نفسه في حضنها، وأخذ يبكي، احتضنته وبكت هي الأخرى، كانت كمن تحتضن ابنها، ظلت كذلك حتى استعجلها حنا باخوم. تركته.

كانت هذه هيَ آخر مرة يرى فيها (الست عايدة)، ستظل تلك المرأة في ذاكرته طويلًا، وستظل نظرتها الحزينة محفورة في قلبه بقية عمره. لن يرى فوزان الطحاوي عايدة مرة أخرى، لكنه سيحكي عنها كثيرًا، سيتكلم عن بشرتها

البيضاء كلما تحدثوا عن امرأة جميلة، عن صوتها الهادئ الرخيم، عن حضنها الحنون. عن تلك الليالي التي جلس فيها يتحدث إليها وحيدًا كأمٍّ وابنها. سينزل وراءها السلالم، ويراقبها وهي تركب عربة الحنطور مع خادمتها، وحنا باخوم يجلس بجوار العربجي.

يركض وراء العربة حتى تختفي، لن يعرف لماذا سيركض، لن ينادي حتى، سيركض حتى يتعب، ثم سيقف عند نهاية الشارع، والعربة تبتعد، سيشعر أن جزءًا من قلبه قد ذهب معها، لن يعود هذا الجزء ثانية إلى مكانه مرة أخرى.

عندما سيعود سيجد سليم أفندي بجوار الباب، وسيدرك أن هذا الرجل قد مات وهو على قيد الحياة!

* * * *

السقوط

(١)

«رستــوران ريــار ميدان ســليمان باشا نمرة ٧ يتشرف الخواجة ريار بتهنئة الجمهور الكريم بمناسبة انتهاء موسم السبق هذا الشتاء، ويتمنى أنه انتهى بنجاح عظيم ورضاء الجميع، ويدعوكم لزيارة مطعمه؛ للاستمتاع بأدهش المناظر الخلابة والأثاث الفاخر وأنوار الكهرباء الحديثة».

طوى خليل بك الجريدة، ثم تأمل السماء الملبدة بالغيوم فوق مصر الجديدة، والتي انعكس لونها الرمادي على كل الموجودات، وتأمل ساحة التريُّض

في مضمار السباق، ثم ألقى نظرة على ميتسي خشاب التي كانت تجلس أمامه، وفكر أنها تبدو حزينة، وقد أمسكت مظلتها متيقنة بنزول المطر.

كانت المدرجات ممتلئة عن آخرها، والصخب على أشده في آخر سباقات الموسم، لم يفُز في أي رهان هذه المرة، ضلَّت منه جميع الألعاب الصحيحة، ولكنه يعرف كيف سيكسب تلك اللعبة هذه المرة.

الخيول اليوم عصبية، تدور حول نفسها، فَرَسان التحما في صراع، وصارا يضربان بعضهما بالحوافر، فارتفع صياح الجمهور، والسياس يبعدونهما بالكرابيج.

فوزان كان فوق الفرس «شمعة»، هذه المرة لا يوجد أحد يعرفه، لا مرعي، ولا سليم حقي، لا يوجد غير ميتسي خشاب ورجل من جنسها يقود الفرس، كان يتلفت في وجوه الناس باحثًا عن وجه كان يتحاشاه طوال الأيام الماضية.

خلال الأيام الماضية لم يكن سليم أفندي حقي هو نفسه،

جلس في منزله، لا يتحرك، على مقعد في الصالة، كان أشبه بصنم، ترك لحيته تطول، ما عاد يستحم، لم يقم من فوق المقعد، لم يشعل سراجًا واحدًا داخل المنزل منذ رحلت الست عايدة. ما كان يضيء المنزل إلا تعاقب الليل والنهار. ففي الصباح يتسلل الضوء الأبيض عبر مخرمات المشربية، ثم يأتي الليل سريعًا، ليس فيه غير الظلام والصمت. لم يكلف نفسه حتى شراء الجاز لإشعاله، حاول أن يكلمه، ولكنه لم يلتفت له، كان شاردًا. كأنه في عالم آخر، ظل كذلك ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث قال له كلمة واحدة وهو ينظر له مثل شبح بعينين لم تذوقا طعم النوم، أسفلها أسود، قال له:

- امشي!

لم يعرف إلى أين (يمشي)، كيف يعود؟ هل يعود لبلدته؟ هل يسأله عن المال؟ هل يذهب إلى الفرس «شمعة»؟ كان غير مستوعب ما قاله الأفندي، جلس بجواره على الأرض لا يتحدث. خاف أن يرميه خارجًا. بعد يومين آخرين أخذه بالأتوموبيل إلى الإسطبل. قال لهم إنه جوكي ميتسي خشاب، جعلوه ينام في غرفة السروج، قال له: إن هذا أكثر أمانًا؛ لأنه كان عازمًا إذا جاء برجس ثانية أن يقتله انتقامًا على ما فعله بعايدة.

أخذ منه مسدس أبيه، وأعطاه بُقجته، وضع في البقجة كل ما جاء به من جزيرة سعود، وملابسه الجديدة وطربوشه، ورحل، أخفاه الحاج ونيس كبير السياس في الإسطبل، سمح له الرجل بأن ينام في غرفة السروج، نام وسط أدوات التطمير والتنظيف والحبال. كان خائفًا في الظلام الدامس، يتخيل مع كل حركة أو صوت خطوة لسارٍ في وسط الليل أنه برجس، وقد جاء ليقبض روحه!

لم يعرف شيئًا عن سليم أفندي، ولا عن مرعي المصري، ولا عن ميتسي خشاب، قبل السباق بيوم فقط جاءه

خادمها عثمان، وأعطاه ملابسه الخاصة بالسبق، وأخبره بأنه سيسابق غدًا.

اكتفى من هذا العبث الذي لا فائدة منه، مَن كل هؤلاء البشر؟ لماذا هو منخرط إلى حد التماهي في مآسيهم، لو أنه الآن عاد لأمه، لو ارتمى في حضنها، لانتهى كل شيء كأنه لم يبدأ، عندما كان يغمض عينيه كان يتذكر عايدة، وهي تبتسم.

قضى يومين في الإسطبل، وفي اليوم الثالث كان على ظهر الفرس استعدادًا للسباق الأخير. سباق أصرت ميتسي خشاب أن تخوضه؛ انتقامًا من نفسها، وانتقامًا من الحياة ذاتها، تحديًا لكل ما آلمها وأوجعها، تحديًا حتى لمن أحبَّته، لسليم حقي.

ظل فوزان يرتجف فوق الفرس، حتى أمر الحكم جميع الجوكية بالتقدم عند خط البداية، فانقبض قلبه، وقد ارتفعت حمحمة الخيول وصهيلها.

كان خليل بك يتابع بمنظاره المقرب ذلك السائس الذي كان يقترب من الفرس «شمعة»!

لم يستطع أن يسمع الحوار الذي دار بينه وبين فوزان. فوجئ فوزان بالسائس يقترب منه، كان رآه ذات مرة في الإسطبل، اقترب منه وقد وضع ذيل جلبابه في فمه، اقترب يتأكد من تثبيت قشاط السرج حول بطن الفرس، ثم رفع رأسه لفوزان:

- أنا بدي أعرف مين ابن الوطا اللي ربط لك السرج دا!

لم يفهم فوزان، فتابع:

- السرج عايم!

ولم يعرف الولد فوزان أنه في تلك اللحظة لم يربط السائس القشاط، ولكنه فكه! لم يلحظه وهو يعود أدراجه، ويشير بعينيه إلى خليل بك في المدرجات.

* * * *

قبل ساعة واحدة من ذلك كان سليم حقي في منزله، يتأمل المسدس الموضوع أمامه؛ «ويبلي»، بريطاني، ثقيل، بست طلقات. هذا المسدس الذي اصطحبه اللورد ألنبي في حروبه ضد البوير في أفريقيا.

قام سليم حقي، ونظر للمرآة، رأى عينيه فيها، رأى كل ماضيه، لم يخطئ عندما نزل من على حصانه في ذلك اليوم من عام ١٩١٩، لم يخطئ عندما واجه الإنجليز، لم يخطئ عندما اعترف بكل ما فعله أمام قومسيون التحقيق، قال إنه وقف مع المتظاهرين؛ لأنه رجل مصري، لم يندم. سليم حقي كان خطأ أن يوجد في هذا العالم، هذا كل شيء، ولكنه لم يخطئ.

وضع الطربوش على رأسه، ونظر في انعكاس وجهه بنظرة عسكرية صارمة، ثم أخذ مسدس إدموند ألنبي، وحشى ساقيته برصاصة واحدة فقط، ثم أدراها في الهواء وأغلقها برنين معدني قوي، تردد صداه في المنزل، ثم وضعه في جرابه الجلدي في حزامه، قبل أن ينزل نظر لنفسه مرة أخيرة وكأنه يودِّع ملامحه، كادت عَبرة تهرب منه، ولكنه سيطر عليها!

قاد الأتوموبيل عبر الصحراء إلى هليوبوليس، لم ينظر هذه المرة إلى خيام معسكر الإنجليز وهو يعبر الصحراء، لم ينظر إلى عَلَمهم المرفرف، لم يهتم، إنه لم يخطئ، ولو تكرر الزمن مرة أخرى، لنزل من على حصانه، ورفع العلم الأحمر ذا الهلال والنجوم الثلاثة وصرخ (يسقط الإنجليز!).

خدع نفسه كثيرًا وتلاعب بها كثيرًا، لم يعد هناك وقت

لكل ذلك، انتهى كل شيء الآن. عندما وصل إلى مضمار السباق، كان الزحام شديدًا، وكان السبق على وشك البدء، تقدم نحو المقصورة المخصصة للسلطان فؤاد، مستغلًا غياب البواب بخطوات بطيئة، كان يعرف طريقه ربما لأول مرة، عبر الأيام الماضية رسم الخطة في رأسه مئات المرات. إنه الجزاء العادل المُرضي لجريمة الإفراط في الأمل التي ارتكبها.

ارتقى سلم المقصورة، فطالعه الظلام الشديد، توجّه لخصاص النافذة وفتحها، انغمرت المقصورة بضوء الشمس والجلبة الشديدة القادمة من الخارج، ورأى مضمار السبق البيضاوي والخيول فوقه، رأى من بعيد الفرس «شمعة» وفوقها فوزان الطحاوي. الناس تصرخ في المدرج مثل المجانين، عيونهم تترقب الخيل في حماس.

كان قلبه يدق، لكن شجاعته القديمة كفيلة بأن تدفعه للأمام. استل مسدسه من جرابه، وتأمله، إنها مقامرة أخيرة، لعبة تعلمها من الضباط الإنجليز الذين كانوا معه في البوليس، يسمونها (الروليت الروسي)، رقصة أخيرة مع الموت، اختبار نهائي لتلك الفضيلة الحمقاء التي أودت به وبحياته ويسمونها الشجاعة. أخبره الضباط الإنجليز أن مقاتلي الساموراي اليابانيين كانوا يقتلون أنفسهم بالهارا كاري، يشقون أحشاءهم بأنفسهم لمسح عار الهزيمة عندما ينهزمون(39). لقد ظل أيامًا يفكر في تلك القصة.

جلس على مقعد السلطان المحفور على قمته بالذهب حرف (F) الأثير لدى السلطان، فكر فيما يمكن أن يحمله خبر انتحار ضابط في مقصورة السلطان من نذير شؤم للرجل المؤمن بالفأل والمتشائم دائمًا، واعتبر أنه انتقام عادل لما فعله هذا الخائن لبلاده وحليف الإنجليز، الذي أشّر على قرار عزله.

كان السباق قد بدأ، وهتاف الناس يصله طنينًا، والصحراء

تبدو أمامه بلا نهاية، فحرك بإبهامه مسمار إطلاق النار، ثم وضع الماسورة على صدغه بثبات.

ما الموت؟ ربما سيعرف الآن.

أغمض عينيه، فرأى حوافر تركض، وأوراقًا لوترية، وامرأة تبكي، وأتوموبيل أسود، وبدو يغنون، وديوك تتصارع، ودماء فوق الرمال، وزنجية ترقص!

عندما شعر برغبة في البكاء، ضغط أضراسه في ثورة، ثم بدون تفكير جذب الزناد!

انتفض مع الرنين المعدني لإبرة المسدس، وهي ترتد بقوة، دون أن تنطلق الرصاصة لتفجر رأسه. فتح عينيه وهو يطلق آهة عميقة وصدره يعلو ويهبط بشدة. ابتلع لعابه، وأعاد سحب المسمار من جديد بإبهام مرتجف، وتناهى لسمعه صوت اللغط الشديد بالأسفل عند باب المقصورة، وأدرك أن البواب قد كشف تسلله لأعلى، وفسَّر الصياح باللهجة الصعيدية:

- يا ابوي! انزل من عندك يِحْرَجْ أبوك!

بيد مرتعشة وضع الماسورة في حلقه، وأطبق عليها شفتيه، أغلق عينيه بقوة، ثم ضغط الزناد، ولكن المسمار ارتد ثانية دون أن يُطلق الرصاصة، فانتفض قلبه من مكانه، وفتح عينيه، ولم يستطع في هذه اللحظة أن يمنع نفسه من البكاء، وهو يرتعش، ويلهث في جلسته فوق المقعد وقد تلاشى كل ثباته..

- انزل يا ابن البعيد! انزل يا...

صوت الحارس كان يزيد من ارتباكه، فصرخ من فرط الانفعال مرتعدًا، ثم وضع هذه المرة الفوهة على صدره، موضع القلب، حيث يكمن كل ألمه، لهث والدموع تغرق

عينيه ووجهه، أغمض عينيه بقوة، فرآها.. كانت تبكي في الظلام وهي تنظر له، وتذكر أنه لم يكتب لها حتى خطاب وداع. فتح عينين تغشاهما الدموع، وكأنه رأى الحقيقة بغتة، وهمس:

- عايدة!

ولكنه لم يعرف كيف سبقته سبابته في هذه اللحظة، وسمع الجميع دوي الرصاصة المرتفع!

* * * *

انطلقت الخيول مرة واحدة، وانتبهت الأبصار لها وهي تندفع بقوة واحدة، ولكنهم صمتوا بغتة عندما رأوا ذلك المشهد الغريب، وشهقوا شهقة واحدة، فمن فوق الفرس البيضاء «شمعة» سقط الجوكي من فوق السرج غير الثابت، وقبل أن يسقط جذب اللجام بقوة بحركة لا إرادية، فوقفت الفرس على خلفيتيها، ثم اختلَّ توازنها وانقلبت على ظهرها مرتطمة بالأرض بعنف شديد.

انطلقت الشهقات من جميع الحلوق، ووقفت ميتسي خشاب في مكانها فزعة، وقلبها ينبض برعب، والدموع تتجمد في مآقيها.

كان فوزان ملقى على الأرض يشعر بطعم الدم في فمه، والأرض ترتجُّ من أسفله مع ركض بقية الخيول في المضمار، فحاول أن يرفع عينيه، فرأى السرج ملقى إلى جواره، والفرس تقوم من مكانها، وتركض بعيدًا عن المضمار!

شعر بأنه على وشك الإغماء ودارت به الدنيا، ولكنه فتح عينيه في هلع، وهو يحاول أن يجد ميتسي من بين الجماهير الغفيرة، ولكنه لم يستطع أن يجدها، أخذت عيناه تدوران في رعب، رأى وجهًا آخر، ذلك الكابوس الذي كان يهرب منه؛ رأى برجس الطحاوي!

كان برجس بزيه البدوي واضحًا وسط الخواجات والأفندية، يتقدم من بعيد، وكان الضباب يغزو عقل الولد من أثر الارتطام العنيف، شعر بالذعر وتسارعت أنفاسه، وتخيل سكين عمه وهي تغوص في لحمه وعظامه، ولم يدرِ إلا وهو يركض تاركًا كل شيء وهو يصيح بهلع، فيضيع صوته وسط الجماهير الهائجة وأصوات الصفير والصراخ الحماسي، سمع في هذه اللحظة دوي الرصاصة العنيف، ظنَّها رصاصة من عمه، التفت له، فوجده يقترب منه بملامح غاضبة كشيطان. حاول أن يذوب في الجمع، صار يضرب الأجساد حوله ليشق طريقه بينها، تعثر وسقط بين الأرجل التي داسته، قام مرة أخرى بصعوبة، وركض وراء المدرج إلى الخارج، نحو بوليفارد عباس، الذي كان كعنق الزجاجة، مكتظًا بالمئات من الناس الذين جاؤوا لمشاهدة السبق، أو لقبض قيمة تذاكرهم من أمام شباك التذاكر.

دار حول نفسه وهو يلهث من أثر الركض، فرآه يسير وراءه بخطوات ثابتة سريعة كالهرولة دون أن يُصدر عبارة واحدة. يشبه الموت بحركته، ثابت واثق وعلى ملامحه ترتسم ملامح ملائكة العذاب!

شعر فوزان بأن صدره ينفجر، وقد خرج إلى الشارع الكبير في المدينة التي لا يعرفها، فرأى العمارات المرتفعة المبنية بالخرسانة مثل عمالقة مرعبين يتحضرون لافتراسه، قبل أن يصل إلى فندق هليوبوليس انحدر يسارًا إلى شارع الأهرام.. أطياف من الناس يرمقونه باستغراب وهو يركض وسطهم بملابس جوكية زاهية تلمع تحت أشعة الشمس.

اندفع إلى ميدان الملكة إليزابيث، فرأى كنيسة البازيليك شاهقة بقبابها المرتفعة، فكر أن يدخل إليها، ولكنه تراجع وصرخ برعب وهو يطلق ساقيه ليجتاز الميدان إلى أي شارع يعصمه من عمه.

رأى مجموعة من الهجانة النوبيين على ظهور الجِمال وفي أيديهم الكرابيج، لم تكن رؤيتهم إلا سببًا آخر لخوفه، فانحدر في شارع موازٍ، فرأى من بعيد أمامه قصر البارون الهندي المرعب!

خاف أن يلقي بنفسه للمجهول، فعزم أن ينحدر يسارًا عندما بدا تقاطع شارع البارون مع شارع إسماعيل، فالتفت وراءه ووجد برجس، وقد تحولت هرولته إلى ركض متسارع!

عندما وصل إلى تقاطع الشارعين رأى الترامواي قادمًا من بعيد، يعبر على القضبان الحديدية، ضخمًا مريعًا مفزعًا، لم يكن ليتوقف، وقد ظهر أمامه طريقان أحدهما يقود للقصر المخيف والآخر لشارع السلطان حسن، فاختار أن يندفع في الأخير لما وجد به من زحام وأتوموبيلات تتحرك، ولم يكن ليتوقف في هذه اللحظة ودموع القهر تتناثر من عينيه، عبر من أمام الترامواي المُقترب، وانطلق وقلبه يتمزق ونفسه يضيق، ولم يتوقف إلا عندما سمع الصراخ الشديد من ورائه، فالتفت وهو يلهث، وأمام عينيه رأى مشهدًا سوف يظل محفورًا بعقله بقية عمره.

كان يتقدم بفزع وهو يسمع عبارات:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! أشهد أن لا إله إلا الله!

فعلى بُعد أمتار منه كان يرى الترامواي الأحمر بجسده المعدني الضخم المهيب قد دهس جسد برجس أسفله، وفرمه بقوة، ومزَّق لحمه، وعلى الإسفلت الساخن الملتهب بأشعة شمس المدينة المخيفة التي لا ترحم، رأى دماءه تجري وتصفى!

* * * *

ضحك خليل بك عندما سقط فوزان من فوق الفرس، كانت ميتسي خشاب أمامه تنظر للمشهد في كمد، وهي على

وشك البكاء، شعرت بالغضب يسري في كل عروقها، خليل قال متشفيًا:

- هذا أمر طبيعي، السباق له أصحابه، ليس كل من امتلك فرسًا يمكنه أن يفوز بسباق! حان الآن للأمور أن تعود لنصابها الصحيح.

لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء، طفرت الدموع من عينيها، وكان هو لا يزال يتهكم بصوت مرتفع، وكأنه يدعو جميع من في المدرج من بكوات وذوي حيثية للاشتراك معه في سخريته:

- الواضح أن السيدة ميتسي خشاب كانت مخطئة باختيارها سباق الخيول كرياضة، كان عليها أولًا أن تعرف كيف تنفق أموال المرحوم نعوم بك. بدلًا من إنفاقها على سمسار خيل لا يفقه شيئًا عن وظيفته!

كان يقصد مرعي المصري، لقد أخذ الأمر تحديًا بينه وبين عبده القديم الذي تطاول عليه، واليوم انتصر، لم تتحمَّل ميتسي ما يقوله، التفتت له والدموع في عينيها، وصرخت بصوت مختنق غاضب مثل لبؤة:

- اخرس! أنا لا أسمح لك بالحديث معي بهذه الطريقة.. ما أنت إلا مجرد حيوان.. من أعطاك الحق لتتحدث معي بمثل هذه الطريقة؟

كانت تضغط على أسنانها، لم تستطع أن تسيطر على غضبها، خلعت حذاءها من قدمها ثم ألقت به وسط المدرج، ارتفعت صيحات الاستهجان من الجميع، تفادى خليل بك نعلها، وضيق عينيه، ثم قال مستفزًّا لها:

- رغم كل ذلك ما زلت تثبتين أنك مجرد امرأة من الغوغاء. إن الأصول لا تُشترى، إنها تورّث!

وقفت أمامه ترتعش من الغضب، وتنظر له بعينين محمرتين، بينما رفع هو رأسه في ثبات، واندفع عثمان الخادم من مكان ما، ليُخرجها من وسطهم، خرجت تبكي، حافية القدمين، عندما ركبت الأتوموبيل كانت أنفاسها متهدجة وكأنها على وشك الموت، طلبت من خادمها أن يأخذها للإسطبل. أخذها إلى هناك، فتحوا لها الباب، ونزلت أنفاسها متلاحقة، رآها السياس تسير حافية نحو كبائن الخيول، بحثت في لهفة عن الفرس البيضاء «شمعة» بين الكبائن حتى وجدتها هناك، واقفة. دارت دورتين حول نفسها، ثم وقفت إزاءها!

تحلَّق السياس ليفهموا ما يحدث، لم تهتم، وقفت أمام الفرس بأنفاس متلاحقة وعضلات مستنفرة، وكأنها على وشك الهجوم عليها هي الأخرى. كانت مثل حيوانة مفترسة ستؤذي كل من يقترب منها.

لقد عادت لنقطة البداية، للهزيمة الأولى التي عاشها ابنها ديفيز، حتى موته، الفوز نفسه كان بلا قيمة، لا الفوز كان له طعم، ولا الهزيمة فارقتها للأبد، لقد سارت في دائرة وعادت لنقطة البداية، تلك النقطة التي تُذكِّرها بساعة رحيل ولدها الصغير. إنه لن يعود للأبد، لن يعود ثانية، لن تشم رائحته مرة أخرى، ولن تستطيع أن تحضنه، لن ينفعه فوز فرس أو خسارة، أما هي فستظل وحيدة، فقط تشتاق له، وهو لن يعود، لن يجدي شيئًا. كانت تنظر إلى الفرس كأنما تنظر لخيبتها، ومخاوفها، تنظر لها بحقد وكراهية شديدة، كراهية ترجُّ جسدها الضعيف النحيل وهي تشخر والمخاط والدموع يغرقان وجهها حتى دون أن تبكي، كانت إلى تلك اللحظة لا تزال تحافظ على نفسها من الانهيار.

الحاج ونيس رآها هناك تنظر للفرس وجهًا لوجه وكأنها تنظر في مرآة، صعب عليه أن تكون بنت الناس فرجةً لكل من هبَّ ودبَّ من السياس، فرَّقهم بخرزانته، وصرف كلًّا

منهم إلى عمله، بينما وقفت هي ترتعد أمام الفرس تحملق فيها مثل تمثال من الشمع لا يتحرك.

عثمان خادمها كان متوقفًا بعيدًا عنها، مطَّ شفتيه وقاوم دموعه، ثم اقترب منها، وهمس بصوت خاف أن تسمعه:

- ميتسي هانم!

رمشت عندما سمعت اسمها، كأنها استيقظت، والتفتت باتجاه الصوت، ولكن ظلت مسلطة نظرها للأرض، مسحت دموع عينيها بظاهر كفِّها، وكأنها سيطرت على انفعالها، لكنها دون إرادة منها أجهشت قليلًا، قبل أن تنفجر في البكاء، انفجرت دموعها دفقةً واحدةً، وشعرت بأن روحها تخرج من صدرها، فلم تتمالك نفسها، واستندت على الجدار في الممر الفاصل بين الكبائن، ثم جلست على ركبتيها.

مطَّ عثمان شفتيه، ومسح دمعة فرت منه، وقد رأى سيدته على هذه الحالة، كانت تنوح:

- كان صغيرًا يا عثمان.. كان صغيرًا.. كان ولدًا صغيرًا..

ظلت تبكي وحيدة فوق أرض الإسطبل حافية، مهانة، مكسورة القلب.

في هذه اللحظة وصل مرعي المصري، وقف يلهث، وكأنه قطع المسافة كلها ركضًا. بعد أن علم بما حدث، رآها فوق الأرض عند حافر الفرس تبكي فوق الطين، وقد تلوثت ثيابها، والدموع قد أخفت عينيها، وقد انفتح فمها من شدة ألم قلبها، فصارت تصرخ وكأنها تستنجد بإنسان ما؛ لينقذها من وجعها الذي يعتصر صدرها ويحطم ضلوعه.

كانت تصرخ «ابني!» على الأرض، وكأنها طفلة صغيرة، وليست امرأة ناضجة قاربت الأربعين من عمرها، كان صراخها يمزق نياط قلبه.

حاول مرعي أن يمسك دموعه بمط شفتيه وابتلاع لعابه، وهو لا يدري ماذا يفعل، كان متجمدًا أمامها كالصنم.

عندما رأته هي صرخت من فوق الأرض في لهفة:

- مرعي!!

كانت كأنما وجدت القشة التي يحتاجها الغريق، فقامت من مكانها وانطلقت نحوه، فتعرقلت في جونلتها الطويلة، وسقطت، ولكنه سارع إليها، وجلس على ركبتيه وانتشلها من فوق الأرض من أسفل ذراعيها كما يحمل ابنته الصغيرة، كانت في حالة انهيار كليةً، وصرخت وهي تنظر له مستنجدةً ممسكةً بيديه:

- أعده لي يا مرعي.. أرجوك أعده لي..

جذبها مرعي له، أخذها لحضنه، كان هذا ما بالضبط ما تحتاجه في هذه اللحظة تحديدًا، تشبثت به بقوة دون وعي، فلفَّ يده حولها، وألقت هي جسدها الضئيل بحضنه، واندفعت تصرخ وكأنها تفرغ كل طاقتها وهي تدفن رأسها في صدره، ولم يكن يملك في هذه اللحظة سوى أن يحتضنها بقوة، فوق الطين، وهما جالسان كأب يصغر ابنته!

* * * *

لم يسمع أحد في الإسطبل صوت الرصاص، ولكن بعد قليل سمعوا أحاديث السياس، وعبارات مثل:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

- مات كافر والعياذ بالله..

- سكة الحرام آخرتها قطران..

كان البعض يضرب كفيه في بعضهما، عندما سألهم مرعي أخبروه أن:

- واحد أفندي ضرب نفسه بالنار في كوشة السلطان!

عقد حاجبيه، ثم سار بخطوات متوترة نحو المضمار، فوجد جمعًا كبيرًا من الناس يتحلقون حول المقصورة، فشقَّ طريقه وسطهم، ووسط الزحام رأى عمال جمعية الإسعاف ينزلون بجثة رجل منها، واضعين إياها فوق محفة!

وكان حارس المقصورة الصعيدي يتمتم في عصبية لأحد الضباط:

- أنا لَجِيته إكديه يا جناب البك، ضرب نفسه بالعيار!

تقدم مرعي أكثر نحو المحفة التي يحملون عليها الجسد المسجى الغارق في الدماء.

وعندما دقق النظر في صاحب الجسد الطويل النحيل، وفي تلك الملامح الوسيمة المتألمة، وعرفه! إنه سليم أفندي حقي!

تجمَّد مرعي في مكانه، ولم يستطع أن يتحرك، كان يوزباشي بملابسه الميري يمسك المسدس الذي وجدوه مع الرجل يحملق فيه ويقلبه بين يديه..

لقد وجدوا سلاح القتيل.

كان مسدسًا يعرفه، مسدس الولد البدوي فوزان! لقد انتحر في أغرب مكان يمكن أن ينتحر فيه إنسان!

كانت الدنيا تدور بمرعي المصري، وهو يرى الرجل أمامه بلا روح، وقد كانت قدماه ترتعشان، والدموع تطفر من عينيه، ولكنه لم يتقدم، لم يقل إنه يعرفه، خاف من الشرطة، من

أن يأخذوه إلى القره قول، وأخذ يراقب عمال الإسعاف وهو يحملون المحفة في أتومobيلهم الخاص، ثم ينطلقون به للخارج، وخلفهم ركب رجال البوليس أفراسهم وانطلقوا!

من بعيد كان جمع فخم يشاهد المشهد في ذهول، خليط من أجانب وبكوات، ومن بينهم لمح رجلًا وجيهًا يرمقه بنظرات باردة.

كان خليل بك، وقد وضع على فمه منديلًا؛ لأنه اقترب بشكل أكثر من اللازم من جمع العامة الفضوليين ذاك..

ورآه من خلف المنديل ينظر له بتشفٍّ شديد، ثم يبتسم ابتسامة كانت كالسُّمِّ في عروقه!

* * * *

---

(39)ممارسة قديمة تسمى الهارا كيري أو السيبوكو.

الرحيل

(1)

كان يسير في سواد أشبه بالعدم، ثم رآهم من بعيد، حول نيرانهم من وسط الليل؛ الطحاوية، جالسين وعبيدهم يطبلون فوق النقرازانات والدربكة، والحجالة السوداء ترقص وسطهم وعصا الخيزران في يدها، بقدميها العجفاوين الحافيتين فوق الرمال.

تصويرك تصوير غزالي والرقبة شيشة مملية

الرمال كانت صفراء، ولكنها محمرة من أثر الدم، تتبَّع خيط الدم بعينيه، فرآها، كانت عايدة تركب فوق حصان

كاشفةً وجهها، خيط الدم يتسرب من بين ساقيها، ساقاها عاريتان بيضاوان، مكشوفتان، كانت تنظر له بلا تعابير، فشعر بقلبه ينقبض وتحرك نحوها..

تمشي في مشيات ثباتا يا خرزة عين الكوهية

الفرس تضحك، تساءل هل يمكن أن تضحك الأفراس؟ أسنان الفرس ضخمة، كأسنان الحمير، شكلها قبيح، عندما تقدم منها، رأى ضابطًا إنجليزيًا يتقدم بحصانه الأسود من يمينه، قال له بالإنجليزية: «ستوب»، ولكنه لم يتوقف، وسار باتجاه عايدة، ولكن الرمال كانت تتحرك من أسفله، كان رأسه يدور، لم يكن يستطيع أن يصل لها، حاول أن يركض، ولكنه لم يصل..

باشا وسط جيوش جبايل حاكم من الدولة العلـية

أصوات العبيد يغنون وطبولهم لا تنقطع في الليل، الضابط الإنجليزي كان يصرخ «ستوب!»، لم يأبه له، وصرخ: يا

عايدة!، ولكن عايدة ظلت تنظر له بهدوء غير عابئة به، صرخ بقوة: متموتيش يا عايدة! متموتيش!، ولكن عايدة لم تهتز، وظلت الدماء تتسرب من بين ساقيها على الحصان، وتغرق الرمال تحته، الضابط لم يقل شيئًا هذه المرة، ولكنه أطلق الرصاص، اخترقت الرصاصة صدره، فصرخ، ثم فتح عينيه!

فتح عينيه فغمره الضوء الأبيض، فأخذ يلهث، وأراد تحريك ذراعه ليلمس قلبه، ولكنه لم يستطع!

رائحة نفاذة تتسرب إلى أنفه، لم يتعرف على كنهها في البداية، ثم أدرك أنها رائحة الكلوروفورم.

سمع الصوت بجواره، فالتفت في وهن، عن يمينه كانت امرأة إفرنجية تلبس الأبيض، قالت باندهاش:

- مستر سليم! يور آر فاين!

لم يعرف ماذا يحدث حوله، ولم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة، خرجت المرأة مفزوعة تركض، فتأمل نفسه فوق السرير، وقد خلعوا عنه ثيابه، ولم يستره سوى جلباب منقوش عليه حروف D.P.H الإنجليزية، اختصار «مصلحة الصحة العمومية»، وأدرك أنه في الإسبيتالية..

كان رأسه يكاد ينفجر من داخله يغلي بالدم، وألم شديد في كتفه وصدره، كان ذراعه الأيسر مربوطًا بالكامل في جبيرة ومعلقًا إلى صدره، فعرف لماذا لم يستطع تحريكه.

بعد قليل جاءه الحكيمباشي فحصه بدون أن يتحدث، ثم قال:

- مستر سليم! أنت محظوظ أن الرصاصة مرت بجوار القلب بسنتيمترات، ولكنها للأسف حطمت لوح الكتف، وخرجت من الجهة الأخرى، قد تعاني لفترة طويلة من مشاكل في كتفك، ولكن يجب أن تكون صبورًا وممتنًا؛ لأنك ما زلت على

قيد الحياة.

كان يستمع للطبيب وكأنه يزف إليه خبر موته وليس خبر نجاته، لم يكن يعلم إن كان ممتنًّا حقًّا لهذا أم لا.

ظل ينظر في وجوه الجميع مثل التائه، عرف أنه ظل في غيبوبة لمدة أسبوع كامل، أسبوع لم يكن فيه في ذلك العالم، لم يعرف ماذا يدور حوله، وفكر أن الموت لا يستحق هذا الخوف، إن ما يستحق الخوف أكثر هي الحياة.

ظل وحيدًا طوال الليلة الأولى، وتلك الغصة في حلقه، لم يستطع البكاء، ظل ملقى فوق السرير كطرد البوستة، لا يستطيع حتى أن يتململ، والخيالات تغزو رأسه، شعر بالغضب؛ لأنهم أنقذوه، ما عاد له شيء في تلك الحياة يمكن أن يعيش من أجله، فلماذا يعود الآن؟ همس لنفسه:

- لقد ضاع كل شيء يا سليم، ضاع كل شيء.

وفكر في عايدة، وفي موتها، وأدرك في تلك اللحظة -كما يدرك كل مُحب بحق- أنه لا يريد حبيبته بجواره بقدر ما يحتاج أن تكون في أمان، ودون أن يشعر شعر بالسائل الساخن يسيل على خديه، وبأن الحزن يتمكن من قلبه، فاستسلم له، واستسلم لمصيره والمكتوب في قدره.. كم يفتقدها؟! كم يحتاجها الآن؟ ولكنها دائمًا من تكون في الحاجة لمساعدته.. لقد غابت الآن ولن تعود..

لقد ظنَّ أن الموت سيكون عقابًا، لقد أراد أن يثبت لمرعي المصري أنه سينال هذا العقاب الذي يستحقه، ولكن الموت لم يكن عقابًا بل الحياة!

* * * *

في ظهر اليوم التالي، وجد هذا الوجه المألوف على باب غرفته؛ كان مرعي المصري.

رآه كما رآه أول مرة بالقبعة المسطحة، والحمالات، وحركات جسده السريعة وعينيه المتيقظتين.

ابتسم عندما رآه، وابتسم مرعي كذلك، كانت علاقة ما قد تكونت بينهما، رغم تلك الظروف التي عرفا بعضهما فيها، تكوَّن بينهما ما يشبه رابطة الصداقة، تلك الصداقة التي تنشأ من تشابُه المحنة، وهي أقوى صداقة.

استقبله سليم بابتسامة، فقال مرعي بصوت مرتفع:

- أنا لما شفتك نازل من الكوشة قلت من هناك على سيدك زينهم، وربنا يرحم الجميع، بس أهه زي القطط بسبع أرواح.

اعتدل سليم، مع ضحكات مرعي المرتفعة، ولكن الممرضة الإفرنجية اندفعت إلى الغرفة وهي تصيح مؤنبةً مرعي على ارتفاع صوته:

- كوايت بليز!

ابتسم لها مرعي وعدّل الكاسكيت فوق رأسه وأرخاه على جبينه، قائلًا:

- والنبي ألماظية! من عينيا، كوايت كوايت..

فمطت شفتيها في ضيق، وخرجت من الغرفة، فيما قال وهو لا يزال يتابعها بعينيه:

- حنّ الحديد لاجل حالي وأنت لم حنيت!

عندما جلس، أخرج من جيبه صورة فوتوغرافية، كانت تُظهرهم جميعًا، فوزان فوق الفرس، وهم الثلاثة: مرعي، وسليم، وميتسي بجوار الفرس. ابتسم بمرارة عندما رآها،

قال له مرعي:

- ميتسي هانم باعتهالك مخصوص.

لم يكن هناك أمل بينهما بشكل ما. كان يعرف هذا منذ البداية، ولكنه كان يشفق عليها.

دار الحديث بينهما عن كل ما فاته في غيبوبته الطويلة تلك، حكى له عما جرى للفرس، وما حدث من ميتسي، ثم أعطاه جريدة وادي النيل، فأخذها وقرأ الخبر الذي أشار له عليه:

«تلبية لرغبة أعضاء جمعية نادي سباق الخيل وجمهوره وتشجيعها لاقتناء وتربية الجواد المربى.

يسرنا أن نعلن عن إقامة المهرجان السنوي لتبادل الجياد التي يرغب المنتجون في بيعها على أن تعرض فيها المِهَار والفرسات سن سنتين وثلاث سنوات من أفضل الخيول العربية بحظائر الأعضاء.

رسوم قيد الجواد ٤ جنيهات، وعمولة المزاد ٢.٥٪ يدفعها كل من البائع والمشتري».

وبالأسفل كانت قائمة بأسماء الخيول وأصحابها ومواصفاتها، ومن بين القائمة قرأ مرعي المصري:

«ميتسي هانم خشاب، الفرس «شمعة»، صقلاوية، اللون أبيض، السن ثلاث سنوات».

مط سليم شفتيه، وقال مرعي بنبرة يشوبها بعض الحزن:

- كل حاجة خلصت!

شرد سليم طويلًا، لقد كان كل ذلك مجرد وهم، لقد

ركض وراء السراب، أفسد كل هذا حياته، لم يتغير شيء، كيف كان موهومًا إلى تلك الدرجة، هل تستحق الأمنيات البعيدة كل تلك المخاطرة؟ هل تفعل الهشاشة كل ذلك؟ هل يمكن أن تخرب أمنية حياة إنسان؟ لماذا لم يقتل تلك الأحلام من البداية؟ لقد كانت كل الدلائل تقول إنه لا فائدة، ولكنه لم يقتلها! لماذا؟ هل لأنها جميلة، أم لأننا أضعف من أن نقتل أحلامنا السخيفة؟

* * * *

في المساء طلب سليم حقي ورقة وقلمًا ودواة حبر، وبدأ في كتابة خطاب:

«عزيزتي عايدة..

أرجو أن تكوني على أتمِّ صحة وعافية..

لقد تغيَّرت أشياء كثيرة، لم تصبح الحياة أفضل، ولكني أصبحت أرى أن الحقيقة المؤلمة أفضل بكل السبل من الوهم المريح..

بعض الأشياء يجب أن ندعها تذهب؛ لأن وجودها يجعلنا مثل الأصنام لا نرى ولا نسمع.

اعذريني إن كانت حياتك معي بهذا السوء، ولكني حصيلة وهمي في النهاية، وأنا أظن أن كل إنسان في هذه الدنيا هو حصيلة وهمه بطريقة ما.

لقد لجأتُ طوال حياتي إلى الطريق الخطر الأسهل، ولم أفهم أبدًا أن أملًا أحمق غير معقول ما قد يضيع كل شيء، وأن الأحلام لا نصل إليها بالمخاطرة.

الحقيقة أن أثمن الأشياء التي يجب أن نبحث عنها هي في أيدينا بالفعل، وحتى الأمل يجب أن نقبله؛ لأن الحياة ما

هي إلا مزيج بين فرح وحزن، ووصل وفقْد.. أما إن بحثنا عن تلك السعادة الخالصة فما هو إلا سعي سيكلل بالفشل.

لقد كنتِ دائمًا بين يديّ، ولكني كنت أبحث عنك في مكان بعيد.

ربما هناك وسط الخيول والأرقام، وأوراق البنكنوت، وتذاكر اللوترية، ولكنك كنتِ بين يدي، عشتُ سنوات طويلة أريد أن أثبت لنفسي أني أستحقك، غير عابئ بك، أو بما تشعرين به، إن خيطًا رفيعًا يفصل بين الحب الحقيقي والأنانية، فاعذريني إن كنت تخطيت من هذا إلى تلك.

إني انظر الآن خلفي وكل أملي في الحياة أن أنسى الماضي.

غريب هو الإنسان، قد يعيش حياة كاملة، وبنهايتها يتمنى لو أنه محاها.

ربما يكون ما أكتبه هو مجرد هلوسة، فأنا في حالة لا تسمح لي بأن أقول أو أعيد..

عايدة، أنا أحبك..

وأظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي لن أندم عليه في نهاية حياتي.

وداعًا»

كتب العبارة الأخيرة وهو يرتعش.

* * * *

في صباح اليوم التالي، كانت الممرضة الانجليزية الحسناء تدخل الغرفة لتبديل ملاءات السرير وهي تقول بصوت

مرتفع:

- جود مورنينج مستر سليم..

ولكنها لم تكد تدخل حتى رأت الغرفة خاوية على عروشها، والسرير بوسطها بارد لم ينم أحد عليه طوال الليلة الماضية.

وقفت تحملق في السرير دون فهم!

* * * *

كانت خطواته ضعيفة ولكنها ثابتة، تقدم بهدوء وتحت الشمس الصحوة نحو إسطبلات الخيول فدخلها، وعند الكشك وجد الفرس بيضاء كلؤلؤة، لم يكن يعرف حقًّا لِمَ تعلق قلبه بتلك الفرس منذ يوم رآها، ولكنه عرف في تلك اللحظة السبب، إنها تشبه عايدة بشكل ما، تشبه تلك الأماني التي كان يجب أن يدعها تذهب من البداية، بحُرية، وألا يتمسك بها دون طائل.

كان فوزان هناك، إقامته طالت بجوارها في الإسطبل تحت حماية الحاج ونيس، عندما رآه تعجب، نظر له وهو يتقدم نحوه وذراعه معلقة برقبته بجبيرة، وعلى ملامحه أمارات الجد.

قال له:

- عاوز تروح بلدك؟

لم يعِ فوزان في البداية ما يقوله، ولكنه سأله بنبرة حازمة:

- رايحين يبيعوا الفرس في المزاد بكرة.. عاوز تروح بلدك؟

بدت مشاعر الرعب على وجه الولد، ثم أومأ برأسه أن «نعم»، وانطلق بدون كلمة نحو غرفة السروج.

أما هو فلم يُضيِّع الوقت، أخذ سرجًا معلقًا على أحد أعمدة المربط، وبيد واحدة خبيرة تدربت على ذلك منذ زمن وضع السرج على ظهرها.

ما عاد هناك وقت لألم جديد بعد الآن، لقد انتهى كل شيء، وهذا المعبد يجب أن ينهار على أصحابه جميعًا، وإن كان فوقه هو نفسه.

الحاج ونيس رآه من بعيد، فتقدم باتجاهه وهو يصيح:

- داير شنو؟

لم يهتم سليم بما يقوله، ولكن مال وربط القشاط بذات اليد الواحدة حول بطن الفرس، فزاد ونيس بغضب، وقد ارتعش صوته من أثر سنوات عمره فوق كاهله:

- الفرس دي حقت الست ميتسي؟ داير شنو أنت؟ عليك الله خلي الفرس..

كان فوزان في تلك اللحظة قد ظهر بملابسه القديمة، وبقجته، فابتسم..

كان الولد خائفًا لكنه حُر، كان كأنما تحرر من كل ما ألحقته به هذه المدينة من أذى وخوف واضطراب، فصار مثل الفرس البرية التي تتوق إلى الحرية..

التفت سليم إلى ونيس وقال بحزن:

- اسمع يا حاج ونيس! أنا راح آخد الفرس، وقفت في طريقي أو موقفتش، مش هينحيني عن اللي في راسي شي، أنا مش فارق معايا.. قولهم سليم حقي سرقها!

قالها ثم وضع قدمه في الركاب، وقفز فوق الفرس برشاقة مُبهرة، مستندًا على ذراع واحدة قوية.

كانت المرة الأولى التي يركب فيها جوادًا منذ رفته من السواري، ولذلك عندما استوى فوقها لم يستطع أن يغالب ابتسامته، وقد شعر بالغبطة، وتلك الرعشة القديمة في صدره، ودمعت عيناه.

الحاج ونيس نظر للصبي فوزان وإلى هذه النظرة الملهوفة للحرية في عينيه، رأى نفسه القديمة؛ ذلك الولد الصغير الذي أسروه عبدًا منذ زمن بعيد، وجاؤوا به إلى هنا، وعاش بقية عمره يخدم في هذه المدينة القاسية، القاتلة للحرية والأمنيات، اغرورقت عينا الكهل بالدموع، لا، فهو لن يكون سجانًا بعد الآن، لم يعد في العمر بقية، لقد قارب المائة عام..

قال وصوته يرتعش:

- أنا عشت طول عمري ما خنت الأمانة..

كان نفسه يعلو ويهبط مثل أمواج البحر، وفوزان يرمق الدموع في عينيه وهو يستطرد:

- بس الخوف فكة جبارة، وأنا ما خايف يا ولدي.

في تلك اللحظة ذاتها مد سليم يده السليمة لفوزان فتمسك بها، فقفز الولد وراءه على الفرس، وابتعد ونيس خطواتين للوراء، وهو يتمنى أن يعود به الزمان مرة أخرى، ثم زعق لأحد السياس عند البوابة بصوته الهرم من بين بكائه:

- يا صالح! افتح البوابة للزول اللي خارج..

قالها والدموع تتلألأ في عينيه الجميلتين، نظر له سليم في امتنان، فإذا بالعجوز يضرب كفل الفرس بقوة لا تتناسب مع سنوات عمره، وهو يصرخ وكأنه عاد شابًّا ينشد الحرية:

- يلا!

كانت ذات اللحظة التي لكز فيها سليم بطن الفرس بقوة وهو يصيح بحماس فارس قديم، وقلبه ينتفض:

- هع!

ونيس الشائب أعجبه ذلك المشهد البديع، هو يرى الفارس المهيب فوق الفرسة الأصيلة الحرة، كأنه يرى بطلًا من أبطال الأساطير القديمة، كأنه يرى حلمه القديم قد تحقق أمامه، أن يأخذه أحد الخيول بعيدًا بعيدًا، حيث أهل فارقهم منذ سنين طويلة..

* * * *

وصل مرعي المصري في تلك اللحظة التي كانت فيها الفرس تنطلق خارج الإسطبل، في البداية لم يعرف مَن فوقها، ولكنه تحقق وأدرك أنه سليم حقي وخلفه الصبي فوزان!

كاد ينادي عليه، ولكنه أدرك أنهما ابتعدا أكثر من اللازم، ركض نحو الداخل في توتر وقلبه ينتفض، وقد بدأ يدرك ما حدث، وعندما رأى الحاج ونيس الذي كان لا يزال واقفًا في عينيه دموع تتحدث، ولمعة لم يرها من قبل رغم أنه يعرفه منذ سنوات..

صاح فيه:

- الفرس راحت فين يا ونيس؟!

لكن ونيس لم يتحدث، لم يعطِ مرعي المصري أهمية، بل ضحك ضحكته الخبيثة، ثم دار لينصرف إلى عمله، وكأنه لم يرتكب مصيبة، وكأنه لم يشارك في هدم ذلك المعبد.

وضع مرعي يديه على رأسه، وتأمل الباب الذي خرجت منه الفرس، وهو يفكر في ميتسي خشاب، وما يمكن أن تفعله، ثم لم يستطع أن يتمالك نفسه من الابتسام، فابتسم وهو يتمتم:

- يا ولاد الكاالب!

* * * *

(٢)

من باب عربة السبنسة المفتوح في القطار الذي يأكل القضبان الممتدة كشريط وسط الصحراء وقف الولد فوزان بن مجلي الطحاوي بملابسه البدوية القديمة، يرمق اللون الأصفر الذي لا ينتهي.

البابور ينفث الدخان بقوة في الهواء، وحركة العجلات تهز جسده وكيانه معًا.

التفت الولد لداخل العربة فرأى الفرس تأكل في أمان تبنًا وُضِع لها في زكيبة مفتوحة، وشعر بالفخر بداخله، والرضا لأنه أنقذها، ولأنه عاد بها.

تذكَّر الأفندي الذي أنقذه، وفكر في أنه لن ينساه، بقامته الممشوقة ووجهه الوسيم الحزين، وتلك الابتسامة الهادئة التي ودَّعه بها على رصيف المحطة، وهو يعطيه تلك الصورة الفوتوغرافية التي تُظهره فوق الفرس «شمعة».

بكى والفرس تنطلق بهم من الإسطبل، وهي تترك تلك المدينة بكل جدرانها البيضاء الباردة، وأهلها الذين اصطفّوا يشاهدون تلك الفرس وراكبيها وهي تركض وسطهم نحو الصحراء.

ربما لم يفهموا المشهد الذي رأوه في هذا اليوم، لم يروا دموع ضابط السواري السابق، أو صراخ الحرية الذي أطلقه الولد البدوي وهو يتمسك به عندما رأى الصحراء في الأفق شاسعة وجميلة ومألوفة، مثلما عرفها، مثلما انتمى إليها..

ابتسم عندما تذكر سليم وضمَّ بقجته إلى صدره، ثم مسح دموعًا فرت من عينيه، وعاد ينظر من الباب للهواء الطلق.

إن في صدره الصغير العديد من الحكايات، ولسوف يحكي لأمه ورفاقه في مضاربهم عن كل شيء، عن مصر، وأضوائها، والأتوموبيلات التي تسير بالجاز، وعن الترامواي، ومصابيح الكهرباء، وصنابير المياه، ووابورات الفحم..

سيحكي لهم عن النسوة الخواجات والأفندية ولوكاندة هليوبوليس، وعن مرايا لونا بارك السحرية، وعن ميتسي خشاب، المرأة الإنجليزية، وعن عايدة الملاك الجميل، وعن مرعي المصري الفظ الحنون.. ثم عن سليم حقي..

* * * *

(٣)

وقف سليم أفندي حقي يراقب العربة الكارو التي تقف أمام منزله، وفوقها يجثم جرامافون لامع، وتابع العربجي وهو يفكُّ عنه الحبال، ثم قال بصوت مسموع:

- بالراحة يا معلم حجاج!

التفت له الرجل وعلى وجهه تلك الابتسامة، وقال:

- من عينيا يا سعادة البك.

ثم التفت للشيالين وصاح فيهم:

- شهّل يا ولد إنت وهو..

نظر سليم لمشربية بيته بالأعلى، فوجدها فارغة، فابتسم ابتسامة منكسرة، ونظر لاثنين من الرجال الأقوياء اللذين حملا الجرامافون، وأخذ يراقبهما.

لقد تغيرت أشياء كثيرة الآن، استطاع بيع الأتوموبيل، اشتراه خواجة أرميني بمائتي جنيه، ووجد عملًا كباشكاتب في محل أفوكاتو بباب الشعرية.

صعبة هي الحياة، ومؤلمة، إنها لا تعطينا ما نريده أبدًا، على الأقل لا تعطينا كل ما نريده، ولكن هو الآن يفهم حقيقتها، إن هناك ألمًا لن يزول، ولكن هناك معنى وحيد للحياة يعرفه الآن، وهو تحمُّل المضي عبر الأيام مع الألم.

عندما انتهى الرجال من وضع الجرامافون بمنزل الصالة، وهبطوا مدَّ يده في جيبه لينقدهم مالهم، ثم حاسب صاحب الكارو، وبينما هو يفعل التفت إلى عربة حنطور دخلت الحارة، وسدَّت على الكارو الطريق، وشعر أن قلبه سيتوقف.

فمن الحنطور الذي توقف كانت خادمة عجوز قوية البنية تنزل منها، وتتحدث للعربجي بصوت مرتفع، ثم ساعدت فتاةً نحيلة الجسد محنية الظهر على النزول، فنزلت ببرقع أبيض يخفي وجهها، ولكنه لا يخفي الباقي من جمالها!

لم يهتم لحظتها بحجاج وتقدم خطوتين للأمام وهو يبحلق فيها، وقد تعرف عليها من تلك النظرة المتلهفة في عينيها اللتين كانتا ترمقانه بهما.

ومن بين شفتيه تمتم والدموع تطفر من مآقيهما بأمله الذي لن يكتمل، وبكلمة كان يرددها طوال لياليه الموحشة الماضية، وقال:

- يا عايدة!

* * * *

(٤)

تنفس مرعي المصري الصعداء محاولًا السيطرة على انفعالاته، وضبط القبعة على رأسه، ثم تأكد من أن أوراق البنكنوت في جيبه؛ هي الباقية من ثمن الفرس الذي لم يدفعه، تقدم ناحية سرايا خشاب بك في شارع مينيس.

كان يشعر بهذا الخليط الغريب من النشوة والقلق، سيعيد هذه الأموال لصاحبتها، لن يقبلها، هو لا يريد مالها الآن..

طوال أيام ظل يرى ابتسامتها أمام عينيه، نظرة حدقتيها، ملامحها البريئة كقطة صغيرة، وتجاعيدها الجميلة كلما ضحكت، لم تكن تفارق عقله ولا وجدانه. كان يتذكرها بكل أشكالها.

لا يعرف تحديدًا لِمَ جاء إلى هنا، ربما سيعطيها مالها فقط ويرحل، ربما سيقول لها إنه أدرك المعنى الحقيقي للحب، إنه ليس البقاء بجوارها، ولكن فقط تمنّي السعادة لها، ربما كان يريد أن يقول لها إنه ممتنٌّ لتلك الظروف التي جمعته بها. ربما سيطلب منها أن يحتضنها حضنًا أخيرًا، ثم سيرحل متخليًا عن عالمه كله، ليبدأ من جديد في مكان آخر. لم يعرف.

تقدم وهو يرتعش ثم سأل البواب عنها، قال له:

- مدام ميتسي سافرت!

بُهِتَ مرعي وشعر بقلبه يهوي بين قدميه، ثم تمتم:

- سافرت! سافرت فين؟

مطَّ الرجل شفتيه بأنه لا يعلم، فنظر له مرعي كيتيم، ثم

التفت ليغادر، ولكن سمع الصوت من ورائه يستوقفه:

- يا مرعي أفندي؟!

نظر له مستفهمًا، فرأى عثمان الخادم يتقدم منه وهو يردف:

- ثانية واحدة..

وغاب ثم عاد، بمظروف أبيض قائلًا:

- لقد طلبت مدام ميتسي أن نسلمك هذا في حال جئتَ تسأل عنها..

أمسك مرعي المظروف بأنامل مرتجفة، وخرج للشارع وهو يشعر بتلك الغصة الأليمة بحلقه، لم يعرف لماذا قادته خطواته في ذلك اليوم لمضمار السباق الذي كانت مدرجاته خاوية بعد أن انتهى موسم السباق هذا العام، ربما كان يفرُّ من وحشته الداخلية وألمه إلى مكان يعرفه ويحفظه، مكان مألوف يكرهه ويحبه في الوقت ذاته، مكان يشبه اختلاط مشاعره وتخبط أفكاره، مكان كاذب وصادق مثله، مكان تجتمع فيه قذارة مرعي وماديته وبياض قلبه وفطرته الأولى..

هناك فوق المضمار الترابي فضَّ مرعي المظروف الأبيض، واستخرج الخطاب الذي كان مكتوبًا بخط عربي بحروف متكسرة كتبته يد غير متمكنة بحبر أسود..

كانت ميتسي خشاب في تلك اللحظة فوق سطح باخرة ضخمة تبحر بها وسط البحر المتوسط، نحو الشمال، وعلى حاجز الباخرة الحديدي وقفت وهي تبتسم وقد تركت هواء البحر المحمَّل برائحة اليود يتخلل شعرها، وينساب لأنفاسها ويتسرب لصدرها، وهي تشعر أنها تتحرر من كل شيء كبّلها ذات يوم.

كانت النوارس تطوف حولها كأنها تحتفل بها، وكانت هي تغمض عينيها لتستقل هذا العالم الذي بدا وكأنه يولد من جديد لها..

«عزيزي مرعي..

أتمنى أنك بخير.. هل تذكر عندما أخبرتُك بأن بعض الأمنيات خطرة؟ أحيانًا يا عزيزي مرعي يكون علينا أن نتخلى عن الأماني التي ترفض أن تكتمل، أن ننسى الماضي معها، إن جزءًا من تعلُّقِنا بهذه الآمال الكاذبة هي لأنها جزء من ماضينا، جزء من أرواحنا، ولكن من أقرَّ هذه الأحلام إلا نحن؟ بعض الأشياء مقدسة؛ لأنه مرَّ عليها الوقت ليس أكثر، نحن لا نولد بأحلامنا، ولكننا نخلقها، ونضيفها إلى ذواتنا، كأنها أجنحة تجعلنا نطير، لكن.. من قال إنه لو قُصَّت هذه الأجنحة سنموت؟ ربما استطعنا وقتها أن نرى ما ينتظرنا فوق الأرض، ربما ما نريده حقًّا هو تحت أرجلنا يا مرعي، وليس في سابع سماء.. ربما هو تحت حَجَر في مكان ما.

عزيزي مرعي، يجب علينا أن نتصالح مع الحياة، بكل ما فيها من ألم وخذلان؛ لأن بعض الأماني لا تتحقق يا مرعي، بعض الأماني لا تأتي، ولا نملك إلا أن نتركها ترحل بعيدًا ولا نضيع أعمارنا بالركض وراءها.

انْسَنِي، وانْسَ كل ألم، وعِشْ حياة سعيدة، وتمنَّ لي السعادة، فأنا أحببتك ذات يوم، وأعرف أنك أيضًا فعلت..

ملحوظة:

بالنسبة للفرس التي هرب بها الولد البدوي، فلا تقدم أي بلاغ للشرطة، لقد نسيتُ أمرها.

أما بالنسبة لهذا الخطاب، فاحتفظ به؛ لأنه بعد سنوات، وحين يكون هذا الألم قد زال، ستحتاج لتتذكرني، مثلما

سأتذكرك، فالماضي وإن كان حزينًا يبقى جزءًا منا.. وقتها تذكرني وابتسم. مثلما سأبتسم أنا أيضًا.

وداعًا»

نظر مرعي للحروف المتراصة، وشعر بمزيج غريب من الشجن والراحة، ثم طوى الرسالة في جيبه وهو يتنهد، ورفع عينيه للمدرجات الخاوية، وتأملها وعلى شفتيه ابتسامة هادئة.

من خلفه سمع النداء:

- يا مرعي أفندي! يا مرعي أفندي!

التفت فوجد عاملًا من عمال الإسطبلات يقول:

- فيه جدع أفندي بيسأل عليك..

مدَّ نظره فرأى الأفندي وراءه، غريب خجول، يمسك طربوشه في يده، قال له بصوت متردد:

- أنا.. كنت بدور على سمسار خيل، وأولاد الحلال دلوني عليك..

ظل مرعي يرمقه، فيما تابع:

- أنا كان بدي أراهن على فرس ريحانة..

نظر له مرعي مليًّا، ثم ابتسم تلك الابتسامة الوسيمة الواسعة!

* * * *

خاتمة

طلع الفجر وغالب الطحاوي لا يزال يمسك تلك الصورة في يده، كان كأنما رأى كل شيء في لحظة كشف غريبة، أو إلهام ما، كان شاردًا، يتأمل وجوه الأفندية الاثنين والمرأة الخواجاية وفوزان الطحاوي فوق الفرس، رفع عينين متسائلتين وكأنما يستيقظ من حلم طويل، ثم نظر بذات النظرة إلى خدمه الذين كانوا يحاولون قراءة ما في عينيه.

مات برجس الطحاوي؛ لأنه كان مكتوبًا عليه أن يموت، وعاش فوزان الطحاوي؛ لأنه كان مكتوبًا له أن يعيش، ظل مخلدًا في تلك الصورة للأبد بالقصة كلها.

ما عاد غالب الطحاوي يؤمن بكلام الحريم الآن، ولا يعرف لماذا، فوزان الطحاوي لم يقتل أباه. كان قد عاش بتلك القناعة خمسين عامًا، وفقد الإيمان بها في نصف ليلة. ربما عندما رأى تلك الصورة، وربما لأنه فتش بيت فوزان الطحاوي وجثته لم تبرد في قبره. لم يعرف، ولكنه قرر في ذلك الفجر أن يسامح، وينسى.

ابتلع لعابه، ثم قام من فوق كرسيه، يستند إلى عصاه، ثم دسَّ الصورة الفوتوغرافية بين بقية الخطابات، وأعطاها لهم.

قال:

- رجِّعوها مكانها!

تأمل البيت الذي عاش فيه فوزان الطحاوي فقيرًا معدمًا سنوات طويلة، لو كان سرق أباه لما عاش ومات هكذا، أمرهم بإغلاق البيت على ما فيه، وكأنه سر دفين يجب أن يظل في الظل. لن يعرف أحد ما عرفه عن فوزان الطحاوي

رغم أنه لم يعرف إلا القليل!

أغلقوا الباب برزّة وقفل.

نظر الشيخ غالب لضوء الصباح الأبيض الصافي في الأفق، وشعر بنسمة هواء باردة تتخلل حنايا صدره، ثم هز رأسه، واستند على عصاه مبتعدًا عن البيت والخدم يتبعونه.

عاش فوزان الطحاوي سنوات طويلة في جزيرة سعود بعد أن ودَّعه سليم حقي في ذلك اليوم بمحطة القطار، تزوَّج وماتت زوجته صغيرة ولم ينجب منها، لم يتزوج مرة أخرى، وكان يحضر حفلات الزفاف، ويشاهد بشغف سباقات الخيل التي يقيمها الشباب في البلدة، كان يقول لهم: «الخيل وجوهها عضم تغلب وتنغلب»، مطيبًا خاطر الخاسرين، يقولها ويضحك تلك الضحكة الرائقة، فيضيع صوته وسط الزغاريد، وطلقات الخرطوش والبواريد.

يراه الناس كل يوم يمر على النجوع المجاورة سائرًا على قدميه، وهو يحمل تحت إبطه حصيرة خوص، وعلى ظهره زكيبة من الخيش، بها أدواته التي يعمل بها في إصلاح سروج الخيل وعِدَّتِها، ووقت أن ينزل في إحدى الدور أو إسطبلات الخيل يجتمع عليه الأطفال، فيجلسون حوله يشاهدونه يعمل، جالسًا فوق الحصير وناثرًا أدواته، وكان هو هادئ الطباع يحب مجالستهم ومداعبتهم ولا يستكبر كعادة الرجال في سِنِّه.

كان العيال ينتظرونه ليراقبوه وهو يشرب الدخان، يدخن سجائر لف، يضعها في علبة فضة، يلف السجائر فوقها، ثم يدخنها في مِبسم طويل من أعواد الورد، وكثيرًا ما أضاع هذا المِبسم وسط أدواته، فيبحث معه الأطفال عنه، وربما وجدوه أسفل الحصيرة بعد أن يقلبوها، وكانوا يحبون النظر له وهو يعمل واضعًا السيجارة بين شفتيه وهو يتكلم ويضحك، حتى إذا ما ألقاها جمعوها كسبارس!

وعندما تميل الشمس في الأفق يراه الناس حاملًا زكيبته وحصيرته، عائدًا مع الطريق إلى جزيرة سعود.

كان رجلًا صاحب طُرفة، متواضعًا، وبشوشًا، يُحدِّث الكبير والصغير، خاصة البنات الصغيرات، فيقول للواحدة منهن إذا رأى ضفائرها الجميلة:

- شعرك يا بنت زي الليل يشبه سباسب خيل!

فتضحك كعصفورة، وتكتم فاهها بكفيها الصغيرين خجلًا، ويتعلق به الأولاد الصغار في طريقه حتى يودِّعوه على أطراف البلدة.

كان نحيلًا، عظام وجهه بارزة، متوسط القامة، له شارب أشيب نحيل فوق فمه الرقيق، يعطيه طابعًا طيبًا حزينًا، ناهيك عن عينيه الضاحكتين دائمًا.

هذه هي الهيئة التي ارتضاها لنفسه كنهاية، حيث عاش حياته الطويلة هكذا، حتى وجدوه ميتًا على سريره، مثل النائم..

ستمر سنوات طويلة فاصلة بين اللحظة التي ركب فيها فوزان الطحاوي القطار من القاهرة إلى جزيرة سعود، وستتغير أشياء كثيرة.

في العام ١٩٦٩ سيُغلق مضمار السباق في هليوبوليس باعتباره مظهرًا من مظاهر الاستعمار والرأسمالية، وسيتحول المضمار إلى حديقة المريلاند، ثم إلى سينما مكشوفة، ثم سيطاله الخراب، ويُنسى ولا يبقى منه إلا اسم الشارع المؤدي لأطلاله، والذي يربط بين شارع الحجاز وجسر السويس والذي يسمى لليوم شارع السبق.

ستتواصل عايدة مع فوزان الطحاوي بالرسائل، سترسل له الكثير من الخطابات بعد أن تعرف عنوانه من سليم حقي،

ولكن تلك الخطابات ستنقطع بغتة في العام ١٩٢٥.

ستُهدم ملاهي اللونا بارك، وتصبح ميدان روكسي، وسيؤمَّم فندق هليوبوليس بالاس بعد الثورة، وسيتحول إلى قصر الاتحادية.

لن يعرف أحد شيئًا عن ميتسي خشاب بعد سفرها لإنجلترا، ولن يعرف أحد شيئًا عن مرعي المصري، وستغيب ذكرى سليم أفندي بعد انقطاع خطابات زوجته.

لقد كانوا الأربعة مثل كرات البلياردو، تلاقوا في لحظة خاطفة من الزمن، تصادموا، تقاطعت حيواتهم، ثم ارتدَّ كل منهم في اتجاه. ولم يلتقوا ثانية.. أبدًا.

ستمر السنوات وعندما سيكتشفون فوزان الطحاوي ميتًا سيجدونه نائمًا على جانبه مثل الجنين مغمض العينين فاغرًا فاه، وقد ضم يديه إلى صدره، وسيظنون أنه كان يترجى الموت لإعطائه مهلة أخرى.

ولكن الحقيقة أنه في تلك الليلة التي مات فيها فوزان الطحاوي وعلى سريره رأى ذلك الحلم البعيد. بأنه عاد صغيرًا، فوق فرسته البيضاء «شمعة». في مضمار هليوبوليس القديم، وأصوات الجماهير مرتفعة في كل مكان.

سيلتفت إلى الوراء، ويشاهد على مقربة سليم أفندي حقي، يضع يديه في جيبه، ويستند إلى الأتوموبيل الأسود، وبجواره الست ميتسي الإنجليزية تضحك، ومرعي أفندي المصري يستند برجله على إطار الأتوموبيل وينفث دخان سيجارته، وينظر له تلك النظرة الساخرة. الشقية.

سينظر لهم ويبتسم، ثم سيلتفت مرة أخرى نحو المضمار متأهبًا للسباق، وسط الهتاف الشديد وعلى وجهه ابتسامة.

عندما سيجدون فوزان الطحاوي ميتًا سيجدونه مثل الجنين، ولكن الحقيقة أنه سيكون في وضعية الركوب، كما علَّمه مرعي أفندي أن يركب كالقرفصاء، ويداه لم تكونا تترجيان الموت كما ظنوا، ولكن تمسكان لجام فرسه، التي لكزها في هذه اللحظة في ذاك الحلم الأخير، فانطلقت، تجري، وتجري لا يسبقها أحد!

(تمت)

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمَ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

مُقامرةٌ على شَرف الليدِي مِيتسي

ترى ما الذي يجمع ولدًا بدويًا، وسيدةً إنجليزية، وضابطًا متقاعدًا مع سمسارٍ للخيول في مكانٍ واحد؟

في ليلةٍ استثنائية يجد الصبي الفقير "فوزان" نفسه مُجبرًا على خوض سباقٍ للخيول، بأكبر مضمارِ خيولٍ في مصر، حيث يتجمع الملوك والباشوات، من أجل تحقيق أماني ثلاثة غرباء..

بين الحب والرغبة ووخز الضمير، ثم الخوف من السقوط في الهاوية.. تتشابك أربعة أقدار تجمعها كلمةُ "الأمل".

بأسلوبٍ بليغ ورسمٍ درامي عميق الحِس تكتمل الصورة الحقيقية لصراعاتٍ طبقية وأحلام صعبة لكنها مشروعة، وفي مشهدٍ طويل لحكاية تبدو قصيرة يحدث التعلق الأعمى بالأمل داخل كل شخصية، حتى يُضفي الكاتب على الحكاية طابعًا مميزًا يجعلك تعيش مع أبطال الحكاية لحظةً بلحظة في ترقُّبٍ وشغفٍ انتظارًا لما قد يحدث لأصحاب المقامرة في نهاية المطاف.

COVER DESIGNED BY
AHMED FARAG

أحمد المرسي

كاتب، وروائي، وصحفي مصري، من مواليد 1992، حاصل على بكالوريوس الإعلام جامعة القاهرة، قسم الإذاعة والتلفزيون، ويعمل صحفيًا ومُعد برامج في قناة دريم الفضائية، ومحررًا في شبكة روتانا، بالإضافة إلى عمله في عددٍ من الصحف المصرية والعربية من بينها: صحيفة "الوطن". صدر له روايتان، هما: «ما تبقى من الشمس» عام 2020، و«مكتوب» 2021، إلا أن الرواية الأولى قد فازت بالمركز الثاني بجائزة ساويرس الثقافية "فئة شباب الكُتّاب"، وتعد رواية "مقامرة على شرف الليدي ميتسي" هي العمل الأدبي الثالث له.

t.me/twinkling4

دَوِّن
للنشر والتوزيع

9 789778 063240